الجامع في الهدايات القرآنية

سُورَةُ النِّسَاءِ الجزء الثاني

جمع واستنباط

نخبة من الأساتذة وطلاب العلم في التفسير والقراءات والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية والتربية والعلوم الطبية وغيرها، من مختلف دول العالم عبر مجموعة واتساب متخصصة في الهدايات القرآنية

إشراف

أ.د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

رعاية

كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

ومؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمكة المكرمة

قال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٤].

٢٧٩٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما بين ﷻ نفاقهم المقتضي لتقاعدهم عن الجهاد بأنفسهم وتنشيطهم لغيرهم، كان ذلك سبباً لأن يمضي ﷺ لأمره ﷻ من غير التفات إليهم وافقوا أو نافقوا، فقال ﷻ بعد الأمر بالنفر ثبات وجميعاً، وبيان أن منهم المبطىء، مشيراً إلى أن الأمر باق وإن بطّأ الكل: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي له الأمر كله ولو كنت وحدك. ولما كان كأنه قيل: فما أفعل فيمن أرسلت إليهم إن لم يخرجوا؟ قال -معلماً بأنه قد جعله أشجع الناس وأعلمهم بالحروب وتدبيرها، وهو مع تأييده بذلك قد تكفل بنصرته ولم يكله إلى أحد-: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ أي ليس عليك إثم أتباعك لو تخلفوا عنك، وقد أعاذهم الله ﷻ من ذلك، ولا ضرر عليك في الدنيا أيضاً من تخليهم، فإن الله ﷻ ناصرك وحده، وليس النصر إلا بيده ﷻ، وما كان ﷻ ليأمره بشيء إلا وهو كفوء له، فهو مليء بمقاتلة الكفار كلهم وحده وإن كانوا أهل الأرض كلهم، ولقد عزم في غزوة بدر الموعد – التي قيل: إنها سبب نزول هذه الآية – على الخروج إلى الكفار ولو لم يخرج معه أحد؛ وقد اقتدى به صاحبه الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة فقال للصحابة رضي الله تعالى عنهم: والله لو لم أجد إلا هاتين – يعني ابنتيه: عائشة وأسماء رضي الله تعالى عنهما – لقاتلتهم بهما. ولما كان ذلك قد يفتر عن الدعاء قال: ﴿ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي مرهم بالجهاد وانههم عن تركه وعن مواصلة كل من يثبطهم عنه وعظهم واجتهد في أمرهم حتى يكونوا مستعدين للنفر متى ندبوا حتى كأنهم لشدة استعدادهم حاضرون في الصف دائماً. ثم استأنف الذكر لثمرة ذلك فقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ ﴾ أي الذي استجمع صفات الكمال ﴿ أَن يَكُفَّ ﴾ بما له من العظمة ﴿ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي عن أن يمنعوك من إظهار الدين بقتالك وقتال من تحرضه، ولقد فعل ﷻ ذلك، فصدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، حتى ظهر الدين، ولا يزال ظاهراً حتى يكون آخر ذلك على يد عيسى عليه

الصلاة والسلام. ولما كان السامع ربما فهم أنه لا يتأتى كفهم إلا بذلك، قال ترغيباً وترهيباً واحتراساً: ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ أي الذي لا مثل له ﴿ أَشَدُّ بَأۡسٗا ﴾ أي عذاباً وشدة من المقاتِلين والمقاتَلين ﴿ وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ أي تعذيباً بأعظم العذاب، ليكون ذلك مهلكاً للمعذب ومانعاً لغيره عن مثل فعله؛ قال الإمام أبو عبد الله القزاز: يقال: نكلته تنكيلاً - إذا عملت به عملاً يكون نكالاً لغيره، أي عبرة فيرجع عن المراد من أجله، وهو أن الناظر إليه والذي يبلغه ذلك يخاف أن يحل به مثله، أي فيكون له ذلك قيداً عن الإقدام؛ والنكل - بالكسر: القيد. [نظم الدرر].

٢٧٩٣. تفيد مع ما قبلها أن التخلف عن الجهاد وقتال الأعداء هو اتباع لخطوات الشيطان.

٢٧٩٤. فيها، وبضميمة ما قبلها: أن تحريض المؤمنين على القتال من صفات المؤمنين، بخلاف المنافقين الذين يخذلونهم ويثبطونهم القتال بالأخبار، وغيرها.

٢٧٩٥. فيها مع التي قبلها: أن القائد الرباني صاحب العلم والحكمة والخبرة؛ الذي يقبل على قتال الأعداء من الكفار طاعة لله وفي سبيل الله، ويحرض المؤمنين على القتال في سبيل الله؛ مبشراً بالعناية والتأييد وكف أذى الكفار وبأسهم عنه وعن جنده.

٢٧٩٦. فيها أن القتال كان واجبا على رسول الله ﷺ.

٢٧٩٧. دَلَّتِ الآيَةُ عَلى أنَّهُ ﷺ كانَ أشْجعَ الخَلْقِ وأعْرَفَهم بِكَيْفِيَّةِ القِتالِ؛ لِأنَّهُ تَعالى ما كانَ يَأْمُرُهُ بِذَلِكَ إلّا وهو ﷺ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصِّفاتِ، ولَقَدِ اقْتَدى بِهِ أبُو بَكْرٍ ﷺ حَيْثُ حاوَلَ الخُرُوجَ وحْدَهُ إلى قِتالِ مانِعِي الزَّكاةِ، ومَن عَلِمَ أنَّ الأمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ، وأنَّهُ لا يَحْصُلُ أمْرٌ مِنَ الأُمُورِ إلّا بِقَضاءِ اللَّهِ سَهُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

٢٧٩٨. فيها أن الأمر للنبي ﷺ، هو أمر لأمته أيضاً لأنه القدوة، وقد علم إيجاب الجهاد على جميع المؤمنين بقوله: ﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [النساء: ٧٤] فهو أمر للقدوة بما يجب اقتداء الناس به فيه.

٢٧٩٩. تفيد أن قتال النبي ﷺ كان متمحضاً لغاية واحدة، وهي نصر الدين ودفع الأعداء، وليس قتاله للملك والسلطان.

٢٨٠٠. فيها: وجوب القتال في سبيل الله. والأصل في الأمر الوجوب.

٢٨٠١. فيها: إشارة إلى الإخلاص، وحرمة القتال إذا لم يكن في سبيل الله ﷻ.

٢٨٠٢. فيها تحديد المسؤولية الفردية، وتأكيد العدل الإلهي: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٢٨٠٣. تفيد أنه يجب على الإنسان مراعاة نفسه وقيادتها للحق؛ لأنه مكلف إياها.

٢٨٠٤. تفيد: أن الواجب أن يقبل المسلم على ما أوجب الله عليه، وإن خالفه الناس.

٢٨٠٥. فيها: الهداية بيد الله ﷻ؛ فلا يكلف أحد بهداية أحد.

٢٨٠٦. تفيد: قاعدة فقهية وهي: "لا تكليف إلا بمقدور".

٢٨٠٧. فيها: أنه مهما بذل الإنسان من الجهد والمجاهدة وفعل الأسباب فالأمر بيد الله أولاً وأخيراً.

٢٨٠٨. تفيد: وجوب تحريض المؤمنين على القتال؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢٨٠٩. تفيد أن المؤمنين هم المنتفعون بالتحريض على قتال الكفار بخلاف غيرهم من المنافقين؛ ولهذا لم يقل: (وحرض الناس).

٢٨١٠. فيها: أن يكون الجهاد تحت راية واضحة.

٢٨١١. فيها: عدم ظلم النفس، والحرص عليها، وقيادتها للحق. ومن ثم إخوانه المسلمين.

٢٨١٢. فيها أن الداعية إلى الله يكون قدوة فيما يأمر الناس به من الأعمال فيبدأ بنفسه أولاً؛ فالأمر توجه إلى رسول الله ﷺ بالقتال أولاً، ثم يأمر الناس به.

٢٨١٣. فيها: أن مما يدعو الناس للاستجابة للدعاة أن يكون الداعي لهم أول من يعمل بما يدعوهم إليه.

٢٨١٤. فيها أن النصر من الله مرتبط بفعل الأسباب من الإعداد والتحريض وبذل الجهد.

٢٨١٥. فيها أن تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله هو من واجبات أولي الأمر من العلماء والأمراء.

٢٨١٦. فيها التنبيه إلى حاجة المؤمنين إلى التحريض على القتال في سبيل الله.

٢٨١٧. فيها إشارة: إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأثيره في نفوس أهل الإيمان. والجهاد من أعظم المعروف، وتركه من أعظم المنكر.

٢٨١٨. تفيد فضل الحث على الجهاد، والترغيب فيه بكل الوسائل المشروعة من محاضرات وندوات وكتابات وغيرها.

٢٨١٩. فيها الربط بالآيات السابقة؛ بأن من التحريض على القتال ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾. ومن أبلغ التحريض ما في الآية نفسها ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ومن التحريض ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

٢٨٢٠. يفيد التعبير بالتحريض دون غيره من عبارات الحث والترغيب، إشارة إلى أن التخلف عن الجهاد يجعل المجتمع حارضاً، أي سقيماً وضعيفاً أو مشرفاً على الهلاك، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] ويشهد لهذا حديث: "إذا تبايعتم بالعينة... وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".

٢٨٢١. تفيد أن القائد القدوة بالقول والفعل، المبادر لإجابة أمر ربه يلهم أتباعه، ويبعث في نفوسهم الهمة والعزيمة، ولنا في نبينا ﷺ، وسلفنا الصالح أسوة حسنة..

٢٨٢٢. فيها: أهمية العقيدة في القتال. وبأس الكفار لا يرد إلا بأهل الإيمان.

٢٨٢٣. فيها: أهمية التربية الإيمانية قبل الجهاد.

٢٨٢٤. فيها دليل على أن العمل من الإيمان.

٢٨٢٥. فيها: أن بأس الذين كفروا لا يكف إلا بالقتال؛ فلا أنجع لهم من الجهاد.

٢٨٢٦. فيها إشارة إلى أنه لا عزة لهذه الأمة، ولن يرفع عنها الذل إلا بالجهاد في سبيل الله. لقوله ﷺ: "إذا تبايعتم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ، ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُمُ الجهادَ سلَّط اللهُ عليكم ذُلًّا، لا يَنزِعُه حتى ترجِعوا إلى دِينِكم". قال الزجاج: وتأويل التحريض في اللغة أن تحث الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه.

٢٨٢٧. فيها: أن أعمال العباد مخلوقة لله ﷻ، وهذا من استدلالات أهل السنة؛ لقوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ فنسب ذلك إليه.

٢٨٢٨. تفيد أن الله ﷻ برحمته يكف بأس الكافرين عن المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

٢٨٢٩. فيها: أن الكفار لهم بأس وقوة ولكنها ليست بشيء أمام بأس وقوة الله ﷻ.

٢٨٣٠. فيها: عدم الخوف من بأس الكفار ولو كان كبيرا، فبأس الله أشد، فلو حقق المجاهدون الإيمان فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلا، وقد وعد الله بنصر المؤمنين والتمكين لهم والدفاع عنهم.

٢٨٣١. فيها: إثبات البأس والتنكيل لله ﷻ.

٢٨٣٢. تفيد التخويف من بأس الله تعالى، وتنكيله، والحذر من أسبابه كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر: ٢٩].

٢٨٣٣. تفيد تذكير المؤمنين بأسماء الله وصفاته، وتعلقهم بربهم، وحسن الظن به، وأنه أقدر على عدوهم؛ وإن بلغ ما بلغ من العدد والعتاد. فليثقوا في ربهم؛ في أمرهم عامة، والجهاد في سبيله خاصة؛ لأنه العزيز الذي لا يغلب.

٢٨٣٤. تفيد أن أعظم محرض للهمة ومقو للعزيمة هو الثقة والإيمان بقدرة الله تعالى في كف ورد كيد الأعداء، وأنه لا حول ولا قوة الا به ﷻ، فمن عرف هذا هانت عليه الدنيا، ومن تيقن هذا فاز بكنوز الدنيا والآخرة.

٢٨٣٥. فيها أن نصـــر المؤمنين يكون بطريقتين: الأولى: كف كيد الاعداء، والثانية: أخذهم والتنكيل بهم.

٢٨٣٦. فيها: السعي في تحصيل أسباب النصر ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنه من التوكل على الله.

٢٨٣٧. فيها تنبيه على ضرورة استشعار معية الله ﷻ، والتحلي بكمال التوكل عليه عند لقاء العدو..

٢٨٣٨. فيها: مشروعية الأخذ بالأسباب، مع حسن التوكل عليه – جل ذكره –.

٢٨٣٩. فيها التنبيه إلى أنه إذا كان للكفر والنفاق صولة وجولة فلا تهولنكم فـ ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ فكونوا مع الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

٢٨٤٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: لأن ذلك التحريض الذي أمر به النبي ﷺ والأمة تبع له هو من الشفاعة الحسنة وفعل المنافقين السابق لصرف الناس عن الجهاد وطاعته ﷺ هو من الشفاعة السيئة؛ قال ابن عاشور: ويُعْلَمُ مِن عُمُومِها أنَّ التَّحْرِيضَ عَلى القِتالِ في سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الشَّفاعَةِ الحَسَنَةِ، وأنَّ سَعْيَ المُثَبِّطِينَ لِلنّاسِ مِن قَبِيلِ الشَّفاعَةِ السَّيِّئَةِ، فَجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ إيذانًا لِلْفَرِيقَيْنِ بِحالَتِهِما. والمَقْصُودُ مَعَ ذَلِكَ التَّرْغِيبُ في التَّوَسُّطِ في الخَيْرِ والتَّرْهِيبُ مِن ضِدِّهِ.

٢٨٤١. فيها مع ما قبلها تأكيد على أن أهل العلم والحكمة والخبرة هم الذين يميزون بين الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة..

٢٨٤٢. فيها، وبضميمة ما قبلها: أن الشفاعة تكون في أمر الدين، والدنيا.

٢٨٤٣. الآية تخدم المقصد العام للسورة وهو بناء المجتمع الفاضل.

٢٨٤٤. فيها تأكيد على ضرورة التعاون الذي هو أساس في بناء المجتمع، ويحقق معنى الأخوة في الدين، حيث يشفع الأخ لأخيه بقصد إعانته ومواساته.

٢٨٤٥. تفيد تقرير مبدأ الشفاعة الحسنة، والنهي عن الشفاعة السيئة، والشفاعة الحسنة هي التي عرَّفها العلماء بقولهم: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير. وابتغى بها وجه الله ﷻ، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود الله ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك.

٢٨٤٦. تفيد مشروعية الشفاعة الحسنة التي لا إثم فيها ولا اعتداء على حقوق الناس، وتحريم ضدها..

٢٨٤٧. فيها فضل الشفاعة الحسنة، وأن الإنسان يؤجر عليها، ويؤيد هذا قوله ﷺ: "اشفعوا تؤجروا..." متفق عليه.

٢٨٤٨. تفيد أن الشفاعة الحسنة يعود نفعها كذلك على الشافع لقوله تعالى:﴿ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ وهذا النصيب عام لم يحدد بالأجر والثواب فقط، والله أعلم. ومن فوائد الشفاعة الحسنة: تزكية النفس، ومعالجتها من الأنانية، والحسد، فقد يسعى لأخيه في شفاعة وهو أو ذويه في أمس الحاجة إليها، ومن ذلك: تدريب النفس وتحفيزها على السعي والعمل بدون مقابل [إلا الأجر من الله]، وترك الدعة والكسل، لأن من الشفاعات ما تحتاج إلى جهد ومتابعة، واكتساب المروءات، وإنزال الناس منازلهم، وتذكر ضعف النفس بذاتها، وزيادة في أواصر الإخاء بين أفراد المجتمع، وما يجلبه على نفسه من سعادتها المعنوية بعد تفريج الكربة. وحسب المسلم من البركات أن يوفقه ربه إلى الإمتثال، ويثيبه عليه.

٢٨٤٩. فيها جواز طلب الشفاعة ممن ترجى عنده من أصحاب العلم والفضل.

٢٨٥٠. فيها توجيهٌ لأصحاب الجاه أن يقوموا بواجب الشفاعة لإخوانهم حين يحتاجون إليها، كما قال بعض السلف: إن للجاه زكاة.

٢٨٥١. تفيد أهمية حفظ أقدار ومكانة أهل الفضل والخير لأنهم هم في الغالب الذين يشفعون، فقبول شفاعتهم الحسنة من الأمور المحمودة شرعاً.

٢٨٥٢. تفيد أن رد الشفاعات مطلقاً نوع من اللؤم، كما أن قبولها مطلقاً يؤدي إلى انتشار الفساد والظلم.

٢٨٥٣. فيها أن من دعا لأخيه بدعوة فله منها حظ ونصيب. وتصديقه حديث: "... قال الملَك: آمين، ولك بمثل". ووجهه: أن الدعاء شفاعة للغير. وعليه: فعلى العبد أن يكثر من الدعاء لإخوانه المسلمين بظهر الغيب؛ لما في ذلك من الخير الكثير، ومنه: تطهير قلبه لإخوانه.

٢٨٥٤. فيها إشارة: إلى عظيم أجر النبي محمد ﷺ عند ربه يوم القيامة، وذلك لشفاعاته المتعددة لأهل المحشر. كما أن له أجر من يدخل الجنة من أمته؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بشفاعته. ففيها: إشارة إلى عظيم فضل النبي ﷺ؛ من هذه الحيثية.

٢٨٥٥. فيها: أهمية الشفاعة في الإسلام.

٢٨٥٦. فيها أن من آتاه الله جاهاً ينبغي أن يحرص على نفع إخوانه باستخدام جاهه في الشفاعة لهم، وهذا من شكر النعم.

٢٨٥٧. فيها: عدم تضييع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجر المحسنين.

٢٨٥٨. فيها: لا يجوز الشفاعة في الوصول إلى محرم.

٢٨٥٩. فيها تحذير لأصحاب الواسطات الذين يستغلون جاههم في إضاعة حق الناس، وإعطائه لمن لا يستحقه زوراً وبهتاناً..

٢٨٦٠. فيها: إيثار التنكير في قوله: ﴿ شَفَٰعَةً ﴾ ليفيد العموم؛ فيدخل فيه أنواع الشفاعات؛ يسيرة كانت أم عظيمة. ففيها: إشارة: إلى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يثيب ويجازي على اليسير والعظيم، وأن

الله ﷻ يحصي على عباده مثاقيل الذر، فلا تغفلوا عن الأجر وإن دق في أعينكم، ولا تستخفوا بالذنب وإن صغر. فمن الناس من لا يشفع في وزن النواة وهو قادر، ومن يشفع في وزن الجبل من الآثام. أعاذنا الله وإياكم من موجبات سخطه.

٢٨٦١. تفيد أن القرآن الكريم يأتي بالمعاني الجامعة التي يحتاج بيانها إلى أسفار؛ ﴿ شَفَٰعَةً حَسَنَةً... شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾.

٢٨٦٢. تفيد أهمية التمييز في الشفاعة بين الحسنة والسيئة قبل قبولها أو ردها، وهو باب فيه الكثير من الخلط والفساد، والله المستعان.

٢٨٦٣. فيها: أن الناس سعيهم شتى.

٢٨٦٤. فيها: أن الإنسان يؤجر ويأثم بكلامه.

٢٨٦٥. تفيد أن الشراكة في السببية تورث الشراكة في الثواب والعقاب.

٢٨٦٦. فيها: الجزاء من جنس العمل، فمن يشفع شفاعة حسنة سيكون له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة سيكون له نصيب منها.. وهذا من عدل الله ﷻ.

٢٨٦٧. فيها: ذكر الشفاعة الحسنة والسيئة، دون التصريح بالأمر بها أو النهي عنها - مع أن هذا ما يقتضيه الخطاب -: يفيد: أن عدم التصريح بالأمر والنهي - أحياناً حسب الحال - يكون أنفع وأصلح من التصريح.

٢٨٦٨. فيها إشارة: إلى معادن الناس؛ فمن الناس من يكون مفتاحاً للخير، ومنهم من يكون مفتاحاً للشر.

٢٨٦٩. تفيد بلاغة القرآن في الدلالة على المعاني المقصودة، فالكل شفاعة ولكنه قال عن الشفاعة الحسنة:﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وفي السيئة:﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ فإن لفظ الكفل يشعر بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب،

وحظ الشر بالكفل. وأيضاً في التغاير هنا ملمح بلاغي رائع، فهو من أجل اختلاف اللفظ؛ حتى لايرد اللفظ الواحد في سياق واحد بمعنى واحد. وقال الراغب: فإن قيل: فلم فرق بينهما في الحسنة: [نَصِيبٌ]، وفي السيئة: [كِفْلٌ]؟ قيل: يجوز أنه لما كان النصيب يقال فيما يقل ويكثر، والكفل لا يقال إلا في المثل، جاء في السيئة بلفظ الكفل؛ تنبيهاً على معنى المماثلة، وإشارةً؟ إلى ما قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقد قيل: الكفل أكثر ما يقال في الشيء الرديء..

والهداية في الآية دقة التعبير القرآني في التعبير بالنصيب في الحسنة وهو يدل على القليل والكثير، أما الكفل فلا يستخدم الإ في معنى المماثلة أو الشيء الرديء.

٢٨٧٠. تفيد: صورة من صور بلاغة القرآن الكريم، ودقة تعبيره وهي: "تجنب التكرار": لأنه غاير في النصيب فذكره بلفظ الكفل؛ فجاء بالكفل مع السيئة. وبالنصيب مع الحسنة؛ مع أن أصل الكفل: النصيب.

٢٨٧١. فيها: بيان فضل الإسلام، وجماله؛ لما فيه من الحث على البر وفعل الخير، والتكافل؛ فيأمر أتباعه بالشفاعة للغير لجلب النفع، وكذا ينهاهم عما يجلب الشر.

٢٨٧٢. تفيدالآية... قواعد في التعامل الاجتماعي الإسلامى.

٢٨٧٣. تفيد أهمية نشر أدب التراحم والتعاطف بين الناس، الذي من آلياته الشفاعات الحسنة؛ فهو مما يسهم في تقوية روابط المجتمع.

٢٨٧٤. فيها تأكيد على أن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

٢٨٧٥. فيها: بيان جواز العمل في المحاماة؛ التي لا تحق باطلاً، ولا تبطل حقاً؛ لأنها نوع شفاعة.

٢٨٧٦. فيها: تكرر أسلوب دخول [كان] على لفظ الجلالة [الله] كثيراً في السورة؛ وفيه إشارة إلى:

- التأكيد على صفات التعظيم.

- التنبيه والتركيز على تنزيه الحق تبارك وتعالى عن الظلم.

- أنه جل وعلا كان وما يزال متصفاً بصفات الكمال ونعوت الجلال.

٢٨٧٧. فيها الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ أي: شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازي كُلًّا ما يستحقه.

٢٨٧٨. فيها إشارة: إلى بيان ضعف الإنسان، وأن حاجته قد لا تحصل إلا بغيره؛ وبيان حاجة الناس بعضهم إلى بعض. وعليه: فعلى العبد أن يستحضر كمال الله ﷻ، وتمام غناه؛ فيوقن بأنه لا غنى له عن ربه الذي يملك حاجاته كلها. ففي الآية بيان دقة مناسبة ختامها بقوله:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ أي قادراً؛ بخلافكم أنتم أيها البشر، فإنكم عاجزون أن تصلحوا أمور أنفسكم إلا بغيركم.

٢٨٧٩. فيها: ربوبية الله ﷻ لكل شيء، فلا يعبد إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا إياه.

٢٨٨٠. تفيد الحث على الإكثار من فعل الخير، والإقلاع عن فعل الشر؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾.

٢٨٨١. فيها: أن من أسماء الله ﷻ: المقيت.

٢٨٨٢. فيها: ختام الآية متناسب مع معنى الشفاعة الحسنة، فالله سبحانه حفيظ مقيت يعلم من شفع ابتغاء وجهه ونيته نفع إخوانه فيبارك في شفاعته وينفع بها ويحفظ له ذلك ويجازيه عليه، ويعلم من يشفع الشفاعة السيئة فيحفظ له ذلك ويجازيه عليه.

٢٨٨٣. فيها التنبيه على ابتغاء وجه الله عند الشفاعة؛ لأنها غالباً ما تكون لذوي القرابات والأصدقاء والمعارف فتختلط فيها النية؛ فالمقيت ﷻ يدخرها للعبد، ويحفظها له، ويجازيه عليها، ويأتيه بفضلها في الوقت الذي يحتاجها؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، أما من كانت شفاعته

لإرضاء الناس لا إخلاص لله فيها! فماذا ينتظر؟. سيما أن من معاني المقيت في اللغة من القوت وهو الشي المدخر المحفوظ الذي يستخدم عند الحاجة إليه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

٢٨٨٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما كانَ مِن شَأْنِ الشَّفِيعِ أنْ يَدْخُلَ عَلى المسْتَشْفَعِ إلَيْهِ بِالسَّلامِ اسْتِئْناسًا لَهُ لِقَبُولِ الشَّفاعَةِ، فالمناسَبَةُ في هَذا العَطْفِ هي أنَّ الشَّفاعَةَ تَقْتَضِي حُضُورَ الشَّفِيعِ عِنْدَ المشْفُوعِ إلَيْهِ، وأنَّ صِفَةَ تَلَقِّي المشْفُوعِ إلَيْهِ لِلشَّفِيعِ تُؤْذِنُ بِمِقْدارِ اسْتِعْدادِهِ لِقَبُولِ الشَّفاعَةِ، وأنَّ أوَّلَ بَوادِرِ اللِّقاءِ هو السَّلامُ ورَدُّهُ. فَعَلَّمَ اللَّهُ المسْلِمِينَ أدَبَ القَبُولِ واللِّقاءِ في الشَّفاعَةِ وغَيْرِها وقَدْ كانَ لِلشَّفاعاتِ عِنْدَهم شَأْنٌ عَظِيمٌ.

٢٨٨٥. ومن المناسبات: لما سبق الحض على الجهاد والتحريض على قتال الكفار، جاء في هذه الآية أن إذا حييتم وأنتم في طريكم إلى القتال بتحية الإسلام، فلا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام: لست مؤمناً، ولكن ردوا عليه السلام..

٢٨٨٦. ومن المناسبات: لما سبق الحض على الشفاعة، والتأكيد على أن تكون الشفاعة حسنة، والتحذير من الشفاعة السيئة، جاء في هذه الآية التأكيد على مراعاة شأن أصحاب الحاجات؛ بحسن استقبالهم ورد السلام عليهم والانبساط لهم..

٢٨٨٧. هذه الآية من آداب الإسلام: علّم الله بها أن يَردّوا على المسلّم بأحسنَ من سلامه أو بما يماثله، ليبطل ما كان بين الجاهلية من تفاوت السادة والدهماء. وتكون التحيّة أحسن بزيادة المعنى، فلذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] أنّ تحية إبراهيم كانت أحسن إذ عُبّر عنها بما هو أقوى في كلام العرب وهو رفع المصدر للدلالة على الثبات وتناسي الحدوث المؤذن به نصب المصدر، وليس في لغة إبراهيم مثل ذلك ولكنّه من بديع الترجمة،

ولذلك جاء في تحيّة الإسلام: السلام عليكم، وفي ردّها وعليكم السلام لأنّ تقديم الظرف فيه للاهتمام بضمير المخاطب. [ابن عاشور].

٢٨٨٨. فيها أن التحية مما ينبغي أن يكون كثيراً ومنتشـــراً بين المســـلمين... يؤخذ هذا من الإتيان بأداة الشرط [إذا]التي يغلب فيها الدخول على الذي يكثر وقوعه خلافا لإن الشرطية.

٢٨٨٩. فيها: قوله:﴿ بِتَحِيَّةٍ ﴾ لفظ عام، يدخل فيه: أنواع التحيات المباحة، ك /أهلاً وسهلاً، ومرحباً – مثلاً –. شـريطة أن تكون بعد السـلام، لأن أصـل تحية الإسـلام: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".

٢٨٩٠. تفيد الآية الكريمة الحث على ابتداء الســلام والتحية من وجهين: أحدهما: أن الله أمر بردها بأحســن منها أو مثلها، وذلك يســتلزم أن التحية مطلوبة شــرعًا. الثاني: ما يســتفاد من أفعل التفضـيل وهو "أحسـن" الدال على مشـاركة التحية وردها بالحسـن، كما هو الأصـل في ذلك. ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيًّا بحال غير مأمور بها، كـ "على مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلٍ ونحو ذلك" فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشـــارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصـــي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يُحيّا، ولا تُرد تحيته، وذلك لمعارضـــة المصـــلحة الكبرى. ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس وهي غير محظورة شرعًا، فإنه مأمور بردّها وبأحسن منها. [السعدي].

٢٨٩١. تفيد أهمية التحايا والســلام في الإســلام؛ فقد ربطه الشـرع بالإيمان، ودخول الجنان، والتحاب والمودة بين المسلمين كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا ادلكم على شـيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشـوا السـلام بينكم". رواه مسلم. وقد جعله خير خصال الإسلام فعن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: " أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ". ومعنى قوله: أي الإسلام خير، يريد: أي خصال الإسلام خير.

٢٨٩٢. فيها: اشتقاق التحية من الحياة كما قال الراغب، مما يدل على أن هذه الشعيرة تحيا بها المودة والإلفة والأخوة والاطمئنان بين المسلمين. ولذلك حث الشرع عليها كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النور: ٦١]. والله أعلم.

٢٨٩٣. فيها: أن التحية أتت نكرة في سياق الشرط فكل ما يدل على التحية داخل فيها.

٢٨٩٤. فيها: بيان عدل الإسلام، وإحسانه، ونهيه عن الظلم.

٢٨٩٥. فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلى أنَّ الرَّدَّ واجِبٌ لِأجْلِ الأمْرِ.

٢٨٩٦. يؤخذ منها وجوب الرد مشافهة للحاضر، وكتابة للمراسل.

٢٨٩٧. فيها: يجب أن يكون السلام ورده باللفظ دون الإشارة؛ وقد قال النبي ﷺ: "لا تسلموا تسليم اليهود بالرؤوس والأكف والإشارة ". رواه النسائي.

٢٨٩٨. فيها: إيثار فاء التعقيب في قوله: ﴿فَحَيُّواْ﴾ لبيان: وجوب المسارعة إلى رد السلام.

٢٨٩٩. تفيد: أنه يجب على المتلبس بالذكر، وقراءة القرآن، أن يقطع القراءة ويرد السلام على الفور، وليس له التأخير حتى يتمم الآية، كما يدل عليه فاء التعقيب، في قوله:﴿فَحَيُّواْ﴾ ولأن النافلة لا تقدم على الفرض. وإذا كان هذا حال الذكر وقراءة القرآن، فما الظن بما دونهما مما يشغل المرء من أعمال الدنيا، فإنه أجدر وأحق، فعلى من ألقي عليه السلام أن يقطع ما هو بصدده من حديث، ونحوه ليمتثل أمر الله – جل ذكره –، فإن هذه الدنيا دار امتحان.

٢٩٠٠. فيها: إذا ابتدر كل واحد منهما صاحبه بالسلام، أن عليهما الرد على بعضهما؛ فيبتدر كل منها صاحبه بالرد.

٢٩٠١. فيها: وجوب الرد على السلام؛ بنحو ما أُلقي عليه؛ فإذا ألقي عليه السلام كاملاً، وجب رده كاملاً. وعلى الكيفية التي ألقى بها المسلم؛ من بشاشة وجه، ووضوح صوت...إلخ.

٢٩٠٢. فيها: تقديم الأحسن في الرد على المثل لأنه أكمل وأفضل.

٢٩٠٣. في الآية دعوة إلى التواصل الاجتماعي ولو بالتحية. والإيجاب للرد دليل على ذلك.

٢٩٠٤. في الآية الدعوة إلى مقابلة المعروف بمثله أو بأفضل منه.

٢٩٠٥. في الآية: تربية لنفوس المؤمنين على مكارم الأخلاق، وتوجيه للاهتمام بحسن العشرة بين أفراد المجتمع المسلم..

٢٩٠٦. فيها تأكيد على الاهتمام بأسباب نشر المحبة، والألفة، واجتماع الكلمة، وتوحيد الصف؛ بين أفراد المجتمع المسلم، وبمفهوم المخالفة؛ فيها توجيه لنبذ أسباب البغضاء، والفرقة، والاختلاف..

٢٩٠٧. فيها توجيه إلى مكافأة صاحب المعروف..

٢٩٠٨. فيها: مراعاة مشاعر الناس وعدم كسر خواطرهم.

٢٩٠٩. في الآية الكريمة من آداب السلوك، ومهارات التواصل مع الآخرين ما يغني عن كثير من الدورات التدريبية التي تزعم تنمية مهارات التواصل، والتعامل مع الآخرين والتي لا تستند إلى مثل هذه الآيات الواضحة.

٢٩١٠. فيها تحقيق لأسباب الصحة النفسية، بانتشار الكلام الطيب، والحرص على طلاقة الوجه، والبشاشة بين أفراد المجتمع المسلم.

٢٩١١. تفيد رحمة الله ﷻ بعباده حيث خيرهم في الرد بين الأحسن أو المثل.

٢٩١٢. فيها: خلاف التنوع، وهو باب واسع في الشريعة.

٢٩١٣. فيها: الأمر بشيئين أحدهما أفضل من الآخر وكلاهما مشروع.

٢٩١٤. يفيد مفهوم الآية: النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها.

٢٩١٥. فيها: توبيخ، وتحذير: لمن يردون السلام بأقل مما ألقي عليهم.

٢٩١٦. فيها: تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة.

٢٩١٧. فيها مزيد ترغيب بإفشاء السلام، والاستكثار منه، بدلالة قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾.

٢٩١٨. فيها: التحذير من عدم رد التحية بمثلها أو أحسن فالله حسيب على كل شيء.

٢٩١٩. فيها أن الله ﷻ يحاسب على كل شيء، وكاف كل من توكل عليه.

٢٩٢٠. فيها: إيثار ختامها بقوله: ﴿حَسِيبًا﴾ يؤكد أهمية التحية، والتي أعظمها السلام، وللتذكير: بأنه يحصي ما يصدر عن العبد عامة، وما يصدر من لسانه خاصة.

٢٩٢١. فيها: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ فيه إنذار لمن يعرض عن رد السلام، أو يتهاون فيه. وفيه: تسلية لمن ألقى السلام، ثم وجد إعراضاً، أن الله حسيبه؛ يجازيه بالإحسان إحساناً، والآخر بالإعراض عقوبة؛ فأفشوا السلام، وردوه من أجلي، تبتغون به وجهي.

٢٩٢٢. تفيد مع ما بعدها أن تحية المؤمنين يوم القيامة هي: السلام عليكم؛ قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] وفيها مع ما بعدها إشارة إلى تعليمهم كيفية رد السلام وذلك عندما يحيون يوم القيامة من قبل الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ٢٣ – ٢٤].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

٢٩٢٣. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما قبلها، وهي أَنَّهُ تَعالى لَمّا ذَكَرَ تعالى في خاتمة الآية السابقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ تَلاهُ بِالإعْلامِ بِوَحْدانِيَّتِهِ سُبْحانَهُ، والحَشْرِ، والبَعْثِ مِنَ القُبُورِ لِلْحِسابِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

٢٩٢٤. تفيد مع ما قبلها من آيات الأمر بالطاعة والعمل بالكتاب والسنة، أن المقام في هذه الدنيا قليل، وأن على المؤمن أن يتجهز ليوم الرحيل بالإيمان بوحدانية الله تعالى وطاعته وطاعة رسوله، والعمل بالكتاب والسنة.

٢٩٢٥. في الآية براعة استهلال، حيث استهلت باسم الجلالة وما يحمله من المهابة والعظمة والإجلال... للتهويل من يوم الجمع.

٢٩٢٦. فيها: أعظم قضـــيتين جاء بهما القرآن: تقرير وحدانية الله تعالى، وإثبات الرجوع إليه سـبحانه، وأكثر حديث القرآن عن هاتين القضـيتين؛ فمن لم يكن أكثر حديثه عنهما، وأكبر اهتمامه بهما ففي فهمه لحقائق القرآن نظر. فبدأت الآية باســم الله الأعظم كأمكن دعامة لقواعد التوحيد التي تحملها الآية فتتهيأ النفوس لمشـــهد الحشــر الأعظم: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هزة بعد هزة حيث تبدأ باســم الله الأعظم وتخبر بقســم محذوف جوابه مؤكد باللام والنون، التي أصـواتها أشـد على النفس من دوي الرعد تملأ الأفق وتبرهن على عظمة الله وشـدة بأسـه وقدرته فجمعت هذه الآية الموجزة تمجيد الله، وتهديداً وتحذيراً من مخالفته، وتقريراً للإيمان بيوم البعث، ورداً للإشراك، وإنكاراً على من لا يؤمن بالبعث.

٢٩٢٧. تفيد تأكيد التلازم بين الإيمان بالله تعالى وأهمه التوحيد، وبين الإيمان باليوم الآخر ومنه البعث. وكم من النصوص جاءت بذكرهما دون ذكر بقية أركان الإيمان.

٢٩٢٨. فيها أن التَّوحيدُ والإيمان بالبعث والجزاء في الدَّار الآخرة هما الرُّكنانِ الْأَوَّلانِ للدِّينِ، وإنَّما الرُّسلُ يُبلِّغون النَّاسَ ما يجبُ مِن إقامتِهما ودعمِهما بالأعمال الصَّالحة.

٢٩٢٩. فيها تأكيد على العلاقة بين توحيد الله واليوم الآخر، حيث لا ينازعه الملك في ذلك اليوم أحد، فالمِلك يومئذ لله المِلك الحق سبحانه.

٢٩٣٠. تفيد أن العبادة بأنواعها لا تكون إلا لله جل وعلا، ويؤخذ هذا من النفي والإثبات الذي هو أقوى صيغ الحصر، فمن أشرك في عبادة واحدة كالدعاء فقد أشرك وحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

٢٩٣١. تفيد أن [لا إله إلا الله] هي أعظم كلمة لأنها دلت على توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقد قال رسول الله ﷺ: "خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

٢٩٣٢. فيها أنَّه من توحيدِ الله – سبحانه– وإفرادِه بالألوهيَّةِ تبدأُ خُطُواتُ المنهج الرَّبَّانِيّ– سواءٌ في تربية النُّفوس، أم في إقامةِ المجتمع، ووَضْع شرائعه وتنظيمِه، وسواءٌ كانت هذه الشَّرائعُ متعلِّقةً بالنِّظام الدَّاخليِّ للمجتمع المسلِمِ، أم بالنِّظام الدَّوليّ، الَّذي يتعامَلُ هذا المجتمعُ على أساسِه مع المجتمعاتِ الأخرى.

٢٩٣٣. فيها: أن كل ما عبد من دون الله ﷻ فهو باطل.

٢٩٣٤. فيها: أن كل معبود من دون الله يسمى إلهاً، لكن هذه التسمية لا تعدو أن تكون تسمية لفظية وليست حقيقية.

٢٩٣٥. تفيد أن من أعظم مظاهر الربوبية هي القدرة على جمع الخلائق وحسابهم يوم القيامة.

٢٩٣٦. فيها لا يستحق أن يعبد إلا القادر على جمع الخلائق.

٢٩٣٧. تفيد: معاني التوحيد الثلاثة:

– الألوهية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

– الربوبية:﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ لأن من خلقهم هو الذي يجمعهم [يميتهم]؛ ومن معاني الربوبية: إفراده بالخلق، والإحياء، والإماتة.

– الأسماء والصفات:﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ صفة الكلام.

٢٩٣٨.

٢٩٣٩. مناسبة افتتاحها بالتوحيد، وختامها بالقيامة؛ يفيد: أن أعظم وأجل ما يقابل به العبد ربه يوم البعث والجزاء " التوحيد ".

٢٩٤٠. تفيد قوة تأكيد البعث بما لا يدع مجالاً للشك فيه؛ من خلال استهلال الآية بوحدانيته، ثم أكَّدَهُ بِالقَسَمِ قَبْلَهُ، وبِالجُمْلَةِ بَعْدَهُ مِن قَوْلِهِ:﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وبالاستفهام التقريري الذي ختمت به الآية: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾.

٢٩٤١. فيها: القسم العظيم منه ﷻ بجمع الأولين والآخرين وكل ما فيه روح رداً على منكري البعث

٢٩٤٢. فيها: في القسم ملمح آخر ألا وهو: أن أمر الجمع مهم، وكلما كان الشيء مهماً كان توكيده أوكد حتى لا يبقى في النفوس شك.

٢٩٤٣. فيها: مشروعية الحلف، سيَّما على الأمور العظام؛ التي من عظمها – أحياناً – قد يشك فيها من السامع.

٢٩٤٤. فيها: تعدد المؤكدات على الشيء إذا كثر التكذيب به، والغفلة عنه، وفي هذا ردٌّ على من أنكر البعث.

٢٩٤٥. فيها: أن جمع الله لعباده مستمر من الآن بالموت وأن نهايته يوم القيامة، ومن مات فقد قامت قيامته، ولن تقوم القيامة الكبرى حتى ينتهي جمع العباد بالموت.

٢٩٤٦. تفيد أن يوم القيامة يوم جمع عظيم؛ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾[المرسلات: ٣٨] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الواقعة: ٤٩ – ٥٠]، وغيرها من الآيات.

٢٩٤٧. تفيد إثبات البرزخ، ويوم القيامة؛ لقوله تعالى:﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ولم يقل: [ليجمعنكم يوم القيامة]، وقد جاء إثبات البرزخ وما فيه من الأهوال والفتن في عدد من الآيات والأحاديث؛ ومن ذلك قوله تعالى:﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

٢٩٤٨. فيها: قوله:﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما أعظمها من جملة تحمل ما تحمل من الفوائد والدلالات؛ من خلال استخدام حرف الجر [إلى] دون غيره من حروف الجر فتأملوها فهي تفيد أن الموت يجمع الخلق إلى يوم القيامة؛ فهو يوم كائن بلا ريب، وسوقه في كل يوم قائم. وفي أول ما نزل: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]، وآخر ما نزل: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٢٩٤٩. ذكر الرجوع إليه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيه الحث على اغتنام الأوقات بالأعمال الصالحة.

٢٩٥٠. فيها: قوله: ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تهويل له فالناس يقومون فيه من قبورهم للعدل وشهود الأشهاد والله المستعان.

٢٩٥١. تفيد عظم يوم القيامة مفاد ذلك من اسمه، واجتماع الخلق جميعا فيه، وهدف الاجتماع الذي يكون بعده فريق في الجنة وفريق في السعير.

٢٩٥٢. يفيد مسمى اليوم الآخر هنا بيوم القيامة شدة القيام بين يديه ﷻ للحساب في ذلك اليوم.

٢٩٥٣. تفيد أن يوم القيامة يوم قيام طويل، ويومٌ يقوم الناس فيه لرب العالمين، ويومٌ يقوم الناس فيه من قبورهم، ويقوم فيه الأشهاد... إلى غير ذلك من معاني القيام الذي سمى به هذا اليوم الكبير.

٢٩٥٤. فيها: قوله:﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك وهذه جملة خبرية محضة، فالخبر المحض يفيد الاستقرار والثبوت.

٢٩٥٥. تفيد النهي عن الشك في البعث والقيامة، والشك كفر.

٢٩٥٦. فيها وجوبُ الإيمانِ باليوم الآخِرِ على وجهٍ لا شكَّ معه؛ لقوله:﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فيجب علينا أن نؤمنَ بأنَّ الله ﷻ يجمَعُنا يومَ القيامةِ إيمانًا لا شكَّ معه، ولا تردُّدَ فيه.

٢٩٥٧. يفيد حصر عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في القرآن ومجيئها في سياق قضيتين وموضوعين مهمين فقط، وهما: القرآن الكريم واليوم الآخر [الساعة والقيامة]، إشارة لطيفة، إلى أنه يجب على العباد العمل بالكتاب الذي لا ريب فيه، لينجوا من هول ذلك اليوم الذي لا ريب فيه؛ وقد جمعت هذه الآية كلا الموضوعين والقضيتين في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم قال:﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ يشير إلى أن القرآن الكريم -وهو كلامه ﷻ- لا ريب فيه. ويشهد لما ذكرته قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] وهنا قد يظهر للمتأمل والمتدبر سر موقع هذه الآية، وذكر عبارة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ في سياق الدعوة إلى العمل بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

٢٩٥٨. الآية تحمل طابع التهديد والتخويف بذكر وحدانيته، والرجوع إليه للحساب.

٢٩٥٩. تفيد عظمة الخالق الذي خلق هذا الخلق وبثه، ويجمعهم إلى يوم القيامة، ويحضرهم جميعاً، ويحاسبهم ويعطي كل واحد منهم ما يستحق من الجزاء.

٢٩٦٠. فيها: الترغيب في تعلم القرآن فهو أصدق الحديث.

٢٩٦١. فيها: أن القرآن كلام الله وليس مخلوقا.

٢٩٦٢. فيها: بيان فضل القرآن فهو كلام الله سبحانه وتعالى، وأخباره أصدق الأخبار.

٢٩٦٣. تفيد أن حديثه الذي هو القرآن وما فيه من أخبار في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله سبحانه وتعالى به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا.

٢٩٦٤. تدل على وجوب الإيمانِ بما أخبَرَ اللهُ به عن نفسِه وعن أمورِ الغيبِ كلِّها؛ لقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ فإذا أخبر اللهُ عن نَفْسِه بشيء، أو عن الأمور الغائبةِ بشيءٍ وجَب علينا تصديقُه؛ فكلامُه وخبره صِدقٌ لا كذِبَ فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ﴾ تؤخذ مِن اسم التَّفضيل؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيلِ يجعَلُ المفضَّل في قمَّةِ الوصف، وعلى هذا فليس في كلامِ الله سبحانه وتعالى شيءٌ من الكذِبِ إطلاقًا.

٢٩٦٥. فيها: وصفُ كلامِ اللهِ تعالى بالحَديثِ.

٢٩٦٦. فيها: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ فلا أصدق من الله عز وجل، فالاستفهام هنا بمعنى النفي المتضمن للتحدي.

٢٩٦٧. من صور البلاغة القرآنية: قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ أبلغ مما لو قيل: لا أحد أصدق من الله حديثًا؛ لأن الاستفهام يعني التحدي.

٢٩٦٨. فيها: فضيلة الصدق.

٢٩٦٩. تفيد بإشارة لطيفة، أنه يجب على العباد أن يصدقوا في أحاديثهم وأخبارهم، وأن يتجنبوا الكذب والتلفيق والتزوير للأخبار والحقائق.

٢٩٧٠. لما جاءت الآية بأسلوب الخبر لا الإنشاء، والخبر يحتمل التصديق والتكذيب؛ إلا ما جاء في كتاب الله تعالى، ولذلك ناسب ختمها بقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ليتقرر في نفس السامع صدق هذا الخبر..

٢٩٧١. تفيد أن أهم مصادر المعرفة المتعلقة بيوم القيامة صحةً وصدقاً: ما ورد عن الله ﷻ.

٢٩٧٢. تفيد أهمية الاستفهام الإنكاري في الخطاب، لأنه يلفت الانتباه ويثير العمليات الذهنية للتعلم والبحث والوصول لمستوى التيقن.

٢٩٧٣. فيها: لماذا قال ههنا ﴿ حَدِيثًا ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ قِيلًا ﴾: إن المراد بالحديث هو سياق الكلام كله بخلاف القول أو القيل؛ ولهذا فإن القرآن الكريم يشمل الحديث والقول، بمعنى أن من يريد تدبر القرآن الكريم فعليه أن يفهم حديث الله أي مجموع سياق كلامه، ويجب عليه كذلك أن يفهم قيله أو قوله، أي: نصه الواحد المجزَّأ، ولهذا كان الفهم الأول -تأويل أحاديثه- هو أعلى درجات تدبر كلام الله تعالى وفهمه، ولهذا قدمه ههنا بعد آيات من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، ولهذا أيضاً مدح الله يوسف عليه السلام، فقال:﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] وقال يوسف عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١] ولم يقل: [تأويل الأقوال] والمقصود بذلك تأويل أحاديث الله المنزلة على رسله، وهذا من أعلى مقامات العلم والفهم في كتب الله تعالى؛ ويختص بذلك من شاء من عباده؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما عندنا الا ما في القرآن؛ إلا فهماً يعطى رجل في كتابه". والله أعلم.

٢٩٧٤. من تناسب الآيات أن جاء الحديث عن التوحيد واليوم الآخر يليه توحيد الصف وتنقيته ثم موضوع القتال الذي يقتضي هذه الأمور.

٢٩٧٥. فيها: من تناسب الآيات: قتال أعداء الله إنما هو من أجل كلمة التوحيد فتقدم ذكرها قبل آيات القتال. والدعوة للتوحيد لتحرير الناس من ذل العبودية والخضوع لغيره. والقتال من أجل ذلك.

٢٩٧٦. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما بين ﷻ نفاقهم المقتضي لتقاعدهم عن الجهاد بأنفسهم وتنشيطهم لغيرهم، كان ذلك سبباً لأن يمضي ﷺ لأمره ﷻ من غير التفات إليهم وافقوا أو نافقوا، فقال ﷻ بعد الأمر بالنفر ثبات وجميعاً، وبيان أن منهم المبطىء، مشيراً إلى أن الأمر باق وإن بطّأ الكل: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي له الأمر كله ولو كنت وحدك. ولما كان كأنه قيل: فما أفعل فيمن أرسلت إليهم إن لم يخرجوا؟ قال - معلماً بأنه قد جعله أشجع الناس وأعلمهم بالحروب وتدبيرها، وهو مع تأييده بذلك قد تكفل بنصرته ولم يكله إلى أحد-: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ أي ليس عليك إثم أتباعك لو تخلفوا عنك، وقد أعاذهم الله ﷻ من ذلك، ولا ضرر عليك في الدنيا أيضاً من تخليهم، فإن الله ﷻ ناصرك وحده، وليس النصر إلا بيده ﷻ، وما كان ﷻ ليأمره بشيء إلا وهو كفوء له، فهو مليء بمقاتلة الكفار كلهم وحده وإن كانوا أهل الأرض كلهم، ولقد عزم في غزوة بدر الموعد - التي قيل: إنها سبب نزول هذه الآية - على الخروج إلى الكفار ولو لم يخرج معه أحد؛ وقد اقتدى به صاحبه الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة فقال للصحابة رضي الله تعالى عنهم: والله لو لم أجد إلا هاتين - يعني ابنتيه: عائشة وأسماء رضي الله تعالى عنهما - لقاتلتهم بهما. ولما كان ذلك قد يفتر عن الدعاء قال: ﴿ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي مُرهم بالجهاد وانههم عن تركه وعن مواصلة كل من يثبطهم عنه وعظهم واجتهد في أمرهم حتى يكونوا مستعدين للنفر متى ندبوا حتى كأنهم لشدة استعدادهم حاضرون في الصف دائماً. ثم استأنف الذكر لثمرة ذلك فقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ ﴾ أي الذي استجمع صفات

الكمال ﴿أَن يَكُفَّ﴾ بما له من العظمة ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي عن أن يمنعوك من إظهار الدين بقتالك وقتال من تحرضه، ولقد فعل ﷻ ذلك، فصدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، حتى ظهر الدين، ولا يزال ظاهراً حتى يكون آخر ذلك على يد عيسى عليه الصلاة والسلام. ولما كان السامع ربما فهم أنه لا يتأتى كفهم إلا بذلك، قال ترغيباً وترهيباً واحتراساً: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي الذي لا مثل له ﴿أَشَدُّ بَأۡسًا﴾ أي عذاباً وشدة من المقاتِلين والمقاتَلين ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي تعذيباً بأعظم العذاب، ليكون ذلك مهلكاً للمعذب ومانعاً لغيره عن مثل فعله؛ قال الإمام أبو عبد الله القزاز: يقال: نكلته تنكيلاً – إذا عملت به عملاً يكون نكالاً لغيره، أي عبرة فيرجع عن المراد من أجله، وهو أن الناظر إليه والذي يبلغه ذلك يخاف أن يحل به مثله، أي فيكون له ذلك قيداً عن الإقدام؛ والنكل – بالكسر: القيد. [نظم الدرر].

٢٩٧٧. تفيد مع ما قبلها أن التخلف عن الجهاد وقتال الأعداء هو اتباع لخطوات الشيطان.

٢٩٧٨. فيها، وبضميمة ما قبلها: أن تحريض المؤمنين على القتال من صفات المؤمنين، بخلاف المنافقين الذين يخذلونهم ويثبطونهم القتال بالأخبار، وغيرها.

٢٩٧٩. فيها مع التي قبلها: أن القائد الرباني صاحب العلم والحكمة والخبرة؛ الذي يقبل على قتال الأعداء من الكفار طاعة لله وفي سبيل الله، ويحرض المؤمنين على القتال في سبيل الله؛ مبشراً بالعناية والتأييد وكف أذى الكفار وبأسهم عنه وعن جنده.

٢٩٨٠. فيها أن القتال كان واجبا على رسول الله ﷺ.

٢٩٨١. دَلَّتِ الآيَةُ عَلى أنَّهُ ﷺ كانَ أشْجعَ الخَلْقِ وأعْرَفَهم بِكَيْفِيَّةِ القِتالِ؛ لِأنَّهُ تَعالى ما كانَ يَأْمُرُهُ بِذَلِكَ إلّا وهو ﷺ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصِّفاتِ، ولَقَدِ اقْتَدى بِهِ أبُو بَكْرٍ ﷺ حَيْثُ حاوَلَ الخُرُوجَ وحْدَهُ إلى قِتالِ مانِعِي الزَّكاةِ، ومَن عَلِمَ أنَّ الأمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ، وأنَّهُ لا يَحْصُلُ أمْرٌ مِنَ الأُمُورِ إلّا بِقَضاءِ اللَّهِ سَهُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

٢٩٨٢. فيها أن الأمر للنبي ﷺ، هو أمر لأمته أيضـاً لأنه القدوة، وقد علم إيجاب الجهاد على جميع المؤمنين بقوله: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] فهو أمر للقدوة بما يجب اقتداء الناس به فيه.

٢٩٨٣. تفيد أن قتال النبي ﷺ كان متمحضـاً لغاية واحدة، وهي نصـر الدين ودفع الأعداء، وليس قتاله للملك والسلطان.

٢٩٨٤. فيها: وجوب القتال في سبيل الله. والأصل في الأمر الوجوب.

٢٩٨٥. فيها: إشارة إلى الإخلاص، وحرمة القتال إذا لم يكن في سبيل الله ﷻ.

٢٩٨٦. فيها تحديد المسـؤولية الفردية، وتأكيد العدل الإلهي: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٢٩٨٧. تفيد أنه يجب على الإنسان مراعاة نفسه وقيادتها للحق؛ لأنه مكلف إياها.

٢٩٨٨. تفيد: أن الواجب أن يقبل المسلم على ما أوجب الله عليه، وإن خالفه الناس.

٢٩٨٩. فيها: الهداية بيد الله سبحانه وتعالى؛ فلا يكلف أحد بهداية أحد.

٢٩٩٠. تفيد: قاعدة فقهية وهي: "لا تكليف إلا بمقدور ".

٢٩٩١. فيها: أنه مهما بذل الإنسـان من الجهد والمجاهدة وفعل الأسـباب فالأمر بيد الله أولاً وأخيراً.

٢٩٩٢. تفيد: وجوب تحريض المؤمنين على القتال؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢٩٩٣. تفيـد أن المؤمنين هم المنتفعون بالتحريض على قتـال الكفـار بخلاف غيرهم من المنافقين؛ ولهذا لم يقل: [وحرض الناس].

٢٩٩٤. فيها: أن يكون الجهاد تحت راية واضحة.

٢٩٩٥. فيها: عدم ظلم النفس، والحرص عليها، وقيادتها للحق. ومن ثم إخوانه المسلمين.

٢٩٩٦. فيها أن الداعية إلى الله يكون قدوة فيما يأمر الناس به من الأعمال فيبدأ بنفسه أولاً؛ فالأمر توجه إلى رسول الله ﷺ بالقتال أولاً، ثم يأمر الناس به.

٢٩٩٧. فيها: أن مما يدعو الناس للاستجابة للدعاة أن يكون الداعي لهم أول من يعمل بما يدعوهم إليه.

٢٩٩٨. فيها أن النصر من الله مرتبط بفعل الأسباب من الإعداد والتحريض وبذل الجهد.

٢٩٩٩. فيها أن تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله هو من واجبات أولي الأمر من العلماء والأمراء.

٣٠٠٠. فيها التنبيه إلى حاجة المؤمنين إلى التحريض على القتال في سبيل الله.

٣٠٠١. فيها إشارة: إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأثيره في نفوس أهل الإيمان. والجهاد من أعظم المعروف، وتركه من أعظم المنكر.

٣٠٠٢. تفيد فضل الحث على الجهاد، والترغيب فيه بكل الوسائل المشروعة من محاضرات وندوات وكتابات وغيرها.

٣٠٠٣. فيها الربط بالآيات السابقة؛ بأن من التحريض على القتال ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾. ومن أبلغ التحريض ما في الآية نفسها ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ومن التحريض ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

٣٠٠٤. يفيد التعبير بالتحريض دون غيره من عبارات الحث والترغيب، إشارة إلى أن التخلف عن الجهاد يجعل المجتمع حارضاً، أي سقيماً وضعيفاً أو مشرفاً على الهلاك، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[يوسف: ٨٥] ويشهد لهذا حديث: "إذا تبايعتم بالعينة... وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".

٣٠٠٥. تفيد أن القائد القدوة بالقول والفعل، المبادر لإجابة أمر ربه، يلهم أتباعه، ويبعث في نفوسهم الهمة والعزيمة، ولنا في نبينا ﷺ، وسلفنا الصالح أسوة حسنة.

٣٠٠٦. فيها: أهمية العقيدة في القتال. وبأس الكفار لا يرد إلا بأهل الإيمان.

٣٠٠٧. فيها: أهمية التربية الإيمانية قبل الجهاد.

٣٠٠٨. فيها دليل على أن العمل من الإيمان.

٣٠٠٩. فيها: أن بأس الذين كفروا لا يكف إلا بالقتال؛ فلا أنجع لهم من الجهاد.

٣٠١٠. فيها إشارة إلى أنه لا عزة لهذه الأمة، ولن يرفع عنها الذل إلا بالجهاد في سبيل الله. لقوله ﷺ: "إذا تبايعتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ، ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُمُ الجهادَ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا، لا ينزِعُه حتى ترجِعوا إلى دِينِكم". قال الزجاج: وتأويل التحريض في اللغة أن تحث الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه.

٣٠١١. فيها: أن أعمال العباد مخلوقة لله ﷻ، وهذا من استدلالات أهل السنة؛ لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فنسب ذلك إليه.

٣٠١٢. تفيد أن الله عز وجل برحمته يكف بأس الكافرين عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

٣٠١٣. فيها: أن الكفار لهم بأس وقوة ولكنها ليست بشيء أمام بأس وقوة الله ﷻ.

٣٠١٤. فيها: عدم الخوف من بأس الكفار ولو كان كبيرا، فبأس الله أشد، فلو حقق المجاهدون الإيمان فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلا، وقد وعد الله بنصر المؤمنين والتمكين لهم والدفاع عنهم.

٣٠١٥. فيها: إثبات البأس والتنكيل لله ﷻ.

٣٠١٦. تفيد التخويف من بأس الله تعالى، وتنكيله، والحذر من أسبابه كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

٣٠١٧. تفيد تذكير المؤمنين بأسماء الله وصفاته، وتعلقهم بربهم، وحسن الظن به، وأنه أقدر على عدوهم؛ وإن بلغ ما بلغ من العدد والعتاد. فليثقوا في ربهم؛ في أمرهم عامة، والجهاد في سبيله خاصة؛ لأنه العزيز الذي لا يغلب.

٣٠١٨. تفيد أن أعظم محرض للهمة ومقو للعزيمة هو الثقة والإيمان بقدرة الله تعالى في كف ورد كيد الأعداء، وأنه لا حول ولا قوة الا به ﷻ، فمن عرف هذا هانت عليه الدنيا، ومن تيقين هذا فاز بكنوز الدنيا والآخرة.

٣٠١٩. فيها أن نصر المؤمنين يكون بطريقتين: الأولى: كف كيد الاعداء، والثانية: أخذهم والتنكيل بهم.

٣٠٢٠. فيها: السعي في تحصيل أسباب النصر ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وأنه من التوكل على الله.

٣٠٢١. فيها تنبيه على ضرورة استشعار معية الله ﷻ، والتحلي بكمال التوكل عليه عند لقاء العدو..

٣٠٢٢. فيها: مشروعية الأخذ بالأسباب، مع حسن التوكل عليه - جل ذكره -.

٣٠٢٣. فيها التنبيه إلى أنه إذا كان للكفر والنفاق صولة وجولة فلا تهولنكم فـ ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ فكونوا مع الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

يستمر السياق القرآني في السورة للحديث الطويل عن المنافقين وبيان أساليبهم والتحذير منهم، والحسم في أمرهم وعدم التردد فيهم، وموقف المؤمنين منهم وتجنب خصالهم... ويلاحظ كثرة آيات النفاق في سورة النساء فقد احتوت سورة النساء على آيات كثيرة تتحدث عن المنافقين تصل إلى قرابة ٩٠ آية؛ ولا شك أن المنافقين يتخذون من قضايا النساء [وتحديدا ما يسمى في عصرنا حقوق المرأة] مطية وذريعة لتمرير أجندتهم على الأمة، والقدح في الثوابت، والتمرد على القيم، والدخول لذلك من باب النساء؛ فناسب الجمع بين الإشارة للمنافقين والحديث عن

أحكام النساء لأسباب: أحدها: كشف النفاق، وأساليب المنافقين.

وثانيها: إبراز عناية الإسلام بالمرأة، وتكريمه لها أماً وبنتاً وأختاً من خلال ذكر التشريعات والأحكام. وثالثها: إلجام المنافقين ومن على شاكلتهم من ذوي الأهواء والتوجهات المنحرفة. ورابعها: انخداع كثير من النساء المسلمات بأساليب المنافقين وطرقهم الملتوية، حيث يؤدي انخداعهن بدعاوى هؤلاء المنافقين والليبراليين إلى تدمير بيوتهن، وإخراجهن من عش الزوجية السعيد، إلى مواطن الفحش والرذيلة، ليصبحن سلعة رخيصة لهؤلاء الذئاب من البشر. والله أعلم. والحديث عن المنافقين كثير في القرآن؛ ففي البقرة ذكر أوصافهم أكثر من المؤمنين والكافرين، وفي التوبة كادت تتطاير قلوب الصحابة من شنيع أوصافهم فمنهم ومنهم، ولا تكاد سورة إلا تتحدث عنهم إلى أن أتت سورة كاملة باسمهم وهذا يدل على خطرهم على الأمة؛ فالكلام كلام رب العالمين العالم بخلقه وسرائرهم.

٣٠٢٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فقد تحرر بما مضى أن المنافقين كفرة، لا لبس في أمرهم، وكشف سبحانه وتعالى الحكم في باطن أمرهم بالشفاعة وظاهره بالتحية، وحذر من خالف ذلك بما أوجبته على نفسه حكمته من الجمع ليوم الفصل للحكم بالعدل، وختم بأن الخبر عنهم وعن جميع ذلك صدق؛ كان ذلك سبباً لجزم القول بشقاوتهم والإعراض عنهم والبعد عن الشفاعة فيهم، والإجماع على ذلك من كل مؤمن وإن كان مبنى السورة على التواصل، لأن ذلك إنما هو حيث لا يؤدي إلى مقاطعة أمر الله، فقال تعالى مبكتاً لمن توقف عن الجزم بإبعادهم: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ أي أيّ شيء لكم من أمور الدنيا أو الآخرة في افتراقكم فيهم﴿فِئَتَيْنِ﴾ بعضكم يشتد عليهم وبعضكم يرفق بهم. ولما كان هذا ظاهراً في بروز الأمر المطاع بين القول بكفرهم ووضّحه بقوله؛ ﴿وَاللَّهُ﴾ أي والحال أن الملك الذي لا أمر لأحد معه﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي ردهم منكوسين مقلوبين ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي بعد إقرارهم بالإيمان من مثل هذه العظائم، فاحذروا ذلك ولا تختلفوا في أمرهم بعد هذا البيان؛ وفي غزوة أحد والتفسير من البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرقتين: فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم،

فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ - الآية، وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب وفي رواية: - كما تنفي النار خبث الفضة» انتهى. فالمعنى حينئذ: اتفقوا على أن تسيروا فيها بما ينزل عليكم في هذه الآيات. ولما كان حال من يرفق بهم حال من يريد هدايتهم، أنكر ﷻ ذلك عليهم صريحاً لبت الأمر في كفرهم فقال: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿أَن تَهْدُواْ﴾ أي توجدوا الهداية في قلب ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي وهو الملك الأعظم الذي لا يرد له أمر، وهو معنى قوله: ﴿وَمَن﴾ أي والحال أنه من ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي بمجامع أسمائه وصفاته ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ أي أصلاً أيها المخاطب كائناً من كان ﴿لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي إلى ما أضله عنه أصلاً، والمعنى: إن كان رفقكم بهم رجاء هدايتهم فذلك أمر ليس إلا لله، وإنما عليكم أنتم الدعاء، فمن أجاب صار أهلاً للمواصلة، ومن أبى صارت مقاطعته ديناً، وقتله قربة، والإغلاظ عليه واجباً. [نظم الدرر].

٣٠٢٥. فيها: النسق القرآني في خطاب أهل الإيمان وعلى رأسهم الأصحاب فيه تلطف، وهذه الآية وسابقاتها فيها مزيد عناية بالمؤمنين، وذلك بتعريفهم بصفات المنافقين؛ لتحذيرهم منهم ومن مشابهة أقوالهم وأفعالهم..

٣٠٢٦. فيها إثبات لكثير من الأسماء والصفات لله ﷻ.

٣٠٢٧. فيها مراقبة الله تعالى لخلقه، واطلاعه على ما يجري بينهم، وتصويبه لأخطائهم.

٣٠٢٨. فيها عظيم كرم الله تعالى، ورحمته حين ينبهنا على أخطائنا، ويرشدنا إلى مصالحنا.

٣٠٢٩. تفيد ضرورة تحديد الأمور، وحسمها، وكراهة التمييع لا سيما في التعامل مع المنافقين؛ يؤخذ من الاستنكار الذي بدأت به الآية.

٣٠٣٠. فيها التلطف في العتاب باستخدام أيسر الأساليب.

٣٠٣١. تفيد وجوب شدة الحذر من المنافقين، لأن فيها عتابٌ للمؤمنين: كيف تختلفون في المنافقين، ويحسن بعضكم الظن بهم بعدما بينت لكم من صفاتهم وضلالهم وكفرهم وحرصهم على هدم الإسلام وتدمير أهله.

٣٠٣٢. فيها مزيد عناية بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم، بتربيتهم على الوحدة والائتلاف، ونبذ الفرقة والخلاف.

٣٠٣٣. في الآية: أن الاختلاف قد يحدث في المجتمع المسلم قدراً مع سلامة النيَّات.. لكنه مرفوض شرعاً.

٣٠٣٤. فيها: من أسباب القوة جمع الكلمة نحو العدو.

٣٠٣٥. فيها: أن على المسلمين أن يتحدوا ضد المنافقين ولا يختلفوا في عداوتهم.

٣٠٣٦. فيها تنفير من الخلاف عموماً، ودعوة إلى التروي والتمهل في الأحكام.

٣٠٣٧. فيها دليل على أن المجتهد إذا استند إلى دليل ضعيف ما كان من شأنه أن يستدل به العالِم.

٣٠٣٨. دلت الآية على أهمية وحدة الصف والكلمة.

٣٠٣٩. فيها إرشاد للمسلم بأن يكون فطناً حذراً ليس بخبٍ ولا غرٍ.

٣٠٤٠. فيها تحذير من الدفاع عن أهل الباطل فيما يتعلق بباطلهم.

٣٠٤١. فيها: مشروعية الإنكار على المخالف؛ وتتأكد حسب الحال؛ وجوباً وندباً.

٣٠٤٢. فيها: التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ دون غيره من الألفاظ فيه دلالة على سوء حال المنافقين الذين عرفوا الحق واستبدلوه بالباطل فشابهوا اليهود في الإعراض والمكر والجحود، فكان جزاؤهم أن عاملهم بسوء أفعالهم.

٣٠٤٣. فيها: إيثار كلمة ﴿أَرْكَسَهُم﴾ ولم يقل: ردَّهم – مثلاً –؛ لأنه أنسب إلى حال المنافقين؛ فإنه تعالى ذكره إنما نكّسهم، وركّسهم، وقلّبهم، وردَّهم إلى الكفر: بسبب نجاسة معتقدهم؛ الذي سعوا من أجله. أي: أضلَّهم بسبب نجاسة المعتقد [النفاق]، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]: أي نجس؛ وذلك أن من معاني " الركس": النجس. وفي

حديث ابن مسعود ﷺ: فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال: "هذا ركس".

٣٠٤٤. فيها: أن الجزاء من جنس العمل.

٣٠٤٥. فيها: بيان عدل الله ﷻ؛ فإنهم لما اكتسبوا النفاق أضلهم.

٣٠٤٦. فيها: بيان شناعة النفاق.

٣٠٤٧. فيها: أهمية الإخلاص، الذي يناقض النفاق.

٣٠٤٨. فيها: كما أن العمل الصالح ينجي العبد، فكذا العمل الفاسد يورد العبد المهالك، والحرمان؛ فإن الله ﷻ قد حرمهم الإيمان بسبب نفاقهم.

٣٠٤٩. فيها: إثبات الأسباب والأخذ بها، فالباء في ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ سببية. والناس مختلفون في الأسباب، فهناك المنكر لتأثير الأسباب، وهناك من يرى تأثيرها بطبيعتها وليس في القوة التي جعلها الله فيها، وهناك من يرى تأثيرها بما أودع الله فيها من القوة الفاعلة، وليست هي الفاعلة وهؤلاء هم أهل الحق والصواب، فالله سبحانه هو الذي جعل الإحراق في النار فتحرق وهكذا.

٣٠٥٠. فيها الرد على منكري الأسباب من المتكلمين؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

٣٠٥١. فيها أن النفاق من أعظم أسباب الخذلان والحرمان.

٣٠٥٢. فيها أن الانتكاس والارتكاس إنما هو بسبب الذنوب.

٣٠٥٣. فيها: أن الانسان بكثرة معاصيه، قد يرتد والعياذ بالله.

٣٠٥٤. تفيد أن الكسب السيء من أعظم أسباب الانحراف والبعد عن الجادة.

٣٠٥٥. فيها: الحكم على من اتصف بصفات المنافقين بالنفاق على ما أظهر، والله أعلم.

٣٠٥٦. فيها أن هداية التوفيق من الله تعالى لا يختص بها سواه.

٣٠٥٧. فيها تربية عميقة على التوافق مع مرادات الله ورســوله لهذا قال عمر ﷺ للعباس: لإسلامك أحب إليَّ من إسلام الخطاب لأن النبي ﷺ كان يحب إسلامك.

٣٠٥٨. فيها إشارة إلى حرص الصحابة رضي الله عنهم على هداية الناس وطمعهم في إيمانهم مهما حادوا عن الطريق.

٣٠٥٩. فيها الإشارة إلى عدم عصمة الصحابة رضي الله عنهم.

٣٠٦٠. فيها: حث على الســعي إلى هداية الناس. فقوله:﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ مفهومه: أنكم تهدوا من لم يضله الله، وتصديقه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] وعليه: فعلى العبد أن يسعى سعياً حثيثاً في هداية الناس؛ فلا يدري لعل الله أراد لبعضهم الهداية على يديه.

٣٠٦١. فيها أن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها كيف يشاء. فنسأل الله أن يصرف قلوبنا لطاعته.

٣٠٦٢. فيها: قوله:﴿ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ فيه: رد على القدرية والمعتزلة.

٣٠٦٣. في الآية رد على الجبرية والقدرية، فأما الرد على الجبرية فيؤخذ من قوله:﴿ بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فأثبت لهم الكسب على غرار قولهم أن الانسان لا كسب له وهو مجبور على عمله. أما الرد على القدرية فهو ظاهر من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ حيث قالوا إن أفعال العباد لا علاقة لتقدير الله ﷻ بها.

٣٠٦٤. فيها: أن من أضله الله ﷻ فلن يهديه أحد.

٣٠٦٥. فيها: حذف العائد من قوله:﴿ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ للاحتقار والإهانة.

٣٠٦٦. فيها: اختيار اسم الجلالة [الله] في قوله: ﴿ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ إشعار بتفريط هؤلاء الشديد في التعلق بالإله، والانتساب إلى عبوديته.

٣٠٦٧. تكرار لفظ الضــلال مرتين والهداية مرة واحدة للدلالة على أن طرق الضــلال متعددة وطريق الهداية واحد.

٣٠٦٨. فيها عدل الله ﷻ المطلق، فالله لا يظلم أحداً، وأنَّ إركاسهم كان بسبب أعمالهم وسوء اعتقادهم.

٣٠٦٩. فيها: عدم الحزن على من أضله الله سبحانه وتعالى، فالله ﷻ لم يوفِّقه لأنَّه ليس أهلاً لهدايته.

٣٠٧٠. في الآية أن من مات على الكفر فلا ينبغي تمني أنه مات على الهدى؛ لأنه قد تبين قدر الله سبحانه وتعالى فيه.

٣٠٧١. في الآية أن يكون المؤمن على يقين أن من مات على الكفر أو النفاق أنه هو المتسبب في ضلال نفسه بعمله؛ فلا يتحسر على أحد منهم.

٣٠٧٢. فيها تسلية للنبي ﷺ وصحابته الكرام حين ينبهون على أن الهداية والإضلال بيد ذي الإكرام والجلال وحده فلا تحزنوا.

٣٠٧٣. فيها عظم قدرة الله تعالى الذي بيده الأمر كله فما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك له وما يمسك فلا مرسل له من بعده؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

٣٠٧٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما سبق عتاب الله ﷻ للمؤمنين بسبب اختلافهم في حق المنافقين، والإنكار على الذين ترددوا في أخذ موقف القوة والحزم تجاههم، جاء في هذه الآية ذكر سبب ضرورة اتخاذ الموقف الحازم ضد أهل النفاق، ذلك أنهم يحرصون على جرِّ أهل الإيمان ناحية الكفر..

٣٠٧٥. تفيد مع ما قبلها أن من الناس من تدعوه إلى الهداية والخير والجنة، ويدعوك هو إلى الضلال والشر والنار؛ كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

٣٠٧٦. فيها: عبّر ﷻ في جانب المؤمنين بالإرادة: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وفي جانب المنافقين بالود؛ لأن الإرادة ينشأ عنها الفعل؛ فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان من المنافقين لأن الإيمان قريب من فطرة الناس، والمنافقون يعلمون أن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم فلم يكن طلبهم تكفير المؤمنين إلا تمنِّياً.

٣٠٧٧. فيها: إذا كان الودُّ عملًا قلبيًا فما أحرى صاحبه بأن يتخذ جميع الأسباب التي تبلّغه مُناه، وأن يخضع جميع جوارحه لخدمة ما يريده قلبه! وكم من طريق يسلكه أهل الباطل لإفساد أهل الحق! فيسعى الكافر ومثله المنافق بكل ما يمكنهما إلى أن يسبلا على ما يستقر في كل فطرة غطاء الكفر، ويجتهدا بأن يعينهما على ذلك كل الخلائق فيستروه كما ستراه طمعًا في أن يطفئا نور الله تعالى، وأنى لهما؟! وأن يود القلب شيئًا فإنه لا يمنعه منه مانع حتى يحقق له ما يريد، [على الوجه الذي يرضيه] بلا كلل ولا ملل. وعلى هذا فالمأمول من المؤمن ليس اجتناب الكفر فحسب بل الاحتياط لإيمانه غاية الاحتياط بأن لا يقع في قلبه مجرد الموالاة للكفرة.

٣٠٧٨. تفيد عناد المنافقين وتماديهم في الضلال، حيث تمنوا لو يساويهم المؤمنون في الكفر.

٣٠٧٩. فيها: أن المنافقين من جملة الكافرين.

٣٠٨٠. فيها: أن النفاق كفر مخرج من الملة. لقوله: ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾.

٣٠٨١. فيها: أن من المنافقين من كان مؤمناً ثم طرأ عليه الكفر فارتد عن الدين، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

٣٠٨٢. فيها: أن المنافقين يشجعون على الردة.

٣٠٨٣. يفيد التعبير بقوله: ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ ولم يكتف بقوله: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فقط؛ وذلك للإشارة إلى أن كفر المنافقين أشد من كفر الكافرين أنفسهم؛ ولهذا كان مصيرهم الدرك الأسفل من النار.

٣٠٨٤. فيها: تحذير المسلمين من موالاة المنافقين مطلقاً سواء كانوا حكاماً أو غيرهم.

٣٠٨٥. فيها: إشارة إلى حسد المنافقين، لأن الحاسد إذا حرم النعمة تمنى زوالها عن غيره. وعليه: فيكون الحسد صفة من صفات المنافقين.

٣٠٨٦. يفيد التعبير بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ ولم يقل [فتكونون كفارا] وذلك للإشارة إلى أن المنافقين لا يرضون فقط بكفر من يكفر من المؤمنين؛ بل يسعون إلى أن يكون هذا المرتد الكافر في درجتهم متآمراً ومخططاً وساعياً معهم في ضرب كيان المجتمع المؤمن من الداخل.

٣٠٨٧. تفيد شدة عناية الله تعالى بالمؤمنين حيث كشف لهم خبث معتقد عدوهم وما يضمرونه من السوء حتى يحذروهم ولا ينخدعوا بدعاويهم الكاذبة.

٣٠٨٨. فيها أن على المؤمن أن يتحرى قلبه وإيمانه ويستعيذ بالله من النفاق وأسبابه ومسبباته خاصة في عصرنا الذي كثر فيه ما يدعو إلى النفاق.

٣٠٨٩. فيها: أن أهل الكفر لا همة لهم، ولن يرضوا عن أهل الإسلام حتى {يكفروا كما كفروا}. وتصديقه: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ وعليه: فمن الخسران أن يسعى المرء في رضاهم.

٣٠٩٠. في الآية سعي الكافرين إلى إزالة وتدمير أي تفوق للمسلمين، والبقاء مثلهم في كل نقيصة في الدين والدنيا.

٣٠٩١. فيها دعوة لطيفة لأهل الحق أن يثبتوا على ما هم عليه... فكيد أهل الباطل، ورغبتهم بأن يجعلوهم مثلهم..

٣٠٩٢. فيها تأكيد على أن أهل الباطل يعتقدون فضل أهل الحق، ولذلك يحرصون على إفسادهم.. فلا يصلح من أصحاب الفضل أن يستفلوا إلى مستوى من هم دونهم..

٣٠٩٣. تفيد التحذير من الكفر والردة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

٣٠٩٤. فيها: أن أهل الكفر يضمرون العداوة للمسلم، وإن دافع وجادل عنهم.

٣٠٩٥. فيها: بيان خطر الصحبة؛ فإن أهل الغي لا يريدون الهداية لغيرهم. وقد قيل: "ودت الزانية أن النساء كلهن زوان".

٣٠٩٦. فيها تحذير المؤمنين من كيد المنافقين.

٣٠٩٧. تفيد جواز استخدام [لو] في الأمور المستقبلة.

٣٠٩٨. فيها: في جمع﴿ أَوۡلِيَآءَ ﴾ إشارة إلى أفرادنا ألَّا ينغمسوا فيهم. ولو جاء التعبير بالمفرد ففيه التحذير من اتخاذ أفرادهم بطانة وتمكينهم من أسرار الأمة.

٣٠٩٩. فيها: بيان وجوب الهجرة؛ من دار الشرك إلى دار الإسلام.

٣١٠٠. تفيد فضل الهجرة، وأنها علامة على صدق إيمان صاحبها، وفي الحديث: "أما علمت أن الهجرة تهدم ما كان قبلها". رواه مسلم.

٣١٠١. تفيد أن من صفات المنافقين التي يعرفون بها: التولي والإعراض عن الهجرة ونصر الدين والدفاع عنه.

٣١٠٢. فيها: الحكم على الناس بحسب الظاهر، فلو هاجروا وأظهروا التوبة والبناهم وأمرهم إلى الله ﷻ.

٣١٠٣. فيها: بيان العناية بالإخلاص لله ﷻ، لقوله: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا في سبيل رضاكم، أو من أجل متاع زائل. وقد قال النبي ﷺ: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

متفق عليه.

٣١٠٤. تفيد أهمية الإخلاص في جميع الأعمال فليس المعتبر هجرة الأبدان وانتقالها من دار الكفر إلى دار الإسلام، وإنما المعتبر أولاً هجرة القلوب والنيَّات لوجه الله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٣١٠٥. تفيد بعموم لفظها هجر كل ما نهى الله تعالى عنه والذي من أعظمه موالاة الكافرين والمنافقين وغيرها، ولَمّا كانَ كُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ مُعْتَبَرًا لا جَرَمَ ذَكَرَ اللَّهُ تعالى لَفْظًا عامًّا يَتَناوَلُ الكُلَّ فَقالَ: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فَإنَّهُ تعالى لَمْ يَقُلْ: حَتّى يُهاجِرُوا عَنِ الكُفْرِ، بَلْ قالَ: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ مُهاجِرَةُ دارِ الكُفْرِ ومُهاجِرَةُ شِعارِ الكُفْرِ، ثُمَّ لَمْ يَقْتَصِرْ تعالى عَلى ذِكْرِ الهِجْرَةِ، بَلْ قَيَّدَهُ بِكَوْنِهِ في سَبِيلِ اللَّهِ، فَإنَّهُ رُبَّما كانَتِ الهِجْرَةُ مِن دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسْلامِ، ومِن شِعارِ الكُفْرِ إلى شِعارِ الإسْلامِ لِغَرَضٍ مِن أغْراضِ الدُّنْيا، إنَّما المُعْتَبَرُ وُقُوعُ تِلْكَ الهِجْرَةِ لِأجْلِ أمْرِ اللَّهِ تَعالى.

٣١٠٦. فيها دليل على أنّ من صدر منه شيء يحتمل الكفر لا يؤاخذ به حتّى يُتَقَدّم له، ويعرّف بما صدر منه، ويُعذَر إليه، فإن التزمه يؤاخذ به، ثمُّ يستتاب. وهو الذي أفتى به سحنون.

٣١٠٧. تفيد أنَّ أعَزَّ الأشْياءِ وأعْظَمَها عِنْدَ جَمِيعِ الخَلْقِ هو الدِّينُ، لِأنَّ ذَلِكَ هو الأمْرُ الَّذِي بِهِ يُتَقَرَّبُ إلى اللَّهِ تعالى، ويُتَوَسَّلُ بِهِ إلى طَلَبِ السَّعادَةِ في الآخِرَةِ، وإذا كانَ كَذَلِكَ كانَتِ العَداوَةُ الحاصِلَةُ بِسَبَبِهِ أعْظَمَ أنْواعِ العَداوَةِ، وإذا كانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ طَلَبُ المَحَبَّةِ والوِلايَةِ في المَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ أعْظَمُ مُوجِباتِ العَداوَةِ حاصِلًا فِيهِ واللَّهُ أعْلَمُ.

٣١٠٨. تفيد أنَّهُ لا يَجُوزُ مُوالاةُ المُشْرِكِينَ والمُنافِقِينَ والمُشْتَهِرِينَ بِالزَّنْدَقَةِ والإلْحادِ.

٣١٠٩. تفيد النهي عن محبة المنافقين وأهمية التقرب إلى الله تعالى ببغضهم؛ لأنه يستلزم من عدم الولاية عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة كما يستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده.

٣١١٠. في الآية مشروعية التثبت من سلامة دين الأشخاص وكفاءتهم وخاصة عند إسناد أي عمل إليهم يخص المسلمين.

٣١١١. فيها: تترســـخ وتتجلى في هذه الآية المباركة عقيدة الولاء والبراء وهي أحد أهم ركائز الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

٣١١٢. تفيد اهتمام الإسلام بمبدأ التصفية والتربية.

٣١١٣. فيها: بيان خطر الاستعانة بالكافر في الحروب.

٣١١٤. تفيد أن المقاتلة آخر الحلول.

٣١١٥. فيها بيان أسلوب القرآن في التدرج في معاملة المنافقين.

٣١١٦. تفيد ضرورة حسم الأمور ومعالجتها عندما تتعلق بالدين والعقيدة.

٣١١٧. تفيد أن المنافقين يخذلون الأمة ولا ينصـــرون الدين ولذلك نهى عن اتخاذ نصـير منهم لجبنهم وخورهم وعدم إيمانهم. والتناصـــر بهم يؤدي إلى الخذلان كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

٣١١٨. فيها: البطش بالمنافقين حال القدرة عليهم إن أظهروا النفاق كما قال تعالى في ســـورة الأحزاب: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ – ٦١].

٣١١٩. تفيد جواز قتل المنافق الذي ظهر نفاقه وكفره، ومن ذلك قتل الزنديق.

٣١٢٠. فيها: في مستهل الآية يخبر المولى ﷻ أن أهل النفاق يودون أن نكفر كما كفروا وهذه هي غايتهم؛ فجاء النهي في آخر الآية إلى ما هو أبعد من ذلك فســـدَّ الطرق الموصـــلة إلى غايتهم؛ وهو عدم اتخاذهم أولياء أو أنصار.

٣١٢١. تفيد أن هنالك معركة شرسة مستمرة، يجب التنبه لها، وإعداد العدة لمواجهتها، وهي سعي أهل النفاق الدائم من داخل الصف المسلم لحرف أهل الإيمان عن الاستقامة إلى ما هم

عليه من الكفر الضلال، وهي معركة تتطلب عزم وحزم كما دل عليها ختام الآية: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

٣١٢٢. تفيد مع ما بعدها أن في المنافقين فئتان؛ فئة توالي الكافرين وهم في داخل المجتمع المؤمن، وفئة توالي الكافرين وهم في خارج المجتمع المؤمن. وكلتا الفئتين يسعون إلى ضرب المؤمنين؛ وتكمن الخطورة في الفئة الثانية ممن يجلسون فترة طويلة بين الكفار ويحملون أفكارهم ثم يأتون إلى بلاد المسلمين لتولي مناصب قيادية في هذا المجتمع؛ وذلك من أجل أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ورؤساءهم من الكفار؛ فيقودون المؤمنين إلى ما فيه زعزعة إيمانهم، وتدمير أخلاقهم، وكسب رضا زعمائهم من الكفار. وسياقات هذه الآيات فيها دلالات وهدايات عظيمة لأمتنا المعاصرة، والقضية التي تتحدث عنها الآيات ليست مسألة مضت وانقضت، وتاريخاً يحكى ويروى، بل هي أحداث وقعت وستقع للأمة المؤمنة، بل إنها واقعة فيه في زماننا هذا، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠].

٣١٢٣. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما قبلها؛ فلما كان ﷻ قد أمر فيهم على تقدير توليهم بما أمر، استثنى منه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ فراراً منكم، وهم من الكفار عند الجمهور ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ أي عهد وثيق بأن لا تقاتلوهم ولا تقاتلوا من لجأ إليهم أو دخل فيما دخلوا فيه فكفوا حينئذ عن أخذهم وقتلهم ﴿ أَوْ ﴾ الذين ﴿ جَاءُوكُمْ ﴾ حال كونهم ﴿ حَصِرَتْ ﴾ أي ضاقت وهابت وأحجمت ﴿ صُدُورُهُمْ أَن ﴾ أي عن أن ﴿ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ أي لأجل دينهم وقومهم ﴿ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي لأجلكم فراراً أن يكفوا عن قتالكم وقتال قومهم فلا تأخذوهم ولا تقاتلوهم، لأنهم كالمسالمين بترك القتال، ولعله عبر بالماضي في «جاء» إشارة إلى

أن شرط مساواتهم للواصلين إلى المعاهدين عدم التكرر، فإن تكرر ذلك منهم فهم الآخرون الآتي حكمهم. ولما كان التقدير: فلو شاء الله لجعلهم مع قومهم إلباً واحداً عليكم، عطف عليه قوله: ﴿ وَلَوْ ﴾ أي يكون المعنى: والحال أنه لو ﴿ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي وهو المتصف بكل كمال ﴿لَسَلَّطَهُمْ ﴾ أي هؤلاء الواصلين والجائين على تلك الحال من الكفار ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بنوع من أنواع التسليط، تسليطاً جارياً على الأسباب ومقتضى العوائد، لأن بهم قوة على قتالكم ﴿ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ أي فتسبب عن هذا التسليط أنهم قاتلوكم منفردين أو مع غيرهم من أعدائكم، واللام فيه جواب «لو» على التكرير، أو البدل من سلط. ولما كان المغيّي على النهي عن قتالهم حينئذ، صرح به في قوله: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتكم بالكف عنهم من المنافقين، فكفوا عنكم ﴿ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾ منفردين ولا مجتمعين مع غيرهم ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي الانقياد ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه بجهة من الجهات ﴿ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي إلى شيء من أخذهم ولا قتلهم. [نظم الدرر].

٣١٢٤. تفيد بيان فضل الإسلام، وحرصه على الوفاء بالعهود، وعدم الغدر ونقض المواثيق، وهذا من محاسن الإسلام، ومن أسباب دخول الناس فيه. فليتق الله بعض من يغدر وينقض المواثيق ويقتل المعاهدين فإن هذا من أخطر الذنوب، قال رسول الله ﷺ: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين سنة". رواه البخاري.

٣١٢٥. فيها: الإنصاف وعدم التعميم في الأحكام والجزاء حيث استثنى من الحكم المذكور في الآية السابقة هذا الصنف من المنافقين.

٣١٢٦. فيها الرد على المنهج الظالم: من لم يكن معنا فهو ضدنا! ففيها أن المنافقين إذا لم يقاتلوا المسلمين فلا يجوز للمسلمين قتالهم.

٣١٢٧. في الآية وجوب الوفاء بالعهد للمعاهد، ولمن دخل في عهده والتزم بما التزم به المعاهد.

٣١٢٨. فيها كمال قدرة الله تعالى، وأن الأمور كلها بيده وفي قبضته ﷻ.

٣١٢٩. تفيد إثبات المشيئة لله ﷻ، فمشيئته نافذة؛ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير.

٣١٣٠. فيها: الأمر بيد الله يحكم بما شاء من حل وحرمة وإيجاب وغير ذلك.

٣١٣١. فيها: الرد على القدرية الذين قالوا إن أفعال العبد عائدة له ولا علاقة لله به.

٣١٣٢. فيها: الرد على الجبرية، حيث نسب القتال إلى الإنسان وهم لا ينسبون الفعل للإنسان إلا مجازاً.

٣١٣٣. تفيد أن الله ﷻ يكف كثيرا من الشرور والحروب عن المسلمين برحمته، ولا يسلط عليهم الكفار، وفي الحرب العالمية الثانية التي فتكت بخمسين مليون إنسان لم تتأثر بها بلاد المسلمين إلا في مواضع قليلة، وهذا لا أثر له مع ما حصل من دمار وخراب في بلاد الكفار، فإن قنبلة نووية واحدة قتلت في ثانيتين أكثر من مائة ألف إنسان.

٣١٣٤. تفيد التخويف من الذنوب، وخصوصاً نقض العهد لأنها من أسباب تسليط الكفار على المسلمين؛ قال رسول الله ﷺ: "وما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم". رواه ابن ماجه وحسنه الألباني.

٣١٣٥. فيها: إقدام القلب وإحجامه بيد الله تعالى وحده؛ ولذلك قال الأعرابي: عرفت ربي بصرف الهمم ونقض العزائم.

٣١٣٦. تفيد لطف الله تعالى ورحمته بالمؤمنين بأن كفّ بأس الفئتين عنهم.

٣١٣٧. فيها: أن على المجاهدين أن لا يقاتلوا جميع المخالفين أحياناً، فمن تركهم فعليهم أن يتركوه ولا يفتحوا معه جبهة جديدة، وفي الحديث: "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم". رواه أبو داود وحسنه الألباني.

٣١٣٨. فيها دليل على أن من المقاصد الشرعية تقليص دائرة العداء للمسلمين، وتقليل العداوة قدر الإمكان. وإن من الحماقة استصناع الأعداء، وإعلان الحرب على كل المخالفين.

٣١٣٩. فيها: الكف عن كل من ألقى السلم.

٣١٤٠. فيها: عبر بقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ بدل السلام، للإشارة إلى معنى التسليم لا مجرد الأمن والسلام، لأن السلم يفيد معنى التسليم، فهم ألقوا إليكم قيادهم واستسلموا لأمركم، ودخلوا في طاعتكم.

٣١٤١. في هذه الآية إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين.

٣١٤٢. تفيد أن الكافر المحايد الذي لا يقاتل المسلمين أخف ضرراً من الكافر المحارب، ومعاملته تختلف، وهذا من عدل الإسلام ورحمته.

٣١٤٣. تفيد إثبات الجعل لله ﷻ.

٣١٤٤. فيها: أن على أهل الجهاد أن يتقيدوا بالشرع في جهادهم، فلا يغلوا بقتال من لم يجعل الله لهم سبيلاً في شرعه بقتالهم.

٣١٤٥. تعتبر دليلا على القاعدة الفقهية [ما قارب الشيء يعطى حكمه].

٣١٤٦. فيها، وبضميمة ما بعدها: أن الإسلام دين العدل.

قال تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٩١].

٣١٤٧. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما قبلها؛ فلما سبق ذكر الفريق الذين لا يريدون قتال المؤمنين ولا يريدون قتال قومهم، وجاء الأمر بمنع قتالهم... جاء في هذه الآية ذكر فريق آخر يظهرون المودة للمؤمنين ويدعون الإيمان؛ ليأمنوا قتالهم، ويظهرون المودة لقومهم وينتسبون إلى الكفر؛ ليأمنوا شرهم، فأولئك لزم قتالهم إذا لم يتوبوا ويلزموا سبيل أهل الإيمان..

٣١٤٨. فيها بيان الفرق بين الطائفتين: فهؤلاء في الصورة كالفرقة الأولى، وفي الحقيقة مخالفة لها. فإن الفرقة الأولى تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون. [السعدي].

٣١٤٩. فيها: الأمر بقتالهم في الآية الأولى من غير تتبع لهم وترصد تاديباً لهم ولغيرهم، لكن في الثانية بالتتبع والترصد اجتثاثاً لشأفتهم.

٣١٥٠. فيها توجيه للتحري عن أهل النفاق؛ لاتقاء شرهم ومعاملتهم بما يستحقون، بدلالة قوله:﴿ سَتَجِدُونَ ﴾ أي ستعثرون عليهم.

٣١٥١. في قوله تعالى:﴿ سَتَجِدُونَ ﴾ إخبار عن المستقبل، وفي تحققه إظهار لوجه من أوجه إعجاز القرآن: الإخبار عن الغيب.

٣١٥٢. فيها: ذم ذي الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه.

٣١٥٣. فيها: إثبات القدرة والإرادة للعبد؛ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ ففيها رد على الجبرية.

٣١٥٤. فيها: ذم المنافقين وبيان تناقضهم في﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فلا يمكن أن يكونوا أولياء للمؤمنين والكافرين في آنٍ واحدٍ.

٣١٥٥. تفيد ذم هذه الصفة القبيحة من صفات المنافقين، وهي تذكر باشتقاق كلمة منافق: من نافقاء اليربوع الذي يجعل لبيته بابين فإذا هاجمه عدو من باب خرج من الباب الآخر، والمنافقون بهذه الصفة التي تدل على الجبن والخور ومهانة النفس، والتلون، وكثرة المداخل والمخارج، ومحاولة إرضاء الجميع من المسلمين والكفار، والأكل على جميع الموائد، فالآية تتضمن الحذر من هذه الصفات التي لا تليق بالمؤمن.

٣١٥٦. فيها بيان صفة من صفات المنافقين؛ أنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم، ولا يخدمون إلا ذواتهم.

٣١٥٧. فيها إظهار لصفة الجبن والخور التي امتاز بها أهل النفاق.

٣١٥٨. تفيد أن من معاني الفتنة: الشرك، قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤]،﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد: الفتنة: الشرك لعله اذا رد بعض أمره أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

٣١٥٩. فيها: الفتن خير ما يمحص إيمان العبد المؤمن وتظهر مدى ثباته؛ لأن المنافق فاشل في الاختبارات التي تعرض له﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾.

٣١٦٠. فيها: التحذير من الفتن واستشرافها.

٣١٦١. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ فلما تقلبوا وتلونوا في الفتن اركسوا ونكسوا فيها، قال حذيفة بن اليمان ﵁: إياك والتلون فإن دين الله واحد. وهذا أثر صحيح أخرجه ابن الجعد في مسنده، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة.

٣١٦٢. فيها بيان أن الارتكاس ملازم للطائفتين. الأولى قال فيهم: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ وهنا بحذف الفاعل﴿ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾ والإرتكاس هو الانتكاس والقلب على الرأس. نسأل الله العافيه. وهم أصحاب القلوب المنكوسة، قال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: " تُعرَضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عودٌ عودٌ، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها، نكتَتْ فيه نكتةً سوداءَ، وأيُّ قلبٍ أُنكِرَها، نكتت فيه نكتةً بيضاءَ حتى يصيرَ على قلبَينِ أبيَضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ والآخرُ أسودُ مُربادًا كالكوزِ مُجخِّيًا لا يعرف معروفًا، ولا يُنكرُ منكرًا إلا ما أُشرِبَ من هواه". رواه مسلم.

٣١٦٣. فيها: أنه يشرع للمسلمين في حال قوتهم ودولتهم أن يقتلوا المنافقين إذا أظهروا نفاقهم.

٣١٦٤. فيها توجيه للحرص على نقاء المجتمع الفاضل؛ ففي الخلاص من حياة المنافقين المفسدين، تطهير للمجتمع الفاضل من نجاسة الغش والخداع والإفساد..

٣١٦٥. فيها ابتلاء الله تعالى لأهل الإيمان بأمثال هؤلاء الأرجاس.

٣١٦٦. فيها مراقبة الله تعالى لعباده، واطلاعه ﷻ على ما تخفيه صدورهم وتظهره ألسنتهم.

٣١٦٧. فيها أن القتل والقتال لا يكون إلا بعد تمام الحجة وبيان المحجة؛﴿ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

٣١٦٨. فيها: بيان عدل الله –ﷻ-، وأنه يعاقب الناس بسبب ما اكتسبوا، وأن المخالفة سبب في تسليط الله ﷻ على العبد. وتصديقه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]: حجة ظاهرة في عقابكم.

٣١٦٩. فيها إشارة إلى أن المؤمن لا يفعل شيئاً خصوصاً في أمور القتال والجهاد إلا بسلطان وحجة من الله ﷻ.

٣١٧٠. فيها أن الإسلام يسعى لإقامة دولة إسلامية تبسط سيطرتها وسلطانها على الأرض لتقيم شرع الله على عباده؛﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢].

٣١٧١. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما جاء الأمر بقتال الكفار وتحريض المؤمنين لقتالهم، جاء رفع الحرج عن المؤمنين في حال القتل الخطأ لمن ظُن أنه من الكفار المحاربين.

٣١٧٢. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما قبلها؛ فلما تحدث الله ﷻ عن إباحة دماء من هم أبغض الخلق إليه؛ وهم الكفار، تحدث بعدها عن أكرم الخلق عليه، وهو المؤمن.

٣١٧٣. في الآية مع التي قبلها أن الإسلام كما بين الرقاب التي تستحق أن تقطع أو يكف عنها كذلك يبين الرقاب التي تستحق أن تحرر من رق العبودية.

٣١٧٤. في الآيات السابقة الاحتراز من دم الكافر المسالم. فمن باب أولى الحذر من دم المؤمن المعصوم.

٣١٧٥. في الآية تكريم لأهل الإيمان، ودليل على علو منزلتهم.

٣١٧٦. فيها تتجلى كرامة الإسلام للإنسان وذلك من عدة وجوه منها:

- تعظيم حرمة الدماء إلا بحقها للمسلم وغيره.
- استبعاد أن يقع ذلك عمداً من المؤمن فإيمانه يمنعه ويردعه من ذلك.
- تغليظ الكفارة على من وقع منه ذلك ولو بالخطأ؛ فمع الدية صيام شهرين متتابعين عند عدم التمكن من الإعتاق.
- تكليف العاقلة بالدية لتحمل مسؤلية الأخذ على يد سفهائهم وعدم التساهل في كل ما من شأنه أن يؤدي إلى إراقة الدماء. فالعقوبة الرادعة فردية وجماعية. فردية بالعتق أو بالصيام وجماعية بالدية.
- الحقوق المترتبة على الدم الحرام ثلاثة: حق لله؛ لقوله ﷺ: " سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"، وحق للورثة بالقصاص أو الدية، وحق للمقتول وهذا لا يسقط بحال. حتى يحكم الله بينهما يوم القيامة لحديث: "أن المقتول يقول لله ﷻ يوم القيامة: يارب: سل هذا فيم قتلني؟".
- تشريع عتق الرقاب المؤمنة كفارة لإزهاقها ولو بالخطأ وتسميته تحريراً؛ فيه أعلى درجات الكرامة للإنسان.

- تسمية التنازل عن حق الورثة في الدية بالصدقة؛ لما في العفو والتنازل عن الحق من رأب صدع المجتمع وبث روح المحبة والتسامح مع عظم الجريمة وهذا مما يرفع الإحن والثأر والضغائن التي تقطع أوصال المجتمع.

- أقوى وأشد وعيد في القرآن الكريم على كبيرة من الكبائر جاء في حق القتل العمد كما في الآية التالية.

٣١٧٧. فيها تأكيد على علاقة الأخوة بين المؤمنين، التي تصب في مصلحة تماسك المجتمع الفاضل.. وفي المقابل فإن فيها توجيهاً للوقاية من الوقوع فيما يسبب الفرقة والتقاطع والتدابر..

٣١٧٨. فيها علاج لمظاهر الفساد التي كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي، مثل: كثرة الاقتتال، وانتشار الرق، والجرأة على الظلم، والكبر بسبب الطبقية الاجتماعية..

٣١٧٩. تهدي الآية الكريمة إلى التوقي من إزهاق النفوس البشرية مطلقاً. فما دام القتل لا يشرع إلا للكافر المحارب المعتدي على النفوس المؤمنة، والظالم الصائل المعتدي على النفوس المعصومة فهذا القتل المشروع هو في الحقيقة لإيقاف إزهاق الأنفس البشرية التي خلقها الله لتأخذ فرصتها في الابتلاء كاملة فتؤمن عن إرادة واختيار واستدلال وبحث ونظر. فما دامت هذه النفوس مأمونة على غيرها فهي آمنة في الإسلام.

٣١٨٠. تهدي إلى عظم جريمة قتل النفس المؤمنة.

٣١٨١. تهدي إلى عظم جريمة التساهل في إزهاقها خطأً؛ لما رتبته من كفارة ثقيلة على من أخطأ من غير تساهل. فالكفارة على من أزهق النفس المؤمنة رغم احتياطه الشديد أما المتساهل المتهور الذي لا يتوقى ويحتاط فما أعظم جنايته.

٣١٨٢. تفيد بلاغة القرآن العظيم حيث جاء النهي عن الأمر الشنيع الذي ينبغي أن لا يوجد أصلاً في أهل الإسلام إلا ما وقع منه بطريق الخطأ بألفاظ تحمل دلالات التأكيد والزجر والتغليظ؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ نفي مؤكد بالكون ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ استدراك بمعنى لكن الخطأ قد يقع.

٣١٨٣. فيها: في قوله:﴿ وَمَا كَانَ ﴾ نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل؛ استبعاد الفعل بطريق البرهان، فالإيمان يحول بين المرء والقتل، [وما كان لمؤمن أن يفعله].

٣١٨٤. فيها: لا يقتل المؤمن أخاه المؤمن متعمداً وهو بكامل إيمانه.

٣١٨٥. فيها: عظم حرمة الدماء، وأن من يستبيحها قاصداً لم يعظم حرمة الله تعالى.

٣١٨٦. فيها: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

٣١٨٧. فيها دلالة على عظيم حرمة المؤمن عند الله تعالى، وأنه لا يمكن أن يقدم على هذا الفعل الشنيع من كان في قلبه إيمان؛ لأن حق المسلم على المسلم أن يحفظه ويمنعه..

٣١٨٨. في الآية استبعاد قتل المسلم لأخيه عمداً؛ وذلك لأن الأصل أن لا يحدث ذلك؛ وفي هذا تعظيم للنفس المؤمنة أيما تعظيم؛ قال القرطبي في تفسيره: وتتضمن الآية على هذا إعظام العمد وبشاعة شأنه؛ كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسياً؟ إعظاماً للعمد والقصد مع حظر الكلام به البتة.

٣١٨٩. تفيد عظم قتل المؤمن ولو خطأً، وقد قال رسول الله ﷺ: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم". رواه النسائي وصححه الألباني.

٣١٩٠. في الآية إشارة إلى حرص الإسلام على كبح الفتن وسلامة المجتمعات؛ لأن قتل الأنفس من أعظم ما يمزق المجتمع ويثير الفوضى.

٣١٩١. فيها تلطف الخالق بعباده المؤمنين ورحمته بهم؛ حيث عفا عن الذنب الذي يقع منهم على سبيل الخطأ.

٣١٩٢. في الآية دلالة واضحة على وحدة المجتمع المسلم الذي لا يتناحر مع بعضه ولا يقع منه القتل لبعضه إلا خطأً.

٣١٩٣. فيها: من وقع في الخطأ فليس هذا نهاية المطاف. فهنالك أبواب يستطيع أن يصلح بها ما أفسد.

٣١٩٤. فيها: حث الإسلام للعصاة أن ينظفوا صحائفهم في الدنيا بكل ما يستطيعونه.

٣١٩٥. تفيد علو شأن المسلم على الكافر ففرق الله بينهما في الدية.

٣١٩٦. فيها: مشروعية الدية. وأن قبولها والتصدق بها لولي الدم.

٣١٩٧. يفيد التعبير بقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ دون قوله: [ودية يسلمها إلى أهله] إشارة إلى أن دية الخطأ على العاقلة تسلمها إلى أهل القتيل؛ وقد جاءت النصوص النبوية والآثار المبينة لهذا الحكم. قال القرطبي في تفسيره: والذي وجب على العاقلة لم يجب تغليظاً، ولا أن وزر القاتل عليهم ولكنه مواساة محضة.

٣١٩٨. يفيد قوله:﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ عَلى أنَّ المقْتُولَ لَيْسَ لَهُ العَفْوُ عَنِ الدِّيَةِ؛ لِأنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ ذَلِكَ لِأهْلِهِ خاصَّةً.

٣١٩٩. فيها: محاربة الإسلام للرق وخاصة إذا وقع على أهل الإيمان.

٣٢٠٠. فيها: قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ يفيد: أن الإيمان يفرج عن صاحبه الكربات؛ ووجهه: أنه لولا الإيمان لما أمر بتحريره. فالإيمان يحرر الإنسان من رق البشر، كما أنه يحرره من رق الهوى، والشيطان؛ ليجعل هذا الإنسان عبداً لواحدٍ - هو الله جل ذكره -.

٣٢٠١. تفيد فضل الإيمان، وأثره في رفعة الإنسان، وشرفه، واستحقاقه الحرية.

٣٢٠٢. فيها: جواز إعتاق الذكر والانثى لأن الآية مطلقة.

٣٢٠٣. تفيد التنبيه على أن الحرية حياة؛ والعبودية موت؛ لهذا فان مَن تَسَبَّبَ في مَوْتِ نَفْسٍ حَيَّةٍ كانَ عَلَيْهِ السَّعْيُ في إحْياءِ نَفْسٍ كالميِّتَةِ وهي المسْتَعْبَدَةُ؛ ولهذا قال تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠] وتَأْوِيلَهُ أنَّ اللَّهَ أنْقَذَهم مِنَ اسْتِعْبادِ الفَراعِنَةِ فَصارُوا يملكون رقابهم؛ ولا يَحْكُمُهم غَيْرُهم.

٣٢٠٤. تفيد فضيلة العتق وعلو منزلته لأنه صار كفارة لهذا الذنب، وقد قال رسول الله ﷺ: "من اعتق رقبة اعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار، حتى فرجه بفرجه". متفق عليه.

٣٢٠٥. فيها: سعي الشريعة في تحرير الرقاب من الرق. وإن كان فيها استرقاق فقد جاء لضرورة.

٣٢٠٦. فيها: عبر- سبحانه- عن العتق بالتحرير في قوله: ﴿ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ ﴾ للإشعار بأن الحرية للعبيد مقصد من مقاصد الإسلام، وأن شريعته قد أوجبت على أتباعها أن يعتقوا الأرقاء إذا ما وقعوا في بعض الأخطاء حتى يتحرر أكبر عدد من الرقاب.

٣٢٠٧. فيها تأكيد على فضل العفو.. والترغيب فيه؛ لقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ ﴾.

٣٢٠٨. تفيد حث ورثة القتيل على العفو لأن الله تعالى سماها صدقة، فهي صدقة لهم.

٣٢٠٩. فيها: العفو من شيم الكرام.

٣٢١٠. فيها: في كفارة القتل الخطأ منافع متعددة منها: عتق الرقبة، وهذا من حرص الشريعة على هذا الباب، وفي الدية مراعاة لحق أولياء الدم، إلى غير ذلك من الفوائد..

٣٢١١. فيها: تنزيل أهل العهد منزلة أهل الإسلام في أداء الحقوق وحفظ المواثيق.

٣٢١٢. تفيد تعظيم الإسلام للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، وحثه على الوفاء لأهل العهد بعهدهم، بخلاف أمم الكفر وخصوصاً اليهود فإنهم ينقضون المواثيق عند أول سانحة تعرض لهم.

٣٢١٣. فيها: قدّم الدية على تحرير الرقبة في الذين لهم عهد، على العكس مما جاء في صدر الآية، للإشعار بوجوب المسارعة إلى تسليم الدية حتى لا يتردد القاتل في دفعها إلى غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يمنع عدم الاعتداء.

٣٢١٤. تفيد أن دية المعاهد ليست كدية المسلم لأنه قال:﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ وهذه نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدل على الثاني غير الأول كما في قوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾[الشرح: ٥ – ٦]. [أفاده ابن عثيمين]. واختلف العلماء في دية المعاهد، والصحيح أنها نصف دية المسلم، وقد ورد في ذلك حديث رواه أبو داود وحسنه الألباني.

٣٢١٥. فيها: حرمة معاونة الكفار المحاربين بالمال، وغيره؛ لقوله:﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ ولم يقل: "ودية"، لأن فيها عون لهم. فما سقطت الدية إلا من أجل حربهم للمسلمين، مع أنها في الأصل واجبة. وبدليل السياق، فقد أوجب الدية، والعتق معا، لغير المحاربين؛ لأن لهم ما للمسلمين. وهذا من محاسن هذا الدين. فأين المنافقون من مثل هذه النصوص؟

٣٢١٦. فيها: عدم تسليم الدية لأعدائنا الكفار والاكتفاء بتحرير رقبة يفيد أنه لا يصح تمكين الكفار من أموال المسلمين بدفعها إليهم فيستعينوا بها على قتال المسلمين.

٣٢١٧. فيها: أن في المال تسلية للنفوس عامة، وعما فاتها خاصة.

٣٢١٨. فيها: تحذير المؤمنين من الإقامة بين ظهراني المشركين حتى إذا وقعت عليهم مصيبة فوتت عليهم كثيراً من حقوقهم.

٣٢١٩. فيها: صور شتى من صور عظمة هذا الدين، وجمال هذه الشريعة، التي منها: انصافها لخصومها، وحفظها للعهد والميثاق، وتأدية الحقوق لمن لم يؤمن بها، ممن هم من أهل الذمة، وأوجب لهم الدية، التي هي حق لهم.

٣٢٢٠. تفيد أثر الصيام في تكفير الذنوب والخطايا ولذلك شرع الصيام في كثير من الكفارات.

٣٢٢١. تفيد أثر التتابع في العمل والاستمرار عليه في تربية النفس وتزكيتها وتطهيرها وتكفير خطاياها.

٣٢٢٢. فيها: هذه التوبة ليست من إثم القتل الخطأ، لأن الإثم مرفوع عن المخطئ كما في الحديث الشريف: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه". وإنما التوبة هنا من

التقصير وقلة التثبت والتحقق، ولكي يكون المسلم بعد ذلك متذكراً فلا يقع منه في المستقبل ما وقع منه في الماضي، ولهذا قال الإمام الزيلعي: «وهذا النوع من القتل أي القتل الخطأ- لا يأثم إثم القتل، وإنما يأثم إثم ترك التحرز والمبالغة في التثبت، لأن الأفعال المباحة لا تجوز مباشرتها إلا بشرط ألا تؤذى أحداً. فإذا آذى أحداً فقد تحقق ترك الحرز».

٣٢٢٣. تفيد وجوب التزام الشرع في كل شيء فقد بيّن الله تعالى كيفية التوبة من قتل الخطأ، وبين الكفارة وغيرها، فعلى العباد الاتباع وترك الابتداع.

٣٢٢٤. فيها الإشارة إلى تقسيم المعاصي إلى كبائر وصغائر. والإشارة إلى تفاوت أحكامها.

٣٢٢٥. فيها: يتعرض الإنسان القاتل بالخطأ لتأنيب الضمير نظراً لعدم توفر دافعية القتل التي تدفع للقتل العمد. ولذلك يصاب القاتلون بالخطأ باضطرابات ما بعد الصدمة التي تترك آثاراً سالبة على سلوكهم وحياتهم. ولذلك فإن للكفارة دور كبير في تخفيف الألم النفسي واضطراب ما بعد الصدمة. ولعل تنوع الكفارة يناسب حالات القاتلين وما يصيبهم من الصدمات النفسية وهذا من علم الله ﷻ بالناس وحكمته سبحانه في إصلاحهم. والله أعلم.

٣٢٢٦. فيها: إثبات صفتي العلم والحكمة، واسمي العليم والحكيم له ﷻ..

٣٢٢٧. تفيد توجيه العباد إلى التوسل بهذه الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

٣٢٢٨. تفيد أن كل ما شرعه الله تعالى هو بعلمه وحكمته.

٣٢٢٩. فيها: جمال الختم بقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ إشارة إلى كمال علمه سبحانه بنفوس عباده وما يزكيها، وكمال حكمته فيما شرع لهم من الأحكام التي تصب في مصلحتهم ومنفعتهم؛ لتتحقق لهم سعادة الدارين..

٣٢٣٠. فيها: بهذه الأحكام الحكيمة تربى النفوس على الاحتراس والاحتياط وأخذ الحذر، وتصان الدماء عن أن تذهب هدراً، وتعوض أسرة القتيل عن فقيدها بما يخفف آلامها، ويجبر

خاطرها، وتعوض الجماعة الإسلامية بتحرير رقبة مؤمنة تعمل لصالح الجماعة بحرية وانطلاق بعد أن كانت تعمل لخدمة سيدها فحسب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

٣٢٣١. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق ذكر حكم قتل الخطأ، جاء في هذه الآية ذكر حكم قتل العمد.

٣٢٣٢. تفيد الآية بدلالة السياق أن القتل لا يخرج عن حالتي العمد والخطأ، وهو قول الجمهور، ومن الفقهاء من أضاف شبه العمد.

٣٢٣٣. تفيد دقة القرآن في بيان أحكامه وتشريعاته، فذكر في الآية السابقة حكم القتل الخطأ، وفصَّل في كفاراته بما لا تخرج عنه حالة، فذكر ثَلاثَ كَفّاراتٍ: كَفّارَةُ قَتْلِ المسْلِمِ في دارِ الإسْلامِ، وكَفّارَةُ قَتْلِ المسْلِمِ عِنْدَ سُكُونِهِ مَعَ أهْلِ الحَرْبِ، وكَفّارَةُ قَتْلِ المسْلِمِ عِنْدَ سُكُونِهِ مَعَ أهْلِ الذِّمَّةِ وأهْلِ العَهْدِ، ثُمَّ ذَكَرَ عَقِيبَهُ حُكْمَ قَتْلِ العَمْدِ مَقْرُونًا بِالوَعِيدِ الذي ينفر ويحذر منه بما يعالج كل حالات القتل والمقتول.

٣٢٣٤. تفيد أن أفضل طريقة لفهم القرآن أن يفهم بالقرآن وأن تحمل آيات الموضوع الواحد على بعضها ثم تفسر، فلما تكلم في سورة البقرة عن حكم القاتل عمداً، تكلم هنا عن حكمه في الآخرة. قال الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم – رحمه الله تعالى- في "المدارج" – بعدما ذكر بعض التأويلات وانتقدها: وقالت فِرقَة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه. وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة،

وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين".

٣٢٣٥. فيها تعظيم دم المؤمن، والوعيد الشديد لمن قتله بغير حق بخمس عقوبات مما يدل على أنه من أكبر الكبائر.

٣٢٣٦. فيها الوعيد الشديد لمن يقتل مؤمناً متعمداً بغير حق.

٣٢٣٧. تفيد أثر التعمد في تغليظ الذنوب.

٣٢٣٨. في الآية تغليظ عقوبة القاتل عمداً فجمع الله ﷻ له فيها بين كون جهنم جزاءً له خالداً فيها، وبين غضب الله ولعنته له وإعداده له عذاباً عظيماً.

٣٢٣٩. تفيد الآية أن تكثير العقوبات على الجرم الواحد يدل على شدة شناعته وحرمته.

٣٢٤٠. تفيد تعظيم حرمة دم المسلم. وما أحوجنا لهدايات هذه الآية وقد كثر سفك الدماء في بلاد المسلمين لأتفه الأسباب مع هذا الوعيد الشديد الذي يخلع القلوب في النفس الواحدة فكيف بقتل العشرات والمئات والألوف، وقد قال رسول الله ﷺ: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم". وقال: "لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما". رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله. وقال النبي ﷺ: "كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً ". وقال: "من قتل مؤمناً فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ". وقال: "لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً فإذا أصاب دماً حراماً بلح". [الأحاديث الثلاثة رواها أبو داود وصححها الألباني وغيره].

٣٢٤١. فيها: ورود﴿يَقۡتُلۡ﴾ بصيغة المضارع إشارة إلى دوام العزم على القتل.

٣٢٤٢. تفيد الآية أن من مات ولَم يتب من ذنبه [قتل النفس المحرمة بغير حق] يستحق ذلك العذاب الذي توعده الله به لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرارية.

٣٢٤٣. تفيد أن القاتل ليس كافراً؛ وفي ذلك رد على الخوارج، والدليل أن الله ذكر في الآية التي قبلها﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ فالكلام عن المؤمنين فبيَّن حالة القتل بالخطأ ثم ذكر القتل العمد ولَم ينف صفة الإيمان عنهم ولكن ذكر من الوعيد الشديد لكفِّ المؤمنين عن هذا الذنب العظيم، ويعضد هذا القول بعدم كفر القاتل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] فلم ينف الأخوة الإيمانية عن القاتل.

٣٢٤٤. تفيد تعظيم الإسلام لحرمة الدماء المعصومة [المسلم والمعاهد والذمي والمستأمن] فلا يحق إزهاق النفس بالظن.

٣٢٤٥. فيها: قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾ مفهومه الأجر العظيم لمن يحيي نفس المؤمن، ويساعد عليه، قال الله: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ففيها: عناية الإسلام بالوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، وهذا كثير في نصوص الوحيين؛ لأن النفس لا تستقيم على الجادة إلا بهذا؛ ولذلك ينبغي على من يوجِّه ويربِّي أن يعتني بهذا، فيشدد في الوعيد على المخالفة العظيمة، ونحو ذلك. وأعظم ما يحذر منه مخالفة الله ورسوله، وأعظم ما يرغب فيه طاعة الله ورسوله.

٣٢٤٦. فيها أن القاتل المتعمد بعيد كل البعد عن قراءة القرآن، وتدبر كتاب الله وهديه، ولو قرأ مافي هذه الآية من تحذير وعقاب لما أقدم على فعلته الشنيعة الفظيعة.

٣٢٤٧. فيها: إشارة إلى بيان: قبح الشرك بالله، وعظم إثمه وجرمه. ووجهه: أنه – تعالى ذكره –: توعد كل هذا الوعيد على قتل نفس مؤمنة، والقتل دون الشرك، فما ظنك بالذي أشرك مع الله؟.

٣٢٤٨. تفيد أن من يقتل غير المؤمن عمداً حكمه مختلف في الدنيا والآخرة.

٣٢٤٩. تفيد التخويف من النار؛ من تسميتها جهنم، ويتضمن ذلك التحذير من الذنوب التي تورد الإنسان النار وبئس القرار.

٣٢٥٠. تفيد إثبات صفة الغضب لله تعالى التي تستلزم من العبد أن يجتنب ما يغضب الله تعالى.

٣٢٥١. فيها رد على المفوضة الذين يفوضون معاني صفات الله ﷻ، وذلك لأن الله ﷻ خوَّف القاتل بغضبه، ولو كان الغضب لا يعرف معناه -كما يزعم المفوضة- لما صح التخويف به.

٣٢٥٢. تفيد التحذير والتخويف من الذنوب التي توجب غضب الرب ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

٣٢٥٣. تفيد التحذير والتخويف من الذنوب التي توجب اللعن- وهو: الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى الواسعة -، قال تعالى: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢].

٣٢٥٤. تفيد أن غضب الله ﷻ على العبد ولعنته من أعظم العقوبات. وعدم استثناء التوبة، وذكر التائب في الآية يشعر بمزيد من الزجر. فلم يقل - مثلا -: "إلا من تاب"، مع أن التوبة تصح من قاتل النفس المؤمنة عمداً؛ بشروط معروفة؛ لأن هذا حق محض لآدمي، وحقوق الآدميين مبنية على المشاحة والمطالبة، بخلاف حق الله المبني على التسامح والعفو.

٣٢٥٥. فيها: أن النار مخلوقة وموجودة الآن فهي معدة لأهلها.

٣٢٥٦. تفيد التخويف من عذاب الله ﷻ؛ فهو عذاب عظيم لا طاقة لإنسان به قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥ – ٢٦].

٣٢٥٧. فيها تأكيد على وجود ألوان من العذاب تنتظر المسيئين، كل بحسب جرمه.. كما أن الجنة فيها ألوان من النعيم تنتظر المحسنين، كل بحسب اجتهاده..

٣٢٥٨. تهدي الآية الكريمة إلى وجوب احترام المؤمن، وإكرامه، وترك مضايقته، والإضرار به وأذيته؛ فهذا الخطاب الشديد المترادف التشديد فيمن أفقد المؤمن حياته يتحمل أمراً أكيداً

بعدم إفقاده طيب حياته. ولربما وصل الإضرار إلى حدود قريبة من القتل، ولربما تمنى الإنسان الموت على بقاء الضرر لشدة ما يعانيه منه. والله أعلم

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٩٤].

٣٢٥٩. في مناسبة الآية لما قبلها: فلما سبق التشنيع على قتل النفس المؤمنة سواء أكان عن طريق الخطأ أو العمد، جاء في هذه الآية تحذير المؤمنين عند خروجهم للقتال في سبيل الله من القتل إلا بعد التثبت حال الاشتباه، حتى لا يعملوا سيوفهم في رقاب المؤمنين.

٣٢٦٠. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما قبلها؛ وهو أنَّهُ تَعالى لَمّا ذَكَرَ جَزاءَ مَن قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا، وأنَّ لَهُ جَهَنَّمَ، وذَكَرَ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ، ولَعْنَتَهُ، وإعْدادَ العَذابِ العَظِيمِ لَهُ؛ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بِالتَّثَبُّتِ والتَّبَيُّنِ، وأنْ لا يُقْدِمَ الإنْسانُ عَلى قَتْلِ مَن أظْهَرَ الإيمانَ، وأنْ لا يَسْفِكُوا دَمًا حَرامًا بِتَأْوِيلٍ ضَعِيفٍ، وكَرَّرَ ذَلِكَ آخِرَ الآيَةِ تَأْكِيدًا أنْ لا يُقَدَّمَ عِنْدَ الشُّبَهِ والإشْكالِ حَتّى يَتَّضِحَ لَهُ ما يُقْدِمُ عَلَيْهِ.

٣٢٦١. فيها مع ماقبلها لفتة لطيفة.. وبيانه: أن من جاء مسالماً وألقى السلام أو شهادة التوحيد نعامله على ظاهره، ولانبحث عن نيته وإن كانت الأمارات تورث الشك. وفي المقابل ﴿ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ ﴾ ولاشك أن الاطلاع على ما في الصدور غير ممكن لنا، ولا يمكن الشق عن القلب، ومع ذلك أعمله في ترك قتاله ولم يؤخذ بظاهره من كونه مصطفّاً مع أعداء الله لقتال المسلمين؛ ولذا روي: [فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة] ولا يصح مرفوعا، وإنما صح موقوفاً على عمر بنحوه، قال الإمام الترمذي: وقد روي نحو هذا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ذلك. اهـ. قال ابن حجر: وَرَوَاهُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمٍ فِي كِتَابِ الْإِيصَالِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَفِي ابْنِ أَبِي شَـيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، عَنْ عُمَرَ: لَأَنْ أُخْطِئَ فِي الْحُدُودِ بِالشُّـبُهَاتِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقِيمَهَا بِالشُّبُهَاتِ ". اهـ.

٣٢٦٢. فيها: مخاطبتهم بـــــ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تلوّح إلى أنّ الباعث على قتل من أظهر الإسلام منهي عنه، ولو كان قصْد القاتل الحرصَ على تحقّق أنّ وصف الإيمان ثابت للمقتول، فإنّ هذا التحقّق غيرُ مراد للشريعة، وقد ناطت صفة الإسلام بقول: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» أو بتحية الإسلام وهي «السلام عليكم». [ابن عاشور].

٣٢٦٣. فيها: إيثار نداء المسلمين بالمؤمنين؛ لأن الإيمان يؤثر على الجوارح، ويلجمها عن الوقوع في الموبقات، التي من جملتها "القتل".

٣٢٦٤. فيها: صيغة الخطاب الجمعي في الآية تفيد بأن العمليات الجهادية والقتال ليست تقديرات شخصية ولا قرارات فردية.

٣٢٦٥. في الآية تأكيد على فضل النفور والجهاد في سبيل الله ﷻ.

٣٢٦٦. فيها: قوله: ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني إذا سافرتم للجهاد في سبيل الله. فيه: إشارة إلى: الفتوحات الإسلامية ليست للدنيا، وقطع المسافات من أجل ذلك؛ لأن الضرب هنا سفر؛ فتفيد أن الاصل في السفر والضرب في الأرض عند المسلم هو الجهاد في سبيل الله وتحقيق طاعة الله؛ ولذا جاء "الضرب في الارض" مقروناً به "في سبيل الله" في مواضع كثيرة في القرآن.. وكذا عند إيراد القصر في الصلاة، وبعدها آيات صلاة الخوف؛ ولذا ذهب من ذهب إلى قصر رُخَص السفر على سفر الطاعة أو المباح فقط؛ وفي هذا بيان لعلو همة المسلمين، وجديتهم، وعدم تضييع أوقاتهم وأموالهم فيما لا فائدة منه.

٣٢٦٧. تفيد مزيد تحذير مِن قَتْلِ المؤْمِنِ بِذِكْرِ أحْوالٍ قَدْ يُتَساهَلُ فِيها وتَعْرِضُ فِيها شُبَهٌ، فقد روى البُخاريُّ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: كانَ رَجُلٌ في غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ المسْـلِمُونَ، فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكم، فَقَتَلُوهُ وأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ في ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةَ.

٣٢٦٨. تفيد معاملة الناس بظواهرهم، وإيكال سرائرهم لله تعالى.

٣٢٦٩. تفيد أن المعتبر في أحكام الدنيا: الظواهر قال ﷺ: "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا..". بينما المعتبر في أحكام الآخرة بالحقائق قال ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ". رواه مسلم. و" إنما الأعمال بالنيات ".

٣٢٧٠. تفيد أن الأصل في الداعية الرحمة بالمدعوين لا الانتقام والتشفي.

٣٢٧١. فيها: عندما تسوّلِ لك نفسك عمل السوء بالآخرين ضع نفسك مكانهم وانظر كيف تحب أن تُعامل.

٣٢٧٢. الآية الكريمة أصل في "التبيُّن والتحقق من دقة تحديد الهدف في الجهاد في سبيل الله وكونه مباح الدم والمال". فلو كان السياق العام وقرائن الأحوال تدل على أن الهدف مباح النفس والمال إلا أنه أظهر شيئاً يمكن أن يدل على أنه معصوم الدم والمال؛ لوجب التبين والتوقف عن استهدافه حتى نتحقق من مشروعية استهدافه. مما يشير إلى الانحراف الشديد لدى الجماعات المتهورة في استباحة الدماء والأموال ممن يدعي اسم الجهاد في واقعنا المعاصر. كما أن هذا التبين يبرز حقيقة الرحمة التي جاء بها الإسلام للعالمين، حيث حاصر نسبة الخطأ في التطبيق وألجأها إلى أدنى النسب بفضل هذه الشريعة السمحة؛ "التبين من دقة الاستهداف في الجهاد في سبيل الله".

٣٢٧٣. فيها: تكرار ذكر التبين والتثبت، في قوله: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ وفي قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يفيد: أهمية الحيطة، والحذر في الوقوع في الدماء، سيما وقد جاء الوعيد الشديد في قتل المؤمن في الآية التي قبلها. قال القرطبي في تفسيره: والتبين: التثبت، في القتل واجب حضراً وسفراً ولا خلاف فيه، وإنما خصَّ السفر بالذكر لأن الحادثة التي فيها نزلت الآية وقعت في السفر.

٣٢٧٤. فيها أن التبين مطلب شرعي في كل الأحوال حتى في حال القتال مع الأعداء.

٣٢٧٥. فيها: ذم العجلة، وأهمية التثبت، والتبين، والتريث، والتحري قبل صدور الأحكام؛ في الأمر عامة، وما يتعلق بدماء الناس، وأعراضهم خاصة.

٣٢٧٦. فيها: قوله: ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ يشير إلى نزاهة وجمال هذا الدين؛ لما اشتمل عليه من توجيهات عند القتال.

٣٢٧٧. فيها توجيه للقائد المسلم ألَّا يكون سطحياً وعفوياً، بل عليه أن يهتم بالتحري والدقة، وتزداد الحاجة إلى ذلك لدى القائد في الحرب..

٣٢٧٨. تفيد كلمة ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أهمية البحث الدقيق عن خصائص المجتمعات، والتمييز بين الأفراد والجماعات في المجتمعات المناوئة للمجتمع المسلم، مما يدل على أهمية العلوم الاستخبارية.

٣٢٧٩. فيها إشارة إلى ضرورة تحلِّي القائد المسلم في الحرب بالذكاء والفطنة، دلالته قوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فيدقق في حال من ألقى إليه السلام، ولا يتعجل في الحكم عليه، فإن نجاة الكافر خير من قتل مؤمن بغير حق.

٣٢٨٠. تفيد أن المجاهدين جهاد الطلب يجب أن يتبينوا حال المقاتَلين وتقديم الدعوة لهم قبل البدء في قتالهم.

٣٢٨١. تفيد أنه ينبغي للمؤمنين أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي. [السعدي].

٣٢٨٢. فيها باب عظيم من الفقه وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر لا على القطع واطلاع السرائر. [القرطبي].

٣٢٨٣. فيها إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له، أن يُذَكِّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدَّم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله تعالى.

٣٢٨٤. فيها: أن من أتى شعيرة من شعائر الإسلام، يحكم بإسلامه، وأنه معصوم الدم. وعليه: ففيها رد على الخوارج، الذين يرون الناس صباح مساء يأتون شعائر الإسلام، ولا يأبون إلا تكفيرهم.

٣٢٨٥. فيها التحذير من اتهام أعمال المسلمين أو معتقداتهم بعدم الاسلام أو بالنفاق أو بالرياء.

٣٢٨٦. فيها فضل السلام، وأنه تحية الإسلام، وشعار الإخاء ولذلك أمر بإفشائه ورده.

٣٢٨٧. فيها: بيان فضل إفشاء السلام، وأنه عصمة من المهالك.

٣٢٨٨. تفيد أن وصف الإسلام يثبت بِقَوْلِ: لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ بِتَحِيَّةِ الإِسْلامِ وهي السَّلامُ عَلَيْكم.

٣٢٨٩. فيها: إشعار بمكانة المؤمن، وكرامته على ربه.

٣٢٩٠. فيها: أن امتثال أمر الله سبب في الفتوحات والنصر؛ لقوله:﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بهذه المخالفة، لتحصلوا على شيء حقير مع هذا المقتول؛ ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ إن امتثلتم أمره؛ أمكنكم من هذه الغنائم.

٣٢٩١. تفيد: أن الميل إلى الدنيا وإيثارها على الآخرة، يحمل على المخالفة؛ ولذا جاءت نصوص كثيرة تحث على الزهد فيها.

٣٢٩٢. تفيد حقارة الدنيا وقلّتها؛ من تسميتها [الدنيا].

٣٢٩٣. تفيد التزهيد في عرض الحياة الدنيا وهو: جميع متاعها وأموالها. وسمي متاع الدنيا عرضاً، لأنه مهما كثر فهو زائل غير دائم، وعارض غير باق.

٣٢٩٤. فيها: أن من ترك شيئا لله أبدله الله خيراً منه. لقوله:﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ﴾.

٣٢٩٥. فيها: بيان غنى الله ﷻ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ﴾ وعليه: فينبغي على العبد أن يسأل ربه من فضله عامة؛ قال تعالى:﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢] وفي الحديث: "وأغنني بفضلك عمن سواك". وعند مسلم: "وأغننا من الفقر".

٣٢٩٦. فيها معجزة ظاهرة؛ فقد غنم المسلمون بعد ذلك غنائم كثيرة، حتى أنفقت كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ﷻ، وكانت الغنائم توضع في المسجد النبوي كتلال من الرمل من كثرة الأموال؛ قال تعالى:﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

٣٢٩٧. فيها: أن من حسن توكله على الله، ووثق في وعده؛ لن يتهافت على الدنيا. لقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ﴾؛ قال القرطبي في تفسيره: عدة من الله تعالى بما يأتي به على وجهه ومن حله دون ارتكاب محظور، أي فلا تتهافتوا.

٣٢٩٨. فيها أن الجهاد الإسلامي لا يراد به إلا إعلاء كلمة الله في الدنيا، وما عند الله في الآخرة فقط؛ ولذا جاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سُئل رسولُ اللهِ ﷺ: عن الرجلِ يقاتل شجاعةً، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: " من قاتَل لتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيل اللهِ". متفق عليه. ومتى دخلت الدنيا فيه أفسدته، وفي سورة الأنفال قال تعالى:﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٩].

٣٢٩٩. فيها حث المجاهدين على الإخلاص، وتحذيرهم من ابتغاء الدنيا بالجهاد.

٣٣٠٠. فيها ذم من يريد الدنيا بعمل الآخرة.

٣٣٠١. فيها -إضافة إلى ما سبق في الآيات السابقة والإشارة الى هداياتها- تأكيد الإسلام لكرامة الانسان، والاحتياط في الدماء، ولا تهدر بمجرد المظنة والشبهة الدينية أو الشهوة الدنيوية.

٣٣٠٢. فيها: أهمية ضبط الاندفاع نحو المحمود في نصرة الدين من خلال الجهاد في سبيل الله حتى لا يقع المؤمن في جريمة سفك الدماء بغير حق ولو كانت كافرة... وإذا كان هذا التوجيه الرباني للمؤمنين فيما يتعلق بالكافرين فكيف يكون التحوُّط والحذر في شأن المؤمنين دماءً وأعراضاً؟!

٣٣٠٣. فيها توجيه وترغيب لمراقبة الله في سائر الأحوال، والترغيب فيها أشد في المواطن التي يغلب عليها الانتصار للذات ولحظ النفس..

٣٣٠٤. فيها: تذكير للعبد بأن ما فيه من خير واستقامة هو بفضل الله وحده. وأنه لو شاء لجعله مثل فلان من أهل الكفر، أو البدعة؛ فعلى العبد أن يخفض جناحه للمؤمنين، ويسعى في هداية الضالين، ولا يعجب بعمله، ويتذكر فضل مولاه عليه، وليكن على وجل من الله ﷻ. وكأن الله ﷻ يقول: كذلك كنت من الضالين، الجاهلين، فمننت عليك، فاحذر من المخالفة؛ أن أعيدك إلى الضلالة. قال ابن عاشور -رحمه الله- في التحرير والتنوير: وزاد في التوبيخ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي كنتم كفّاراً فدخلتم الإسلام بكلمة الإسلام، فلو أنّ أحداً أبى أن يصدّقكم في إسلامكم أكان يُرضيكم ذلك. وهذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحْوالاً كان هو عليها تساوي أحوال مَن يؤاخذه، كمؤاخذة المعلّم التلميذ بسوء إذا لم يقصّر في إعمال جهده. وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم وتطلّب عثراتهم، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظّفين في معاملة من لنظرهم من صغار الموظّفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد أو على الضجر من الآلام.

٣٣٠٥. تفيد أن نظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلم تعوذاً من القتل وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب. [السعدي].

٣٣٠٦. دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية؛ وهي بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم المتهم غيره فللغير أن يتهم من اتهمه. وبذلك ترفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تطل الصادق والمنافق. وانظر معاملة النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين. على أن هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة. إذ لا يلبثون أن يألفوه وتخالط بشاشته قلوبهم. فهم يقتحمون على شك وتردد فيصير إيماناً راسخاً. ومما يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين؛ ومن أجل ذلك أعاد الله الأمر فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ تأكيدا لقوله فَتَبَيَّنُوا المذكور قبله.

٣٣٠٧. فيها أن الهداية للإسلام محض تفضل من الله تعالى وامتنان؛ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٣٣٠٨. فيها: أنه ينبغي على العبد أن يجتهد في دعوة غيره الى الإسلام، وإلى الخير؛ لأن الذي منَّ عليك يمنُّ على من شاء من خلقه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وكما حصلت لكم الهداية بعد الضلالة، فإنها تحصل لغيركم. ولذا نوصي من يدعو الناس إلى الله، أن يدعو لهم بظهر الغيب أن يمُنَّ الله عليهم، ويشرح صدورهم للعمل بما أمر الله به.

٣٣٠٩. تفيد أن المسلم ينظر إلى المخالف بمنظارين: بعين الشرع في بيان بعده وقربه من الحق. وبعين القدر في رحمته وإشفاقه عليه مما هو فيه من المخالفة ويسعى لإنقاذه من تعريض نفسه للعقوبة متذكراً قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ فيحمد الله أن أنقذه مما كان فيه وعافاه مستشعراً منة الله عليه. فلا يزدري صاحب المعصية ولا يتكبر ولكن يشفق ويرحم. ويقول: [الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه الله به]؛ فأهل السنة [أعلم الخلق بالحق وأرحم الخلق بالخلق].

٣٣١٠. تهدي الآية الكريمة إلى وجوب رحمة من لم يهتد بعد من البشر، وأنها رحمة عدل وإنصاف، حيث خاطبت هذه الآية قوماً كانوا كفاراً فآمنوا وهم الصحب الكرام بـ ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾. وتهدي من باب أولى إلى رحمة المبتدعة والعصاة من أهل القبلة؛ رحمة يرونها من أهل الحق فيعرفونها لهم دون غيرهم.

٣٣١١. فيها: عدم القنوط من دخول الأعداء في الإسلام.

٣٣١٢. فيها رد على القدرية، فإن الله تعالى أخبر أنه منّ على المؤمنين من بين جميع الخلق بأن خصهم بالتوفيق، والقدرية تقول: خلقهم كلهم للإيمان. ولو كان كما زعموا لما كان لاختصاص المؤمنين بالمنة من بين الخلق معنى. [القرطبي].

٣٣١٣. في مناسبة ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ تحذير للفريقين، للمؤمنين الغزاة، ولمن يتلفظ بالسلام. وكأنه يقول: يا أيها المجاهدون، إياكم أن تخالفوا فإني خبير بأعمالكم وأجازيكم عليها. ويا أيها المتلفظ بالسلام، إذا أظهرت ما يدل على دينك وإيمانك بالله، فليكن عن يقين وإيمان، لا لمجرد اتقاء السيف فتقع في النفاق الذي به تخلد في درك الجحيم.

٣٣١٤. فيها: أن الله ﷻ هو وحده يعلم ظواهر الأمور وبواطنها فكل شيء بأمره وعلمه، وهذا ما ختمت به الآية؛ تنبيه وتهديد لكل من يعمل عملاً يغضب الله؛ فالله لا تخفى عليه خافية.

٣٣١٥. تفيد إثبات صفة الخبرة لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته وهو اللطيف الخبير.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥].

٣٣١٦. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق التحفيز للقتال في سبيل الله، والترغيب فيه، والتعجيب ممن عرف قدره وأجره فقعد عنه وأبطأ فيه، جاءت هذه الآية تطمئن من لا يستطيع القتال، وقعد به العذر عن أن ينفر في سبيل الله..

٣٣١٧. ومن المناسبات: أنه تعالى ذكره لما عاتبهم على ما صدر منهم من قتل للذي بادرهم بالسلام، حثَّهم على الجهاد في سبيله، وبين لهم فضله؛ وذلك مخافة أن يحملهم العتاب واللوم السابق على التباطؤ، وعدم الإسراع في قتال الكافرين.

٣٣١٨. فيها الدلالة على ثقل القرآن ثقلاً حسياً ومعنوياً؛ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] ؛ وعند هذه الآية ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ قَالَ زيد بن ثَابت ﵁: "كَانَ النَّبِي ﷺ يملي على هَذِه الْآيَة، وَفَخذه على فَخذي، فَدخل عبد الله بن أم مَكْتُوم، وَقَالَ يَا رَسُول الله، أَنا رجل ضَرِير، وَلَو اسْتَطَعْت أَن أقَاتل لقاتلت مَعَك؛ فتغشى رَسُول الله الْوَحْي؛ فثقل فَخذه على فَخذي حَتَّى كَاد يرضه؛ فَلَمَّا سرى عَنهُ، قَالَ لي: اكْتُبْ ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ ".

٣٣١٩. فيها تحفيز للهمم إلى المبادرة في طاعة الله ﷻ، وتحمل المشاق في سبيل ذلك..

٣٣٢٠. فيها التَّرغيبُ في الجِهاد، والحثُّ عليه.

٣٣٢١. فيها فَضْلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى بالمالِ والنَّفس؛ ووجهُه: أنَّهم أعْلى درجةً من القاعدين الَّذين لا يُجاهدون ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾. فهذا التَّوكيدُ، وهذه الوُعود، وهذا التَّمجيدُ للمجاهدين والتَّفضيل على القاعدين، والتَّلويحُ بكلِّ ما تَهفو له نفسُ المؤمِن من درجاتِ الأجرِ العظيم، ومِن مَغفرةِ اللهِ ورحمتِه للذُّنوبِ والتَّقصير، هذا كلُّه يشي بحَقيقةٍ مُهمَّةٍ، وهي: قيمة

الجِهاد بالأموال والأنفُس في ميزانِ الله سُبحانَه، واعتبارات هذا الدِّين، وأصالةِ هذا العنصرِ في طبيعةِ هذه العقيدةِ وهذا النِّظامِ؛ لِمَا يَعلَمُه اللهُ سبحانه من طَبيعةِ الطَّريق، وطبيعةِ البَشَر، وطبيعةِ المعسكرات الْمُعادِيَة للإسلامِ في كلِّ حينٍ.

٣٣٢٢. فيها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ فيه نفْي التَّساوي بين النَّاس، والعَجَبُ أنَّنا نسمع مَن يُدندِنُ كثيرًا فيقول: إنَّ دين الإسلام دين المساواة، وهذا غلط على دين الإسلام، فدين الإسلام ليس دينَ المساواةِ، ولكنَّه دينُ العدلِ، والعدلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ ولذلك تجد أكثرَ ما في القرآنِ نفيَ المساواة، وليس إثباتها.

٣٣٢٣. فيها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ فيه حِكمةُ الشَّريعةِ؛ حيث لا تُسَاوِي بين المفترقَيْنِ كما أنَّها لا تُفرِّق بين المتساويَين؛ فالشَّريعة الإسلامية من لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ، فلا يمكن أنْ تجدَ فيها حُكمَينِ متناقضينِ، ولا يمكن أنْ تجد فيها شيئينِ متساويينِ ثمَّ يختلفانِ في الحكم أبدًا، بل إذا تراءى لك أنَّ هذين الشيئين متساويانِ، وقد اختلفا في الحكم شرعًا، فأَعِدِ النَّظَرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ لك، فإنْ لم يتبينْ لك فاتَّهِمْ فَهْمَك، ولا تَتَّهِمِ الأحكامَ الشَّرعيَّة.

٣٣٢٤. تفيد أن تمايز المؤمنين، وتفاوتهم في الدرجات؛ بقدر قيامهم بالتكاليف الشرعية، ومسارعتهم في طاعة مولاهم..

٣٣٢٥. فيها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ نفيُ التساوي يُفيدُ التَّذكيرَ بما بينهما مِن التفاوُتِ العَظيم، والبَوْنِ البَعيد؛ ليَأنفَ القاعدُ ويترفَّعَ بنَفْسِه عن انحطاطِ منزلتِه، فيهتزَّ للجِهاد، ويَرغَبَ فيه وفي ارتفاعِ طبقتِه كذلك فهذا النفي للتساوي يقتضي العموم، فالقاعدون والمجاهدون لا يستوون مِن كلِّ وجهٍ.

٣٣٢٦. فيها تكريم للمجاهد، وبيان فضله على غيره من المؤمنين؛ ممن لا عذر لهم بالقعود عن الجهاد.

٣٣٢٧. تمسك بعض العلماء بهذه الآية بأن أهل الديوان أعظم أجراً من أهل التطوع؛ لأن أهل الديوان لما كانوا متملكين بالعطاء، ويصرفون في الشدائد، وتروعهم البعوث والأوامر، كانوا أعظم من المتطوع. قال ابن محيريز: أصحاب العطاء أفضل من المتطوعة لما يروعون. قال مكحول: روعات البعوث تنفي روعات القيامة.

٣٣٢٨. تفيد الترغيب في الإخلاص لله ﷻ في الجهاد؛ بأن يكون لإعلاء كلمة الله تعالى.

٣٣٢٩. فيها أسلوب التربية بالقدوة؛ من خلال بيان فضل المجاهدين والحث على الاقتداء بهم.

٣٣٣٠. تفيد أنَّ مَن قعَد عن الجِهاد لضَرَرٍ، فإنَّه كالذي أتى بالجهاد؛ فأولو الضَّررِ مُساوُون للمجاهدين. قال ابن عاشور: كيلا يحسِبَ أصحاب الضرر أنهم مقصودون بالتحريض فيَخرجوا مع المسلمين، فيكلفّوهم مؤونة نقلهم وحفظهم بلا جدوى، أو يظنّوا أنّهم مقصودون بالتعريض فتنكسر لذلك نفوسهم، زيادة على انكسارها بعجزهم، ولأنّ في استثنائهم إنصافاً لهم وعذراً بأنّهم لو كانوا قادرين لما قعدوا، فذلك الظنّ بالمؤمن، ولو كان المقصود صريحَ المعنى لما كان للاستثناء موقع. فاحفظوا هذا فالاستثناء مقصود، وله موقع من البلاغة لا يضاع، ولو لم يذكر الاستثناء لكان تجاوز التعريض أصحاب الضرر معلوماً في سياق الكلام فالاستثناء عدول عن الاعتماد على القرينة إلى التصريح باللفظ.

٣٣٣١. فيها يسر الشريعة وسماحتها ففي الآية ثبوت الأجر للقاعدين من أولي الضرر بسبب نياتهم... وعند البخاري من حديث أنس ﷺ: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: "إن أقواماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر".

٣٣٣٢. في الآية أن المعذور قد يبلغ منزلة الذي عمل إن كانت نيته العمل مثل القادر وهذه من فوائد الاستثناء؛﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾. وقد قال رسول الله ﷺ: "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه".

٣٣٣٣. تفيد أن الله تعالى يثيب على النية الصادقة ما لا يثيب على الفعل.

٣٣٣٤. تفيد أن صاحب العذر مخفف عنه في الشرع وله الأجر كاملاً بصدق نيته ونصحه لله ﷻ ولرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وفصل الخطاب في الآية أن [أولي الضرر] نوعان: نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما أقعدهم العذر، فهم كما قال النبي ﷺ: "إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر". وهم أيضاً كما قال في حديث أبي كبشة الانماري: "هما في الأجر سواء"، وكما في حديث أبي موسى: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً"، فأثبت له مثل ذلك العمل؛ لأن عزمه تام وإنما منعه العذر. [والنوع الثاني]: من أولي الضرر الذين ليس لهم عزم على الخروج، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزماً جازماً على الخروج وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين في نفي الاستواء. فإذا فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها، ولو جعل قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ عاماً في أهل الضرر وغيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ فإن قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ إنما فيها نفي الاستواء؛ فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ ولزم أن لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولي الضرر، وهذا خلاف مقصود الآية. وأيضاً فالقاعدون إذا كانوا من غير أولي الضرر، والجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم؛ فإنه لا حرج عليهم في القعود: بل موعودون بالحسنى كأولي الضرر وهذا مثل قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ فالوعد بالحسنى شامل لأولي الضرر وغيرهم. مجموع الفتاوى [١٤/١٢٣- ١٢٤].

٣٣٣٥. فيها أهمية الجهاد بالمال حيث قدَّمه على الجهاد بالأنفس.

٣٣٣٦. فيها أن حاجة الجهاد إلى المال أكثر من حاجته إلى النفس لذا قدَّمه في الذكر وكلاهما مطلوب في الجهاد.

٣٣٣٧. فيها بيان أهمية المال عامة، وفي القتال في سبيل الله خاصة.

٣٣٣٨. فيها فضل الجمع في الجهاد بين الجهاد بالمال والنفس، ويبنى عليه أن المجاهدين بالأموال والأنفس أفضل من المجاهدين بالأموال فقط أو بالأنفس فقط.

٣٣٣٩. فيها أن الدعاة إلى الله تعالى يجب أن ينفروا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا ينتظروا المدعوين حتى يأتوهم، أو المحسنين حتى يمولوهم.

٣٣٤٠. فيها: قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ فرْضَ الجِهاد على الكِفايةِ، وليس على كلِّ واحدٍ بعينه؛ لأنَّه تعالى وَعَدَ القاعدين الحُسنى كما وعَد المجاهدينَ، ولو كان الجِهادُ واجبًا على التَّعيينِ لَمَا كان القاعدُ أهلًا لوعْدِ الله تعالى إيَّاه الحُسْنى.

٣٣٤١. فيها وعد الله الجنة لجميع المؤمنين سواء كانوا مجاهدين أو قاعدين، فتكريمه تعالى للمؤمنين عامة، فكلهم وعدهم الله الكريم بدار كرامته.

٣٣٤٢. تفيد الترغيب في الجنة وما يقرِّب إليها من قول أو عمل؛ من تسميتها [الحسنى] فلا دار أحسن منها، قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: "الحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم". رواه مسلم

٣٣٤٣. تفيد: أن من أسماء الجنة: الحسنى.

٣٣٤٤. فيها أن الله تعالى إذا فضَّل شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣] وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] أي: ممن لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فينبغي لمن بحث

في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة. وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصـــل له الكمال. كما إذا قيل: النصـــارى خير من المجوس فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها. [السعدي].

٣٣٤٥. تفيد عظم منة الله ﷻ على عباده حيث جعل إثابتهم على الأعمال مثل الأجرة التي استحقها الإنسان فرضاً على المستأجر لقوله:﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فسمَّاه ﴿أَجْرًا﴾ مع أن المنة لله تعالى أولاً وآخراً، فهو الذي وفقك للعمل، وهو الذي منّ عليك بالجزاء عليه. [ابن عثيمين].

٣٣٤٦. فيها: الدرجة وإن تقالَّها العادون فهي عند الله﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٣٤٧. فيها أن المفاضـلة واقعة بين القاعدين المؤمنين والمجاهدين المخلصيـن في جهادهم، فأما القاعدون بلا إيمان والمجاهدون بلا إخلاص فلا فضل فيهم.

٣٣٤٨. فيها دليل على تفاضل أهل الإيمان فيه بسبب تفاضلهم في الأعمال.

٣٣٤٩. فيها ملحظ تربوي وهو حسن الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صـرَّح بتفضـيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضـيله بالمغفرة والرحمة والدرجات وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضـــيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم – أحسن لفظا وأوقع في النفس.

٣٣٥٠. في الآية البيان والدعوة إلى أفضل الأعمال بأسلوب بيان الأجور وتفاوتها.

قال تعالى:﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٦].

٣٣٥١. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق ذكر تفضيل المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم، جاء في هذه الآية بيان المنازل العالية التي أعدَّها الله لعباده المجاهدين في سبيله.

٣٣٥٢. تفيد تفصيلا لما أكرم الله به المجاهدين بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ، فِي غُرَفِ الجِنَان الْعَالِيَاتِ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ، وَحُلُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

٣٣٥٣. في الآية مزيد تكريم للمجاهدين المخلصين..

٣٣٥٤. فيها تحفيز للأعمال الصالحة، والمنافسة لنيل الدرجات العالية والأجور العظيمة.. ودعوة إلى التسابق في الخيرات لإدراك أعلى الدرجات.

٣٣٥٥. فيها: نكرت الدرجات للإشعار بأنها درجات عظيمة لا يحدها الحصر، ولا يعيّنها المقدار، بل هي شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار.

٣٣٥٦. فيها: عِظَم دَرجاتِ المجاهدين في سَبيلِ الله، وجْهُ ذلك قولُه:﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ﴾ فأضافَها إلى نَفسِهِ، ومعلومٌ أنَّ العطاءَ يعظُم بعِظَم المعطِي.

٣٣٥٧. فيها بشارة لأهل العلم والدعوة؛ لأن الدعوة وطلب العلم من الجهاد: أما الدعوة ففي قوله تعالى:﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾[الفرقان:٥٢]. وأما العلم فقد جعل الخروج إليه قسيماً للخروج إلى القتال في سبيل الله كما في قوله:﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢] فطلب العلم وتعليمه من الجهاد بل هو أفضل الجهادين، قال ابن القيم: إنَّما جُعل طلب العلم في سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد. فقوام الدين بالعلم والجهاد. ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان. وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان. وهذا جهاد الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه. قال تعالى في سورة الفرقان، وهي سورة مكية: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥١ – ٥٢]. فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادَيْن. وهو جهاد المنافقين أيضاً، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين

بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم. ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: ٩]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجَّة والقرآن. قال: والمقصود أنَّ «سبيل الله» هي الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ ﵁: عليكم بطلب العلم، فإنَّ تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد... والمقصود أن كلاً من الجهاد بالسيف والحجَّة يسمَّى [سبيل الله] وفسر الصحابة ﵃ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[النساء:٥٩] بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله: هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم. فطلب العلم وتعلُّمه من أعظم سبيل الله ﷿. قال كعب الأحبار: طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله ﷿. وجاء عن بعض الصحابة ﵃: إذا جاء الموت طالبَ العلم، وهو على هذا الحال، مات وهو شهيد. وقال سفيان بن عُيينة: من طلب العلم فقد بايع الله ﷿. وقال أبو الدرداء ﵁: من رأى الغدوَّ والرواح إلى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه.

٣٣٥٨. تفيد أن الجنات والدرجات محض فضل الله ﷿ تفضل بها على عباده؛ لقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾.

٣٣٥٩. تفيد معنى الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله. بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ومنه تتفجر أنهار الجنة".

٣٣٦٠. فيها المنزلة العظيمة والرفعة الكبيرة للمجاهدين المخلصين لتكون كلمة الله هي العليا.

٣٣٦١. فيها تفاوت منازل المؤمنين بحسب أعمالهم في الدنيا مع أن جميع الدرجات يشملها كلها المغفرة والرحمة.

٣٣٦٢. تفيد فضل نيل المغفرة، وترشد إلى الحرص عليها: قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٣٣٦٣. تفيد أن الجهاد من أسباب الرحمة.

٣٣٦٤. تفيد الحرص على أســباب المغفرة، والرحمة، ورفعة الدرجات؛ ومن أعظمها الجهاد في سبيل الله.

٣٣٦٥. تفيد إثبات صفتي المغفرة والرحمة لله جل شأنه.

٣٣٦٦. تفيد أن الله ﷻ كان وما يزال متصفاً بصفات الكمال، ونعوت الجلال، والجمال.

٣٣٦٧. تفيد إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى وهما: الغفور والرحيم، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التوسل بها إلى الله ﷻ.

٣٣٦٨. فيها أن المجاهدين غير معصومين من الخطأ ولذلك وعدهم الله بالمغفرة.

٣٣٦٩. فيها كذلك أن الصحابة غير معصومين من الخطأ ولذلك وعدهم الله بالمغفرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

٣٣٧٠. تفيد مناسـبة ظاهرة لما قبلها؛ فلمّا بيّن حال القاعدين عن الجهاد في الآية السـابقة، بيّن هنا حال ومصير القاعدين عن الهجرة.

٣٣٧١. بالنظر إلى سبب نزول الآية فإنها تفيد عدم جواز تكثير سواد أهل الباطل من الكفار وغيرهم.. وبمفهوم المخالفة الترغيب في تكثير سواد المسلمين..

٣٣٧٢. من أصـــول هدايات هذه الآية الكريمة أنها تبين للناس أنهم ممتحنون في مواقفهم من الحق والباطل. فلا بقاء للمرء على الظلم والباطل والخنوع إلا ريثما يتحول. وكما قال الشنفري:

ولكن نفساً مرة لا تقيم بي على الذم إلا ريثما أتحول

٣٣٧٣. فيها: التأكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ فيه عناية بالخبر وإشـعار بخطورته تنفيراً للسـامع من التلبس بتلك الحال..

٣٣٧٤. فيها: قوله:﴿ٱلَّذِينَ﴾ وليس [من توفاهم] فيه إشارة إلى أن المتحدث عنهم يمثلون قلة.. لأن الأولى أضيق دلالة على الجمع من الثانية.. ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: ٧٣] مع قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف: ٦٤].

٣٣٧٥. تفيد أن من مهام بعض الملائكة سؤال الأموات عن بعض الأمور التي فعلوها؛ وسوف نسمع كثيراً بعد الموت عبارة مبدوءة ب[فيم]؛ لهذا فلنحسن ولنعد لها الإجابات؛ ولا نكون مثل هؤلاء المستضعفين الظالمين؛ حيث إنهم في أول رد للملائكة توقفوا عن الإجابة.

٣٣٧٦. تفيد الإيمان بالملائكة، وأن من أعمالهم قبض الأرواح.

٣٣٧٧. تفيد جواز نسبة التوفي إلى ملك الموت وأعوانه من الملائكة.

٣٣٧٨. فيها أن من باشر عملاً ووافقه عليه آخرون شملهم الحكم جميعاً. فالملك الذي يتوفى الأنفس واحد أما الباقون فينتظرون كل حسب مهمته؛ لذا حكم الله تعالى عليهم جميعاً بأنهم توفوه.

٣٣٧٩. تفيد مدح الملائكة، لأن الله ﷻ ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحله.

٣٣٨٠. في الآية دليل على أن كل مَن توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ "التوفي" فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا. [السعدي]. كذلك فيه أن النفس لا تموت حتى تستكمل رزقها.. فهي دعوة للطمأنينة وعدم الهلع والجشع..

٣٣٨١. تفيد روعة العبارة القرآنية، ودقة التناسب والمعاني؛ فلما كان هؤلاء المتوفين قلة مستضعفين؛ جاءت اللفظة القرآنية ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بحروف أقل من الموضع الآخر ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ [النحل: ٢٨] حيث إن السياق هناك لم يكن في المستضعفين بل في عموم الظالمين. كما أنه

عندما أكدت بداية الآية ههنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾ ناسب أن تحذف التاء بخلاف الموضع الآخر ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ حيث حذفت [إن] وزيدت التاء في الفعل.

٣٣٨٢. تفيد أن المعصية ظلم للنفس لأنها تؤدي إلى إهلاكها وعذابها.

٣٣٨٣. تفيد أن ترك الهجرة مع القدرة عليها ظلم للنفس، وتضييع للدين، وفاعله من الهالكين.

٣٣٨٤. فيها أن من ظلم النفس الذي يجب التوبة منه: ترك الواجب مع الاستطاعة.

٣٣٨٥. تفيد أن من أخطر الأشياء أن يموت الإنسان وهو متلبس بمعصية، وبالمقابل يا بشرى لمن مات متلبساً بطاعة.

٣٣٨٦. فيها: الأعمال بالخواتيم، نسأل الله حسن الخاتمة.

٣٣٨٧. تفيد أن الملائكة أجسام وأنهم يتكلمون، وفي هذا رد على الفلاسفة الذين زعموا أن الملائكة هي قوى الخير التي في النفوس وليست أجساماً.

٣٣٨٨. تفيد ضرورة العمل على الانتقال من الذل إلى العزة ومن الضعف إلى القوة سواء على المستوى الشخصي أو المجتمعي..

٣٣٨٩. فيها: كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أمثلة العام الذي أريد به الخصوص.

٣٣٩٠. تفيد أن الدين أغلى من الوطن وعند التعارض بينهما فعليه ترك الوطن من أجل الدين.

٣٣٩١. تفيد أن الأرض واسعة، والأرزاق كافية؛ فلا يجزع المؤمن ولا يخاف من الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

٣٣٩٢. تفيد أن الاستكانة والاعتذار بالضعف والاستضعاف ليس مقبولاً ولا معذراً.. فيقال لهم: إن عذركم عن ذلك التقصير بحلولكم بين أهل تلك الأرض أبرد من الزمهرير، إذ يمكنكم حل عقدة هذا الأمر الذي أخلَّ بدينكم بالرحيل إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على

إقامة أمور الدين كما فعل من هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة. أو إن تعللكم عن الخروج مع أعداء الله- تعالى- بأنكم مقهورون غير مقبول، لأنكم متمكنون من المهاجرة ومن الخروج من تحت أيديهم.

٣٣٩٣. تفيد أهمية إفحام الخصوم بالحجج الدامغة؛ قبل اتخاذ أي خطوة قاسية تجاههم؛ قالت الملائكة لهؤلاء: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]؛ وفي هذا أيضا إشارة إلى أن الملائكة عقلاء؛ ومؤيَّدون من الله تعالى في إفحام الخصوم بالحجج الدامغة.

٣٣٩٤. تفيد أهمية وضع المحققين ذوي الكفاءات العالية للتحقيق مع المجرمين في القضايا التي تحتاج إلى التحقيق من أجل إظهار الحق وإقامة الحجة على الظالمين المجرمين.

٣٣٩٥. فيها: إذا لم يقبل العذر المتعلق بما هو في الاعتبار كالموت وهو التعلق بالأرض والموطن فمن باب أولى ألّا يقبل عذر يتعلق بما هو دون ذلك كوظيفة أو غيرها.

٣٣٩٦. تفيد عدم التمادي في إعذار النفس عن تقصيرها في فعل الأوامر واجتناب النواهي، وعدم التوسُّع في الأخذ بالضرورات والحاجات، فالضرورات والحاجات ما أقرَّه الشرع. وليس كل ما يظنه الإنسان ضرورة أو حاجة يكون ضرورة أو حاجة.

٣٣٩٧. في الآية أن الأصل عدم العيش بين قوم كافرين لأن المجتمع والأنظمة والتقاليد تؤثر على إيمان المسلم وعلى أسرته ونسله من بعده لتعرضهم لفتنة الكفر وانحطاط الأخلاق.

٣٣٩٨. فيها دليل على هجران الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها؛ وتلا: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾.

٣٣٩٩. في الآية الحرص على اختيار الجليس الصالح والابتعاد عن جليس السوء.

٣٤٠٠. فيها أنه لا تقبل كل دعوى بل لا بد من التحقق والتثبت.

٣٤٠١. تفيد مشروعية الهجرة بمعناها العام في كل وقت عند انعقاد سببها.

٣٤٠٢. فيها: وجوب الهجرة؛ فراراً من الكفر، وفتنة الدين.

٣٤٠٣. تفيد أن عاقبة الهجرة حميدة؛ فإن بعدها النصر والتمكين والعزة، كما حصل مراراً عبر التاريخ.

٣٤٠٤. فيها سبب وجوب الهجرة وهو الاستضعاف، يؤكد ذلك فتوى عائشة ﵂ في الهجرة كما في البخاري ومسلم، ويدل على ذلك أيضاً ما حكاه ابن حجر ﵀ عن أن الهجرة كانت واجبة من أرض الاستضعاف لأن النبي ﷺ كان يأمر الأعراب بالعودة إلى ديارهم لدعوة قومهم، ويدل عليه أيضاً اتفاق الفقهاء على أن الوجوب هو في حالة عدم القدرة على التزام شعائر الدين في دار الكفر مع القدرة على الهجرة إلى دار الإسلام، نص على الاتفاق السعدي ﵀ في فتاويه. وتبقى الهجرة إلى دار الإسلام مستحبة للقادر على التزام شعائر دينه في بلاد الكفر، ونص السعدي ﵀ على اتفاق الفقهاء على الاستحباب في هذه الحالة.

٣٤٠٥. فيها: حرمة الهجرة إلى بلاد الكفر لغير حاجة شرعية [كعلاج لا يوجد في بلاد المسلمين، أو دراسة لعلم يحتاجه المسلمون وليس عندهم في بلدانهم، أو دعوة] بشرط أن يأمن المسلم على نفسه من الفتنة.

٣٤٠٦. فيها: قوله: ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة لإفادة معنى جديد وهو أن الأرض التي ينبغي الهجرة إليها هي التي يقام فيها دينه، وتظهر فيها شريعته وإلا فالأرض التي هم فيها هي أرض الله.

٣٤٠٧. في الآية بيان أثر البيئة على تصرفات الناس، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة البحث عن البيئة المعينة على الطاعة، فإن لم توجد فالعمل على صنعها واستغلال كل السبل المتاحة في سبيل إيجادها..

٣٤٠٨. تفيد أن الأرض لا تخلو من وجود بلد أو بلدان للمسلمين حتى تجتمع العصابة المؤمنة مع نبي الله عيسى ﵇ وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام.

٣٤٠٩. في الآية أن الله لا يغلق جميع الأبواب على المؤمنين بل يجعل لهم منفساً وملجأً في كل زمان ومكان وما على المسلم الا الأخذ بالأسباب﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾.

٣٤١٠. فيها: أرض الله واسعة فلم يحجر سبحانه على أحد أرضاً ما.

٣٤١١. تفيد عظيم قدرة الله ﷻ في خلق الأرض وجعلها واســـعة، فخلق الأرض من أعظم آيات الله الدالة على قدرته وعظيم سلطانه؛﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

٣٤١٢. الآية فيها بشارة باتساع رقعة الإسلام..

٣٤١٣. تفيد أهمية معرفة علوم الأرض؛ وما يحتاجه المؤمنون في معاشهم؛ فالهجرة من أرض إلى أرض تنبني على معرفة جيدة بالمواقع الجغرافية وطرق الوصـــول إليها؛ وكذلك معرفة أصـــحابها الذين يقيمون في تلك الأرض وما هي مميزاتهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ وما إلى ذلك من الأمور العلمية المهمة؛ ولهذا اختار النبي ﷺ لأصحابه الهجرة إلى الحبشة لما يتمتع به أهلها من العدل؛ ثم اختار الله له الهجرة إلى المدينة لما تتمتع به من الخيرات ومن موقع اســـتراتيجي قوي لإلحاق الهزيمة بخصومهم من الكفار.

٣٤١٤. تفيد أن الغرض من هجرة المؤمنين ليس هو الفرار بالدين فحسـب؛ بل أيضـا تكوين قوة منافسة للكفر؛ ويحسب لها الأعداء ألف حساب؛ ولهذا قال تعالى:﴿ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ ولم يقل: [فتهاجروا إليها] أي: تهاجروا فتســتقروا في تلك الأرض وتدافعوا عنها وعن أهلها من الأعداء؛ لا أن تكونوا دائما في حالة هجرة؛ وهذا ما فعله النبي ﷺ وصحابته الكرام.

٣٤١٥. فيها: اســم الإشــارة [اولئك] فيه إشــارة إلى بعدهم عن الحق بتركهم الهجرة.. وأنهم مستحقون للوعيد..

٣٤١٦. تفيد التخويف من النار وعذابها؛ وذلك من تسميتها [جهنم].

٣٤١٧. فيها التحذير من جهنم وأســباب ورودها؛ فوصــفها بالمأوى فيه من التخويف ما لا يخفى.

٣٤١٨. تفيد أن ترك الهجرة مع القدرة عليها من كبائر الذنوب لأن هذا الوعيد لا يكون إلا على كبيرة، لكنها لا تصل إلى درجة الكفر.

٣٤١٩. فيها عدل الله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه.

٣٤٢٠. فيها أن الجزاء من جنس العمل، فكما أن مأواهم في الدنيا كان دار الكفر –لتركهم الهجرة–، فإن مأواهم في الآخرة جهنم وساءت مصيراً.

٣٤٢١. فيها توجيه إلى تقديم الدين على كل مصالح الدنيا..

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾ [النساء: ٩٨ -٩٩].

٣٤٢٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق الوعيد لمن ترك الهجرة في سبيل الله حال الفتنة في الدين وهو قادر عليها، جاء في هذه الآية استثناء الضعفاء الذين استقوى عليهم غيرهم، ولا حيلة لهم إلى الهجرة، ولا يهتدون إلى سبيلها... ولما بينت الآية بهذا الاستثناء أن الهجرة شديدة، وربما تخلف عنها القادرون عليها واحتجوا بالمشقة وعدم القدرة، جاء في الآية التي بعدها الإشارة إليهم بالبعد﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ للتعريض بالمقصِّر والمتعلل بالمشقة.

٣٤٢٣. فيها إشارة إلى ضرورة استثناء الذين لا يشملهم الحكم حال إطلاقه على جماعة من الناس.. كقوله ﷺ: "إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله، وبر، وصدق".

٣٤٢٤. تفيد أن هذه الشريعة شريعة رحمة، وتيسير، وتراعي أحوال العباد وما يعرض لهم من أسباب التخفيف.

٣٤٢٥. تفيد أن الهجرة تجب على المستطيع وأن العاجز عنها تسقط عنه ويسقط عنه الإثم.

٣٤٢٦. فيها: المستضعف وإن كان بالغاً لا تجب عليه الهجرة.

٣٤٢٧. فيها دليل لقاعدة: لا واجب مع العجز.

٣٤٢٨. فيها حسن الظن بأخيك المسلم إن وجدته في موطن شبهة.

٣٤٢٩. فيها أن المرأة لا تتقدم الرجل على كل حال.

٣٤٣٠. فيها أن الأصل في النساء القرار في البيوت.

٣٤٣١. فيها: ذكر الولدان مبالغة في أمر الهجرة حتى لكأنها لو استطاعها غير المكلفين لقاموا بها، وإشعار بأن على أوليائهم أن يهاجروا بهم معهم متى تمكنوا من ذلك. والله أعلم.

٣٤٣٢. فيها: عناية الإسلام بالأطفال؛ ولأنه أوجب على الآباء الهجرة بهم.

٣٤٣٣. فيها: بيان خطر تربية الأولاد في بلاد الكفر.

٣٤٣٤. فيها: دخول الولدان فيه دليل على مخاطبتهم بالأحكام، وعلى قبول إيمانهم وأعمالهم المبنية عليه.

٣٤٣٥. في الآية دلالة على كمال علم الله تعالى بوجود الضعفاء الذين لا يطيقون التكليف الإلهي في بعض التشريعات أو يعجزون عنها، كما أن في الآية إشارة إلى كمال رحمة الله تعالى.

٣٤٣٦. فيها تأكيد على عظيم رحمة الله بعباده عموماً، والسابقين من الأصحاب خصوصاً، فعذر سبحانه الذين في مكة من الرجال والنساء والأطفال الذين لا قوة لهم للخروج من مكة المكرمة، ولا يعرفون طريقاً توصلهم إلى المدينة..

٣٤٣٧. فيها: قوله:﴿ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ ﴾ دون قوله [الذين لا يستطيعون] فيه شدة التصاق عدم الحيلة بهم وفيه تأكيد للضعف والعجز.. ففيها سماحة الشريعة وكمال الدين الذي يراعي واقع الأفراد ومقدراتهم.. وتنكير حيلة مع تنوينها فيه إغراق في النفي.. أي لا يستطيعون أدنى ولا أصغر حيلة.. وتأكيد العجز ومقدار الضعف يشير إلى أهمية عدم الركون لمجرد العذر.. بل لابد من التأكد من عدم القدرة.. أو بتعبير آخر دقة التقدير للمعاذير..

٣٤٣٨. تفيد جواز استخدام الحيل مع الكفار للخلاص من شرهم خصوصاً في الحرب لقوله ﷺ: "الحرب خدعة".. وفي هدي السلف قصص غاية في الذكاء، وحسن الاحتيال كقصة

نعيم بن مسعود ﵁، وقصة الحجاج بن علاط السلمي ﵁، وقصة محمد بن مسلمة ﵁ مع كعب بن الأشرف اليهودي وغيرها.

٣٤٣٩. فيها إشـــارة إلى أن في بلاد الكفر والطغيان أناس من الخيرين المؤمنين، الذين أخفوا حالهم لقلة حيلتهم على مغادرة أرضـــهم وهجرها إلى غيرها، والمســـلمون الذين عاشـــوا حقد وبطش ما يسمى الاتحاد السوفيتي سابقاً أكبر شاهد وأوضح مثال..

٣٤٤٠. فيها: قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في الأول؛ يشير إلى انضمام الوصفين معا.. فربما كان العبد مستضعفاً ولكن له حيلة وسبيل.. فليس كل استضعاف يعتبر عذراً على عدم الهجرة حتى يبلغ ما وصفته الآية الكريمة.. وفي الآية السابقة اعتذر الظالمون باستضعافهم في الأرض ولم يقبل عذرهم.. وهنا استثنى الله المستضعفين من وجوب الهجرة.. أي قَبِل عذرهم.. وفيه: أن الظالمين لم يكن عذرهم بالغاً مبلغ المســـتضـــعفين حقيقة..ــ وأن الظالمين كان لهم ذكاء في اختيار العذر. ولم تكن لهم فطنة..ــ وهذا ديدن المقصرين والعاصين.. [الأعتذار بالأعذار المقبولة شرعاً ولكنها لا تكون منطبقة عليهم..

٣٤٤١. فيها أن الاهتداء إلى أرض الطاعة توفيقٌ من الله ﷻ، وخيرٌ عظيم يصـــيبه العبد في دنياه، يعينه على الوصول إلى موطن الفوز الأبدي في الآخرة.

٣٤٤٢. فيها إشارة إلى أن لفظ الهداية يطلق على الجانب الحسي والمعنوي.

٣٤٤٣. فيها إشارة إلى: أهمية العناية بطرق المداخل والمخارج للبلاد؛ حتى لا يدخل من خلالها أعداء الإسلام.

٣٤٤٤. يفيد التعبير بقوله: ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ دون قوله: [ولا يهتدون طريقا] إشـــارة لطيفة إلى أنه ينبغي للمهاجرين في حال انتقالهم من الأرض الظالم أهلها إلى أرض أخرى؛ الذهاب من خلال الممرات غير المعبدة أو المطروقة؛ لتجنب رؤية الظالمين لهم حتى لا يؤذوهم ويردوهم إلى

ديارهم فيعذبوهم. وقد فعل ذلك النبي ﷺ أثناء هجرته إلى المدينة؛ وكذا فعل أصحابه الكرام عند هجرتهم إلى الحبشة.

٣٤٤٥. فيها تأكيد على أن الله ﷻ أعلم بالسرائر، حيث يعلم صاحب العذر الذي لاحيلة له حقاً، فيعفو عنه عدم استجابته لأمر ربه لوجود العذر..

٣٤٤٦. فيها تعظيم لأمر الهجرة للمبالغة في بيان عذر المعفو عنه بتركها.

٣٤٤٧. فيها: الإسلام دين اليسر والسهولة والسماحة، فمع المشقة ينتفي الحرج.

٣٤٤٨. فيها: الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تشير إلى ضرورة تحقق الأوصاف السابقة كاملة ليتحقق شرط العفو..

٣٤٤٩. فيها: قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ إيذان بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى أن المضطر الذي تحقق عدم وجوبها عليه ينبغي له أن يعد تركها ذنباً، ولا يأمن. ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها.

٣٤٥٠. تفيد توجيه العباد إلى الحرص على أسباب العفو من الله ﷻ، ومن ذلك الهجرة، فقد قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: "أما علمت أن الهجرة تهدم ما كان قبلها". رواه مسلم.

٣٤٥١. تفيد إثبات صفة العفو لله ﷻ، والله ﷻ عفوٌ يحب العفو، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى أن يعفوا بعضهم عن بعض.

٣٤٥٢. تفيد إثبات اسم العفو لله ﷻ، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التوسل بهذا الاسم وما تضمنه من صفة العفو إلى الله ﷻ، كما أرشد النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها إذا أدركت ليلة القدر أن تقول: "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني".

٣٤٥٣. تفيد إثبات اسم الغفور لله ﷻ، وإثبات صفة المغفرة له ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التوسل بهذا الاسم الكريم، وهذه الصفة العظيمة،

خصوصاً من حصل منهم تفريط وتقاعس عن الهجرة. اللهم اغفر لنا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت سبحانك.

٣٤٥٤. فيها: أن ختم الآية بصفتين فيه بيان فضل الله تعالى على أصحاب الأعذار..

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

٣٤٥٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فإنه - تعالى - لما ذكر الوعيد على ترك الهجرة مع القدرة عليها، رغّب فيها، ووعد بالعطاء الجزيل لمن قام بها، وإن أدركته المنية قبل وصوله مهاجره.

٣٤٥٦. تفيد، وبضميمة ما سلف: أهمية الترغيب والترهيب، والاعتناء بالثواب والعقاب. وهذا الباب من أنجع طرق التربية. وهو في القرآن والسنة كثير.

٣٤٥٧. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآيات فلَمّا رَهّبَ مِن تَرْكِ الهِجْرَةِ؛ رَغّبَ فِيها بِما يُسَلِّي عَمّا قَدْ يُوَسْوِسُ بِهِ الشَّيْطانُ؛ مِن أنَّهُ لَوْ فارَقَ - رَفاهِيَةً - الوَطَنَ؛ وقَعَ في شِدَّةِ الغُرْبَةِ؛ وأنَّهُ رُبَّما تَجَشَّمَ المَشَقَّةَ؛ فاخْتَرَمَ قَبْلَ بُلُوغِ القَصْدِ بشره تعالى في الأمرين بما يسره.

٣٤٥٨. تعنى بإرشاد المسلم بأن يقدم التوكل على الله ﷻ والهجرة فهي أوسع له من البقاء تحت الذل حتى لو ترائى له أن في الهجرة ترك للمال والأهل وخطر ومصير مجهول، فإن هذا هو شعور من انعدم الإيمان في قلبه استوطن محله النفاق لأنه لا يثق بوعد الله ﷻ ويرتاب في ما سيحدث له فيفضل استمراء الذل والاستضعاف على الهجرة إيماناً بتحقق وعد الله ﷻ لعباده المؤمنين.

٣٤٥٩. تفيد أن الهجرة في سبيل الله مستمرة إلى قيام الساعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأن الخير والسعة في الأرض لا تنقطع كما لا تنقطع الهجرة.

٣٤٦٠. فيها وجوب استصحاب النية السليمة قبل الشروع في الهجرة، وفي الحديث: "من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه". متفق عليه.

٣٤٦١. فيها: إشارة إلى: سعة فضل الله وكرمه؛ حيث رتَّب هذا الثواب الجزيل لمن نوى العمل، وإن لم يفعله؛ لعذر.

٣٤٦٢. فيها: إشارة إلى: شناعة الشرك، وأنه سبب في الضيق، كما أن الفرار منه يوجب السعة. وهكذا في آخر الزمان: يعم الخير، وتخرج الأرض بركاتها بسبب زوال الشرك. فسبب شر الدنيا، وفقرها وحزنها، وضيقها "الشرك بالله".

٣٤٦٣. تفيد أن يكون المؤمن ذا دراية وفهم ببيئته والواقع المحيط به.

٣٤٦٤. فيها أن المهاجر تتعدد أمامه الاحتمالات منها أن يسلم وينجو، ومنها الهلاك وفي كلا الحالتين هو غانم.

٣٤٦٥. تفيد أن في الحركة البركة، وأن الانتقال من مكان إلى مكان من أجل الله وفي سبيل طاعته يفتح للعبد مجالات لم يكن ليتخيلها يوماً من الأيام.

٣٤٦٦. تفيد أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

٣٤٦٧. تفيد الحث على الهجرة والترغيب فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.

٣٤٦٨. تفيد أن عاقبة الهجرة النصر والتمكين والفتح وسعادة الدنيا وسعتها.

٣٤٦٩. يفيد تقديم مراغمة الأعْداءِ عَلى سَعَةِ العَيْشِ؛ لِأنَّ الِابْتِهاجَ بِرَغْمِ أُنُوفِ الأعْداءِ لِسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ أشَدُّ مِن الِابْتِهاجِ بِالسَّعَةِ. قال البقاعي: ولَمّا كانَتِ المراغَمَةُ لَذَّةَ الرُّوحِ؛ فَكانَتْ أعَزَّ مِن لَذَّةِ البدن قدمها.

٣٤٧٠. فيها: أن الهجرة: سبب في السعة، والغنى، وذهاب الغم والهم والحزن، وضيق الصدر؛ لقوله:﴿ وَسَعَةً ﴾ ولم يخص شيئاً دون آخر؛ فكل ما يشمله معنى السعة فهو مندرج في الآية.

٣٤٧١. تفيد فضل الهجرة والمهاجرين، وقد قال رسول الله ﷺ عن الهجرة: "إن شأنها لشديد". متفق عليه، وقال: "الهجرة تهدم ما كان قبلها". رواه مسلم.

٣٤٧٢. فيها: من يهاجر إلي الله ﷻ بكل أشكال الهجرة الحسية والمعنوية كترك المعاصي والملذات؛ يجد سعة الطاعة، ويحس ببردها ولو بعد حين؛ ويستفاد من ذلك في مجاهدة النفس حتى يحصل مقصوده أو يدركه الموت فيقع أجره على الله ﷻ.

٣٤٧٣. فيها: قال القرطبي في تفسيره: قال مالك: هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسبُّ فيها السلف، ويعمل فيها بغير الحق.

٣٤٧٤. فيها: قوله:﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عطف على اسم الله، ففيه: جواز الجمع بين لفظ الجلالة وبين خلقه؛ فيما لا يختص به سبحانه.

٣٤٧٥. تفيد أن من نوى الهجرة، وشرع فيها، وأدركه الموت قبل أن يتم مشروع هجرته حصل له كامل الأجر بفضل الله تعالى وكرمه؛ لقوله تعالى:﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾. وهذا يقاس عليه بقيَّة الأعمال الصالحة، ويؤيد هذا: حديث الرجل الذي قتل مائة نفس ثم انطلق إلى الأرض التي يعبد الله فيها ومات قبل أن يصل إلى تلك الأرض.

٣٤٧٦. تهدي من آمن إلى التضحية بدنياه لأجل آخرته، وتعده بأن تكون دنياه أوسع وآخرته. وتهدي من ضحَّى لأجل آخرته بالثبات والاستمرار على تضحيته حتى الممات فهو الموعد الذي يتقاضى فيه أجره.

٣٤٧٧. تفيد أن الله طمأن المهاجر من أمرين يمنعان من الهجرة: الخوف من ضيق العيش إن ترك وطنه خاصة إذا كان في رغد من العيش، والثاني: الخوف من مخاوف الطريق وعدم الوصول للمبتغى، ففي الأولى وعده بسعة الرزق، وفي الثانية أثبت له كمال الأجر إن مات دون الوصول لمبتغاه.

٣٤٧٨. تفيد أن كل هجرة لغرض ديني- من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهداً في الدنيا أو ابتغاء رزق طيب - فهي هجرة إلى الله ورسوله. وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله. قال ابن العربي: قسم العلماء رضي الله عنهم الذهاب في الأرض قسمين: هرباً وطلباً؛ فالأول ينقسم إلى ستة أقسام:

الأول: الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان؛ فإن بقي في دار الحرب عصى؛ ويختلف في حاله.

الثاني: الخروج من أرض البدعة؛ قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف. قال ابن العربي: وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الثالث: الخروج من أرض غلب عليها الحرام: فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الرابع: الفرار من الأذية في البدن؛ وذلك فضل من الله أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في الخروج عنها والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. وأول من فعله إبراهيم عليه السلام؛ فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى

سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]. وقال مخبرا عن موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: ٢١].

الخامس: خوف المرض في البلاد الوخمة والخروج منها إلى الأرض النزهة. وقد أذن ﷺ للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا. وقد استثني من ذلك الخروج من الطاعون؛ فمنع الله سبحانه منه بالحديث الصحيح عن نبيه ﷺ، وقد تقدم بيانه في "البقرة ". بيد أن علماءنا قالوا: هو مكروه.

السادس: الفرار خوف الأذية في المال؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله وأوكد.

وأما قسم الطلب فينقسم قسمين: طلب دين، وطلب دنيا؛ فأما طلب الدين فيتعدد بتعدد أنواعه إلى تسعة أقسام:

الأول: سفر العبرة؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[غافر: ٢١] وهو كثير. ويقال: إن ذا القرنين إنما طاف الأرض ليرى عجائبها. وقيل: لينفذ الحق فيها.

الثاني: سفر الحج. والأول وإن كان ندباً فهذا فرض.

الثالث: سفر الجهاد وله أحكامه.

الرابع: سفر المعاش؛ فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة فيخرج في طلبه لا يزيد عليه من صيد أو احتطاب أو احتشاش؛ فهو فرض عليه.

الخامس: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨] يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت.

السادس: في طلب العلم وهو مشهور.

السابع: قصد البقاع؛ قال ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد".

الثامن: الثغور للرباط بها، وتكثير سوادها للذب عنها.

التاسع: زيارة الإخوان في الله تعالى: قال رسول الله ﷺ: " زار رجل أخاً له في قرية فأرصد الله له ملكاً على مدرجته فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخا لي في هذه القرية قال: هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا غير أني أحببته في الله ﷻ. قال: فإني رسـول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه". رواه مسلم وغيره.

٣٤٧٩. استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن للغازي إذا خرج إلى الغزو ثم مات قبل القتال له سهمه وإن لم يحضر الحرب.

٣٤٨٠. تفيد أنَّ المهاجِرَ لَهُ إحْدى الحُسْـنَيَيْنِ إمّا أنْ يُرْغِمَ أنْفَ أعْداءِ اللَّهِ ويُذِلَّهم بِسَـبَبِ مُفارَقَتِهِ لَهم واتِّصـالِهِ بِالخَيْرِ والسَّـعَةِ، وإمّا أنْ يُدْرِكَهُ المَوْتُ ويَصِـلَ إلى السَّـعادَةِ الحَقِيقِيَّةِ والنَّعِيمِ الدّائِمِ.

٣٤٨١. تفيد أن الرزق قد يضيق في بلد على العبد ويفتح الله عليه في بلد آخر.

٣٤٨٢. تفيد أن من أسباب زيادة الرزق بذل الأسباب الشرعية، وتحقيق تقوى الله تعالى.

٣٤٨٣. فيها أن من النعم الدنيوية سعة العيش.

٣٤٨٤. فيها إشارة: إلى أن الإسلام لا يحرج على المرء أن يكون في سعة من العيش؛ فيوسع على نفسه وذويه. خلافاً لغلاة المتزهدة.

٣٤٨٥. فيها أن من النعم الدينية الموت على الطاعة كمن يموت وهو مهاجر في سبيل الله.

٣٤٨٦. فيها: فضيلة الموت على عمل صالح [حسن الخاتمة].

٣٤٨٧. تفيد عِظم الأجر والجزاء؛ كون وقوعه ونسـبته إلي الله ﷻ فكل الأجور على الله ﷻ فالتخصيص بالذكر يعظم دلالته. فهو يحمل بشارة بأجر لا يخطر ببال المأجور فهو يليق بعطاء الله وكرمه، كأجر الصوم الذي خفي في حقيقته عن الناس فأخفى الله قدره تبعاً لخفاء الإخلاص فيه، فقد أخفى الله أجر من أدركه الموت قبل إتمام هجرته.

٣٤٨٨. تفيد أن أعظم أجر يناله العامل هو الذي يكون له عند الله ﷻ، ومن هنا كان أهل الإخلاص لا يريدون من أعمالهم أجراً من الخلق وإنما يريدون أجرا من الله تعالى، لأنهم علموا عظمة أجره.

٣٤٨٩. فيها: التعبير بقوله:﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾ بعث للطمأنينة في قلوب المهاجرين، وحفز لهم على الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله؛ لأنهم إذا وصلوا إلى دار هجرتهم فقد راغموا أنف أعدائهم، ورزقهم الله بالخير من فضله، وإن ماتوا قبل أن يصلوا أعطاهم- سبحانه- ثواب المهاجرين كاملاً ببركة حسن نياتهم، وكافأهم على ذلك أجراً جزيلاً لا يعلم مقداره إلا هو.

٣٤٩٠. تفيد الآية معالجة القرآن لمخاوف النفس المتنوعة وهي تواجه مخاطر الهجرة بوضوح وفصاحة، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف والأخطار - حتى الموت - ولكنه يبث فيها عوامل الطمأنينة بحقائق أخرى، وبضمانة الله ﷻ؛ فهي [في سبيل الله] ويجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة.

٣٤٩١. تفيد أهمية الثقة بالله تعالى عند ترك الأوطان والأصحاب؛ فلَمّا رَغَّبَ تَعالى في الهِجْرَةِ ذَكَرَ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيْها مِن وُجُودِ السَّعَةِ، والمذاهِبِ الكَثِيرَةِ؛ لِيَذْهَبَ عَنْهُ ما يَتَوَهَّمُ وُجُودَهُ في الغُرْبَةِ، ومُفارَقَةِ الوَطَنِ مِنَ الشِّدَّةِ.

٣٤٩٢. يفيد قمة البلاغة القرآنية، وروعة الفصاحة البيانية حيث قال تعالى:﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ ﴾ وذلك في إشارة لطيفة إلى عظم وكثرة هذا الأجر حتى أنه وقع.

٣٤٩٣. تفيد أن من طبيعة الإنسان تهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به ويتخيل فيه من المشقة والتعب ما لعله لا يوجد إلا في خياله، فجاء القرآن يعالج ما هو مرتكز في النفوس مما يفوت عليه الكثير من الخير، بما يجعلنا نطمئن بما يقدر في الأيام من المحن التي تحمل في طياتها الكثير من المنح والإنسان يهاجر فيها من مكان لآخر.

٣٤٩٤. الآية تحث المؤمنين على استشعار مراكز قوتهم، والسعي بفاعلية في الحياة، وعدم الركون للواقع الفاسد. وتحثهم على مقاومة العجز، وعدم التوافق مع الوضع الذي لا يسمح لهم بإقامة دينهم.

٣٤٩٥. تفيد أن الموت لبعض العباد في بعض الأعمال هدية ومنحة من الله تعالى لهم؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْوُصُولِ إلى النَّعِيمِ المقِيمِ الَّذِي لا يُنالُ إلّا بِالموْتِ، وجِيءَ بِـ﴿ثُمَّ﴾ بَدَلَ الواوِ تَتْمِيمًا لِهَذِهِ الدَّقِيقَةِ، وأنَّ مَرْتَبَةَ الخُرُوجِ دُونَ هَذِهِ المرْتَبَةِ، وأُقِيمَ﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾ مَقامَ [يُثْبِهُ] لِما أنَّهُ مُؤْذِنٌ بِاللُّزُومِ والثُّبُوتِ، وأنَّ الأجْرَ عَظِيمٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ ﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾ حيث وفَّقهم للعمل، وأثبت لهم عظيم الأجر.

٣٤٩٦. فيها تسلية للمهاجرين في سبيل الله يخفف عنهم لأْواء الغربة وشدتها.

٣٤٩٧. تفيد سعة علمه تعالى، وكريم فضله وجوده.

٣٤٩٨. تفيد أن الله تعالى رحيم بالمؤمنين حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله من فضله.

٣٤٩٩. فيها: ختامها بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ يفيد: أن الطاعات عامة، والهجرة خاصة، سبب في تكفير الخطايا؛ وتصديقه، قول النبي ﷺ: "الهجرة تهدم ما قبلها" رواه مسلم.

٣٥٠٠. تفيد إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما الغفور والرحيم، وما تضمناه من صفة المغفرة والرحمة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٠١].

٣٥٠١. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق إيجاب السفر للجهاد والهجرة في سبيله سبحانه، والسفر عموماً مظنة المشقة، جاء في هذه الآية تخفيف الصلاة بقصرها رحمة من الله

بعباده.. ولما كان المهاجر في سبيل الله محفوف بالمخاطر، ويعترضه ما يعترضه من مصاعب ومشاق، وانشغال البال؛ نبهه سبحانه على أهمية الصلاة، والحفاظ عليها. وكأنه يقول: واستعن بها على ما أنت فيه؛ ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

٣٥٠٢. في الآية تتجلي رحمة الله ﷻ بعباده، برفع الحرج عنهم والتيسير عليهم..

٣٥٠٣. فيها مزيد اهتمام بشأن الصلاة، حيث جاء الاهتمام بذكر أحكامها، وما يتعلق بأدائها في أصعب الظروف..

٣٥٠٤. في الآية مشروعية صلاة القصر في السفر؛ وهذا من يسر الشريعة ورحمتها.

٣٥٠٥. فيها المشقة تجلب التيسير، وهي قاعدة فقهية مشهورة.

٣٥٠٦. تفيد أن المسافر لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، لأنه حينئذ ضارب في الأرض، وهذا قول الجمهور.

٣٥٠٧. فيها أن الله ﷻ رحيم بعباده حيث شرع لعباده قصر الصلاة الرباعية في السفر.

٣٥٠٨. تفيد أن السفر هو علة القصر لا الخوف.

٣٥٠٩. تفيد حاجة الإنسان للصلاة في جميع حالاته سفرا وإقامة.

٣٥١٠. فيها إشارة إلى: الفتوحات، وانتشار الإسلام في الأرض.

٣٥١١. تفيد أن القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه. ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره. والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

٣٥١٢. فيها: قوله: ﴿أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة فيه فائدتان: إحداهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ، فإتيانه بقوله:﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه. الثانية: أن ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

٣٥١٣. فيها: قوله تعالى:﴿ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون أن تقصروا الصلاة.. دليل على أن إقامة الصلاة بأركانها وشروطها وواجباتها هو المقصود الأصل بالتعبد وأن العدد في الركعات إنما هو محض تعبد؛ ومن هنا اختلف عدد الركعات بين الصلوات.

٣٥١٤. فيها: أن الصلاة والمحافظة عليه أمن للمؤمن في كل شيء: في نفسه ومن عدوه. فأكثر ما يفرح الأعداء هو ترك المسلمين لصلاتهم؛ وحرص المؤمنين على إظهار الشعائر التعبدية أمام الكفار نكاية لهم وعز للمسلمين؛ وأكثر ما يغيظ إبليس وأتباعه هو إقامة الصلاة.

٣٥١٥. تفيد أن الخوف الطبيعي جائز لقوله:﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾، وكما في قوله تعالى:﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، أما خوف السر كالخوف من ميت أن يضره فهذا شرك أكبر كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٣٥١٦. تفيد أن الخوف له أثر في تغيير الأحكام؛ ومن ذلك قوله تعالى:﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وإذا خاف المسلم على نفسه في الغسل والوضوء تيمم.

٣٥١٧. فيها بيان لأهمية الصلاة ومنزلتها فهي لا تسقط حتى في حالة الخوف.

٣٥١٨. فيها تقرير عداوة الكافرين للمؤمنين.

٣٥١٩. فيها وجوب أخذ الحيطة والحذر وعدم أمن مكر الكفار.

٣٥٢٠. فيها أن بعض الرخص تعين المؤمن على مقاومة فتنة الكفار.

٣٥٢١. فيها أن الله ﷻ يتصـــدق على عباده؛ فالآية مفادها أن علة القصـــر الخوف من فتنة الكافرين وإنما استمر الأمر بعد أمن الناس لحديث عمر ﵁ أن النبي ﷺ قال: "صـدقة تصدق الله بها عليكم...".

٣٥٢٢. فيها تنبيه للمسافرين الذين يضيعون الصلوات، حتى تخرج عن وقتها؛ فليتقوا الله ربهم، وليحافظوا عليها. ليوقنوا بأن الصلاة عون لهم على ما هم فيه من مشاق. فالصلاة تصلح الحال في الترحال، ومع الأهل، وهي من أسـباب سـعة الرزق في الأسـفار والأوطان قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٣٥٢٣. فيها مراعاة الدين للنفس فهي أحد الضرورات الخمس التي جاء الإسلام بحفظها.

٣٥٢٤. أفادت قصر العدد وقصر العمل جميعا؛ ولهذا علق ذلك بالسفر والخوف، فإذا اجتمع الضـرب في الأرض والخوف أبيح القصـر الجامع لهذا وهذا، وإذا انفرد السـفر فإنما يبيح قصـر العدد، وإذا انفرد الخوف فإنما يبيح قصر العمل. شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى [٢٤/٩٨].

٣٥٢٥. يفيد ظاهر الآية الترخص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة ﵀، واختيار شـيخ الإسـلام ابن تيمية، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة.

٣٥٢٦. فيهـا بيـان حقيقـة العلاقـة مع الكـافرين، والتـأكيـد على عـداوتهم لأهل الإيمان، ودوام تربصهم بهم.. وقد أكد – سبحانه- هذه العداوة بإن الدالة على التوكيد، وبكان المفيدة للدوام والاسـتمرار، وبوصـف هذه العداوة بالسـفور والظهور، لكي يحترس المسـلمون منهم أشـد الاحتراس.

٣٥٢٧. تفيد أن جميع الكفار أعداء لنا لعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٣٥٢٨. تفيد أن الكفار يسـعون في فتنة المسـلمين لردهم إلى الكفر، وهذه من سـنن الكفار قديماً وحديثاً.

٣٥٢٩. تفيد أن فتنة الكفار لعباد الله المؤمنين مستمرة إلى قيام الساعة؛ وأن من أبرز آثار عداوتهم للمؤمنين هو فتنتهم في دينهم؛ ولما كانت الصلاة هي عمود الدين ذكر الفتنة في سياقها؛ لهذا قال تعالي:﴿أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ دون أن يقول: [إن خفتم أن يهاجمكم الذين كفروا].

٣٥٣٠. تفيد الحث على البراء، والبغض للكافرين لعداوتهم البينة، وقد وصف الله تعالى بذلك عداوة الشيطان:﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

٣٥٣١. تفيد: أنه لا عذر لأحد في اتخاذ الكافرين أولياء؛ لظهور عداوتهم، ووضوحها. لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وكيف يوالى العدو الظاهر، البين، الجلي، الواضح.

٣٥٣٢. تفيد أهمية أن تؤكد بعض القضايا التي يغفل عنها بعض الناس؛ وان تصاغ بما يجري به المثل في الماضي والحاضر والمستقبل؛ ولهذا قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ولم يقل: [إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إنهم كانوا لكم عدوا مبينا] وذلك لتجري العبارة مجرى المثل المؤكد الذي لا يقبل النقاش او الجدال حوله.

٣٥٣٣. تفيد أن العداء درجات، وأن الاعداء ليسوا على درجة واحدة فمنهم من عداوته بينة واضحة شديدة.

قال تعالى:﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

٣٥٣٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق ذكر الضرب في الأرض وأنه سبب للقصر من الصلاة، وذكر القصر بسبب السفر وأنه مظنة المشقة، جاء في هذه الآية بيان صفة الصلاة في حال الحرب وتحقق الخوف..

٣٥٣٥. فيها، وبضميمة ما قبلها: أن الكفار لا يحبون أن يُعبد الله في الأرض.

٣٥٣٦. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن الكفار يسعون لفتنة المؤمنين عن دينهم، وعبادة ربهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٣٥٣٧. فيها: رحمة الله بعباده في تخفيف التغيير لكيفية الصلاة في حال الحرب؛ وهذا يدل على أهمية الصلاة، وعظم مكانتها في الإسلام؛ فإذا كانت تؤدى في حال الحرب فمن باب أولى أن نحرص على أدائها في حال السلم.

٣٥٣٨. فيها يسر الشريعة وسماحتها.

٣٥٣٩. تفيد أن الإسلام دين يأمر أتباعه بأداء الصلاة حتى ولو كانوا في ساحة المعركة، وذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، ومتى حسنت هذه الصلة بين المجاهد وخالقه، فإنه- سبحانه- يكلؤه بعين رعايته، ويمده بنصره وتأييده.

٣٥٤٠. فيها: حاجة العبد لغذاء روحه ولقائه بربه ضرورة ملحة لا يستغني عنها ولا يمكنه تركها... وهي آكد وأعظم حاجة حال الكرب والشدة، ورسول الهدى ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة..

٣٥٤١. تفيد أن الإسلام بجانب هذا الاهتمام الشديد بشأن الصلاة فإنه يهتم أيضا بأن يأمر أتباعه بالحذر من مكر أعدائهم ومن مباغتتهم لهم، بأن يكون المؤمنون مستعدين لصدهم وردهم على أعقابهم، وأن لا يغفلوا عن حمل أسلحتهم حتى ولو كانوا قائمين للصلاة. وبهذا نرى أن الإسلام يربي أتباعه تربية روحية وعقلية وبدنية من شأنها أن توصلهم- متى حافظوا عليها- إلى ما يعلي كلمتهم في الدنيا، ويرفع درجاتهم في الآخرة.

٣٥٤٢. تفيد التربية على النظام، والانضباط، وحسن الترتيب، والطاعة؛ وكلها من أسباب النصر.

٣٥٤٣. فيها أن الصلاة سبب النصر لذا فالحرص على عدم التهاون فيها خاصة في أوقات الشدة.

٣٥٤٤. فيها: بيان لصفة صلاة الخوف.

٣٥٤٥. فيها: تعلق بظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ من خص صلاة الخوف بحضرته ﷺ كالحسن بن زيد ونسب ذلك أيضا لأبي يوسف، ونقله عنه الجصاص في كتاب الأحكام، وعامة الفقهاء على خلافه؛ فإن الأئمة بعده ﷺ نوابه، وقُوَّام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه الصلاة والسلام كما في قوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقد أخرج أبو داود والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ثعلبة بن زهدم. قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا. ثم وصف له ذلك فصلوا كما وصف، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ولم ينكره أحد منهم. وهم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا يحل محل الإجماع.

٣٥٤٦. فيها: عظم مكانة الإمام.

٣٥٤٧. تفيد: بأن إمام المسلمين الأعظم، هو المسؤول الأول عن إقامة الناس صلاتهم، أو تضييعها؛ في بلاده وحكمه وسلطانه.

٣٥٤٨. تفيد أن الإمام القائد هو نقطة الارتكاز، وموضع الاستقرار للجيوش المحاربة؛ فينبغي أن يتوسط في الجيش؛ وأن يكون قريباً من جميع الطوائف المقاتلة؛ ليشاهدوه ويقتدوا به؛ وتصل لهم الأوامر سريعاً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ ولم يقل: [كنت معهم]. وفي هذا أيضا إشارة إلى مكانة النبي ﷺ في قلوب أصحابه وأنهم كانوا يتجمعون حوله للتبرك بصحبته والاقتداء بهديه؛ والإسراع في تنفيذ أوامره.

٣٥٤٩. تفيد أن الإمام مسؤول عن صلاة المأمومين؛ وعليه مهمة إقامة الصلاة لهم بشروطها وأركانها وسننها ولكن مع النظر إلى حالهم ومراعاة أمرهم وشأنهم؛ لهذا قال تعالى: ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ولم يقل: [فأقمت الصلاة].

٣٥٥٠. فيها: عظم مسؤولية الإمام ويتضح من تحمله لمسؤولية صلاة المأمومين.

٣٥٥١. فيها إشارة إلى: أن الإمام إن صلح، واستقام على الدين، صلحت رعيته.

٣٥٥٢. تفيد أن المؤذن لا يقيم الصلاة إلا بعد إذن الإمام له؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي أعطيت الإذن بإقامة الصلاة.

٣٥٥٣. تفيد وجوب صلاة الجماعة، فإذا أمروا بالصلاة في جماعة في حال الخوف والقتال ففي حال الأمن والإقامة من باب أولى، فهذه الآية من أقوى أدلة من قال بوجوب صلاة الجماعة. قال ابن كثير: ما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة؛ حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة. فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك.

٣٥٥٤. فيها: عدم مشروعية تكرار الجماعة.

٣٥٥٥. تفيد أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين، واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم. [السعدي].

٣٥٥٦. فيها: في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ جوازُ انفرادِ الإنسانِ عن الإمام لعُذرٍ، وجهه: أنَّ الطَّائفةَ الأولى انفردَت وأتمَّت صلاتَها، فإذا حصل للإنسان عذرٌ لا يستطيعُ معه إتمامَ صلاته؛ مِثلُ أن يطرأَ عليه حَقنٌ أو ما أشبهَ ذلك، فله أن ينفردَ ويُكمِلَ صلاتَه- إن كان يستفيدُ مِن هذا الانفرادِ- بحيث لا تكونُ صلاتُه مع الإمام أفضلَ من صلاتِه إذا انفردَ.

٣٥٥٧. فيها: قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعْدُ إليهم دون الرسول ﷺ.

٣٥٥٨. فيها أهمية إعداد السلاح، وأنه يرهب الكفار ويدفع شرهم.

٣٥٥٩. تفيد أهمية ملازمة المسلم للسلاح والمحافظة عليه خصوصاً في حال الخطر.

٣٥٦٠. تفيد الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، وهو محمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ﴾ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة.

٣٥٦١. فيها: أنه إذا دعت الضرورة لحمل الأسلحة حتى ولو كان فيها دم فلا مانع.

٣٥٦٢. فيها: أن السجود ركن من أركان الصلاة.

٣٥٦٣. فيها: فضيلة السجود لله، فقد خصه هنا من بين سائر الأركان، ولما يختص به من فضائل أخر كالخشوع والخضوع وإجابة الدعاء.. وإنما اكتفي بالسجود للاشارة إلى أهمية هذا الركن وأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ وعلى المجاهد في سبيل الله أن يكثر من الدعاء في هذا الركن لاستنزال النصر من الله تعالى. ولأن السجود لا يرى المصلي العدو أثناءه.

٣٥٦٤. تفيد أن حماية المصلين وهم يصلون صلاة الخوف مطلب شرعي.

٣٥٦٥. تفيد أن أعداء الإسلام لايرقبون في مسلم عهداً ولا ميثاقاً، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتحينون الفرص، بل حتى في غير حال الحرب يتربصون بالعلماء وطلبة العلم بصرفهم عن علمهم، ويتربصون بغيرهم.

٣٥٦٦. تفيد حرص الكفار على رصد أحوال المسلمين وتحين غفلتهم للانقضاض عليهم.

٣٥٦٧. فيها: أن الكفار لا يعظمون الله ﷻ، ولا شعائره - جل ذكره - مهما زعموا [حرية الأديان]؛ لأنهم يودون أن يميلوا على المؤمنين في صلاتهم ميلة واحدة.

٣٥٦٨. تفيد أن المطر والمرض من الأعذار التي توجب التخفيف؛ ولذلك شرع الجمع بين الصلاتين في المطر والمرض.

٣٥٦٩. فيها: المسلم الحق يجب أن يكون فطناً حذراً.

٣٥٧٠. تفيد التوجيه إلى الحذر من مكر الكافرين وكيدهم.

٣٥٧١. فيها أن أخذ الحذر مطلب شرعي مقدم على حمل السلاح ولا يغني عنه أخذ السلاح فحسب؛ فالتسلح بأنواع السلاح الحديث مع الغفلة عن مكر العدو وخططه نوع من السفه.

٣٥٧٢. فيها: قدم- سبحانه- الأمر بأخذ الحذر على أخذ الأسلحة لأن أخذ الأسلحة نوع من الحذر، ولأن الحذر عند انتقال الصفوف وتحركها واجب حتى لا يباغتهم الأعداء وهم يتحولون من مكان إلى مكان، وهذا أشبه بتغيير الخطط وقت القتال، وهو أمر له خطورته فوجب أن تشتد يقظة المسلمين حينئذ. وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله: فإن قلت لم ذكر في أول الآية الأسلحة فقط، وذكر هنا الحذر والأسلحة؟ قلت: لأن العدو قلما يتنبه للمسلمين في أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين في المحاربة والمقاتلة. فإذا قاموا إلى الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين في الصلاة، فحينئذ ينتهزون الفرصة في الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله- تعالى- أمرهم في هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة.

٣٥٧٣. في هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة، ويبلغ دار الكرامة. [القرطبي].

٣٥٧٤. تفيد تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال وترك الاستسلام؛ فإن الجيش ما جاءه مصاب قط إلا من تفريط في حذر، وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ يعني تقلدوا سيوفكم فإن ذلك هيئة الغزاة. [القرطبي].

٣٥٧٥. فيها: صورة من صور جمال هذا الدين: حيث يأمر أتباعه، ويعلمهم بكيفية مواجهة الأعداء حال كونهم متلبسين بالعبادة.

٣٥٧٦. تفيد أن النار موجودة ومخلوقة الآن لقوله: ﴿ أَعَدَّ ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة وغيرهم ممن أنكر ذلك.

٣٥٧٧. تفيد التخويف والترهيب من عذاب الله ﷻ. وبيان أنه عذاب مهين بالغ في الإهانة غايته.

٣٥٧٨. فيها: قوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تذييل قصد به تشجيع المؤمنين على مقاتلة أعدائهم وأخذ الحذر منهم. أي: إن الله تعالى أعد لأعدائكم الكافرين عذاباً مذلاً لهم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبنصركم عليهم وإذهاب صولتهم ودولتهم، كما قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]. وأما في الآخرة فبالعذاب الذي يهينهم ويذلهم ولا يستطيعون منه نجاة أو مهربا. وإذا كان الأمر كذلك فباشروا – أيها المؤمنون– الأسباب التي توصلكم إلى النصر عليهم.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

٣٥٧٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ لما علمهم بما يفعلون في الصلاة حال الخوف، أتبع ذلك ما يفعلون بعدها لئلا يظن أنها تغني عن مجرد الذكر، فقال مشيراً إلى تعقيبه به: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي فرغتم من فعلها وأديتموها على حالة الخوف أو غيرها ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي بغير الصلاة لأنه لإحاطته بكل شيء يستحق أن يراقب فلا ينسى ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ أي في كل حالة، فإن ذكره حصنكم في كل حالة من كل عدو ظاهر أو باطن. ولما كان الذكر أعظم حفيظ للعبد، وحارس من شياطين الإنس والجن، ومسكن للقلوب ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ أشار إلى ذلك بالأمر بالصلاة حال الطمأنينة، تنبيهاً على عظم قدرها،

وبياناً لأنها أوثق عرى الدين وأقوى دعائمه وأفضل مجليات القلوب ومهذبات النفوس، لأنها مشتملة على مجامع الذكر ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي عما كنتم فيه من الخوف﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فافعلوها قائمة المعالم كلها على الحالة التي كنتم تفعلونها قبل الخوف؛ ثم علل الأمر بها في الأمن والخوف والسعة والضيق سفراً أو حضراً بقوله:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ مظهراً لما كان الأصل فيه الإضمار تنبيهاً على عظيم قدرها بما للعبد فيها من الوصلة بمعبوده﴿ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا ﴾ أي هي – مع كونها فرضاً – جامعة على الله جمعاً لا يقارنها فيه غيره ﴿مَّوْقُوتًا﴾ أي وهي – مع كونها محدودة – مضبوطة بأوقات مشهورة، فلا يجوز إخراجها عنها في أمن ولا خوف فوت – بما أشارت إليه مادة وقت للأبدان بما تسبب من الأرزاق. وللقلوب بما تجلب من المعارف والأنوار.

٣٥٨٠. فيها تعظيم قدر الصلاة.

٣٥٨١. فيها بيان أهمية الذكر وفضله، ومشروعيته في كل حال.

٣٥٨٢. تفيد تقديم الذكر المخصوص على الذكر المطلق فالصلاة ذكر مخصص ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من الذكر المخصص ابتدأ بالذكر المطلق ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

٣٥٨٣. تشير: إلى أن الصلاة: ديْن، وحق لله ﷻ. لقوله: ﴿ قَضَيْتُمُ﴾ ومنه: قضى فلان دينه. وفي الحديث: "فدين الله أحق أن يقضى".

٣٥٨٤. فيها أن الذكر الذي هو غذاء القلب غير مقيد بزمان ولا هيئة ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ ولذا كان ﷺ يذكر الله في كل أحايينه.

٣٥٨٥. تفيد أن ما بعد الصلاة وقت للذكر وليس للدعاء، فالدعاء يناسب حال الصلاة لأن العبد في صلة بربه. فهذه الآية مما استدل به على بدعية الدعاء الجماعي عقب الصلوات المفروضة.

٣٥٨٦. فيها: ذكر الله تعالى جلاء للعمل، وتنقية له مما يعتريه من الشوائب والكدورات.

٣٥٨٧. فيها: الموفق من كان ذكر الله ﷻ ملازماً له في جميع أحواله.

٣٥٨٨. تفيد الحث على الإكثار من ذكر الله ﷻ في جميع الأحوال والهيئات، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد؛ منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه. وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه. ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها. ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب. ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحِكَم. [السعدي]

٣٥٨٩. تفيد الحث على ذكر الله ﷻ في كل الأوقات والهيئات، وقد قالت عائشة ؓ: كان النبي ﷺ يذكر الله في كل أحيانه. متفق عليه.

٣٥٩٠. فيها: بيان حب الله ﷻ أن يذكره عبده على كل حال؛ فالعبد لا يخلو من إحدى هذه الحالات.

٣٥٩١. تفيد فضل الذكر؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[الجمعة:١٠] قال ابن رجب: " الأعمال كلها يفرغ منها، والذكر لا فراغ له، ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شـــيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. المؤمن يعيش على الذكر، ويموت عليه، وعليه يبعث". وقال:" وفي الأمر بالذكر عند انقضاء النسك معنى وهو أن ســائر العبادات تنقضــي ويفرغ منها وذكر الله باق لا ينقضــي ولا يفرغ منه بل هو مســتمر للمؤمنين في الدنيا والآخرة".

٣٥٩٢. فيها: إشارة إلى: أن الذكر من أسباب نصـر الله لعباده المؤمنين. وتصـديقه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. لأنه من أعظم أسباب طرد الخوف والثبات في وجه العدو وإلحاق الهزيمة به.

٣٥٩٣. فيها: مشـروعية ذكر الله تعالى عقب الصـلاة، وفي ختام الأعمال الصـالحة كالحج: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وكصوم رمضان:﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٣٥٩٤. فيها: لا يشــــترط المكوث في المكان حتى الانتهاء من الذكر، بل له أن يذكر الله ولو بعد انصرافه﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ على أي حال.

٣٥٩٥. فيها إشارة إلى أن من بركة الطاعة أن تعقبها طاعة أخرى.

٣٥٩٦. في الآية إشارة إلى نقص صلاة الخوف فجبرت بالذكر على جميع الأحوال. لكن حالة الطمأنينة تفرض عليهم إقامة الصلاة كاملة الذكر والأركان.

٣٥٩٧. فيها: من فوائدِ تخصيصِ الذِّكر بعد صـلاة الخوفِ: أنَّ الخوفَ يوجِبُ مِن قلقِ القلبِ وخوفِه ما هو مَظِنَّةٌ لضَعفِه، وإذا ضعُفَ القلبُ ضعُفَ البدنُ عن مقاومة العدوِّ، والذِّكرُ لله ﷻ والإكثارُ منه مِن أعظمِ مقوِّيات القلبِ.

٣٥٩٨. فيها التنبيه على أهمية الطمأنينة في الصــلاة وعند أدائها لما لها من أثر في إقامتها؛ ولذا شـرع البعد عن كل ما يشـغل في الصـلاة فلا يصـلي وهو بحضـرة طعام يشـتهيه، ولا هو يدافع

الأخبثين، ونهي عن زخرفة المساجد. ونحو ذلك؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولما ذكر ﷻ صلاة الخوف قال:﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ فالإقامة المأمور بها حال الطمأنينة لا يؤمر بها حال الخوف. مجموع الفتاوى [٢٢/٦٠٩].

٣٥٩٩. تفيد: الحث على تأدية الصلاة تامة كاملة وافية؛ بسننها، وأركانها، وواجباتها عند الأمن والطمأنينة [وهو الأصل]؛ والتي من جملتها تسوية الصفوف، وفي الحديث: "فإن تسوية الصف من إقامة الصلاة". رواه البخاري؛ لقوله:﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ فكل ما كان في معنى الإقامة يدخل فيه. وعليه فتفيد: قاعدة فقهية وهي: "استصحاب الأصل، وإبقاء ما كان على ما كان". ووجهه: أنه تعالى ذكره -: رخص لهم في عددها، وهيئتها؛ خلافا للأصل. فإذا زال الخوف وجب استصحاب الأصل! من إتمام العدد والهيئة. ونظيره: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

٣٦٠٠. تفيد دقة القرآن الكريم في اختيار الفاظه بما يستوفي المعنى المراد فقد يراد بقوله:﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ أنْ يَكُونَ المرادُ مِنَ الِاطْمِئْنانِ أنْ لا يَبْقى الإنْسانُ مُسافِرًا، بَلْ يَصِيرُ مُقِيمًا، وعَلى هَذا التَّقْدِيرِ يَكُونُ المرادُ: فَإذا صِرْتُمْ مُقِيمِينَ فَأقِيمُوا الصَّلاةَ تامَّةً مِن غَيْرِ قَصْرٍ البَتَّةَ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ المرادُ مِنَ الِاطْمِئْنانِ أنْ لا يَبْقى الإنْسانُ مُضْطَرِبَ القَلْبِ، بَلْ يَصِيرُ ساكِنَ القَلْبِ ساكِنَ النَّفْسِ بِسَبَبِ أنَّهُ زالَ الخَوْفُ، وعَلى هَذا التَّقْدِيرِ يَكُونُ المرادُ: فَإذا زالَ الخَوْفُ عَنْكم فَأقِيمُوا الصَّلاةَ عَلى الحالَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْرِفُونَها، ولا تُغَيِّرُوا شَيْئًا مِن أحْوالِها وهَيْآتِها وكلاهما مقبول.

٣٦٠١. في الآية مراعاة الإسلام الواقعية في قضاء الصلاة حال الخوف بطريقة تتناسب مع وضع المجاهدين الخائفين من غدر العدو. والرجوع إلى المثالية عند زوال ذلك العذر﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ وفي وقتها.

٣٦٠٢. فيها: قوله:﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ ولم يقل فأدوا يفيد أن المقصود ليس الأداء الذي لا يثمر وإنما الاتقان؛ حتى يكون لها وقع وتأثير.

٣٦٠٣. فيها: دل قوله:﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل.

٣٦٠٤. فيها: أكد الله- تعالى- فرضية الصلاة، ووجوب أدائها في أوقاتها بإن المفيدة للتأكيد، والإظهار في موضع الإضمار، وبـ [كان] المفيدة للدوام والاستمرار، والحصر ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وبالتعبير عن الصلاة بأنها كتاب، وهو تعبير عن الوصف بالمصدر فيفيد فضل توكيد، وبقوله: ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإن هذا التركيب يفيد الإلزام والحتمية. وختم الآية بقوله تعالى:﴿مَّوۡقُوتٗا﴾ وكل ذلك لكي يحافظ المؤمنون عليها محافظة تامة دون أن يشغلهم عنها شاغل، أو يحول بينهم وبين أدائها حائل.

٣٦٠٥. تفيد أن الوقت هو آكد شروط الصلاة. ويدل على ذلك أيضا ما مضى من مراعاة الصلاة في الوقت في حال الخوف وعدم التأخير إلى حصول الأمن.. فالله تعالى لَمَّا ذكَر صلاةَ الخوف ثمَّ صلاةَ الأمنِ بيَّن أنَّ هذا مِن أجل مراعاةِ الوقتِ، والأمرُ كذلك، أي: إنَّ الوقت مقدَّمٌ على جميعِ الشُّروط؛ ولهذا إذا لم تجِدْ ماءً فتيمَّمْ، حتَّى تصلِّيَ في الوقت، وإذا لم تجدْ ماءً ولا ترابًا صلِّ على حسَب حالِك، وإذا لم تجدْ ثوبًا تستُرُ به العورةَ صلِّ على حسَب حالك، ولا تنتظر حتَّى تحصُلَ على ثوبٍ؛ لأنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على كلِّ شيء.

٣٦٠٦. تفيد أن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو أو نحوهما، قال ابن عباس: موقوتاً مفروضاً، والوقوت الواجب، فلا بد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدّر فيه.

٣٦٠٧. تفيد أهمية تعلم وحفظ ومعرفة مواقيت الصلاة، وقد ورد في بيانها أحاديث كثيرة.

٣٦٠٨. تفيد: التحذير من تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها، كما لا يجوز تقديمها على وقتها.

٣٦٠٩. فيها توجيه لتعظيم شأن الوقت، واحترام المواعيد..

٣٦١٠. يستفاد من الآية ترتيب المهام والأعمال وتنظيم وإدارة الوقت إدارة حسنة والاستفادة منه استفادة تامة بما يفيد الإنسان. والدليل على ذلك أن الذكر من المطلوبات الدائمة على جميع الأحوال للإنسان، بينما الصلاة تؤدى قصراً وتماماً على حسب المتغيرات والظروف التي تحل بالإنسان.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

٣٦١١. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ وذلك أنه لما شرع صلاة الخوف لعباده المؤمنين؛ نهاهم أن يهنوا في ابتغاء القوم؛ وذلك في إشارة واضحة إلى أنه ينبغي أن لا يكون للخوف مجال في نفوس المؤمنين؛ بل إن عليهم أن يتشجعوا لطلب مواجهة القوم؛ وبعبارة أخرى: إن الله ﷻ ما شرع قصر الصَّلاةِ ولا ذكر أحوال صَلاةِ الخَوْفِ، إلا تحقيقاً لنفي الوهن والضعف في الجهاد في سبيل الله.

٣٦١٢. فيها مع ما قبلها: أن يأخذ المسلمون حذرهم من هجوم الكافرين عليهم، وحث للمجاهدين على مهاجمة الكافرين المحاربين، وعدم التواني عن غزوهم، وملاحقتهم، والتربص بهم.

٣٦١٣. تفيد مع ما قبلها رداً على الدراويش والصوفية ممن يرون أن ملازمة الأذكار ومجاهدة النفس بتلك الأذكار تغني عن المواجهة الحقيقية مع أعداء الملة؛ فأصبحوا مع هذه الأذكار متقوقعين على أنفسهم؛ لا يهمهم شأن الأمة؛ ولا يسعون إلى مجاهدة الأعداء؛ بل وصل ببعضهم إلى القول: بأن مجاهدة النفس بالأذكار والرياضة الروحية أولى من مجاهدة الأعداء؛ ويروون في ذلك حديثاً لا يصح عن النبي ﷺ: رجعنا من الجهاد الأصغر -يعني جهاد الكفار- إلى الجهاد الأكبر -يعني جهاد النفس-؛ ولهذا قال تعالى بعد أن أمر بملازمة الأذكار: ﴿وَلَا

﴿ تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ وذلك في إشـارة إلى أن ملازمة الأذكار تمنح للعبد قوة في مواجهة القوم الكافرين لا التخاذل والخوف والجبن منهم.

٣٦١٤. ومن المناسبات: أن الصلاة والذكر عون على القتال، وعدم الضعف في طلب الكفار.

٣٦١٥. فيها زيادة في تشـــجيع المؤمنين على قتال الأعداء، وفي تهوين الأعداء في قلوب المسلمين، لأن المشركين كانوا أكثر عدداً من المسلمين وأتم عدة، وما كان شرع قصر الصلاة وأحوال صلاة الخوف، إلا تحقيقا لنفي الوهن في الجهاد [ابن عاشور رحمه الله].

٣٦١٦. تفيد مع ما قبلها أن ذكر الله سبحانه وتعالى علاج للآلام الحسية والمعنوية.

٣٦١٧. فيها مع ما قبلها: تتواصل آيات الجهاد، لتبين أن وهن القلب جالب لوهن البدن، وأن صاحب الأهداف العالية والمقاصد السامية لا يضعف وإن لحقه العنت والألم، فنصر الحق ونشر الخير تهون دونه كل المشاق، وهو يعلم أن صعوبات الطريق قربات ودرجات ومنح، وأن الله معه وناصره، وأن الله يعلم ما يصلح العباد، في الدنيا والمعاد، وأنه حكيم في أمره ونهيه وسائر شرعه.

٣٦١٨. هذه الآية من الآيات التي ترك الناس العمل بها فذلوا، ولن يعز الله المســـلمين إلا برجوعهم إلى دينهم، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، والله المستعان.

٣٦١٩. تفيد أهمية بناء العقيدة الصــحيحة في نفوس المقاتلين فإن قوة الجيوش كما هو معلوم ليس في عددها ولا عددها وإنما في العقيدة التي يقاتلون من أجلها، فهم يرجون الثبات والنصر وهو من الله الذي وعدهم به، ويرجون الأجر وهو من عند الله الذي لا يضـيع أجر العاملين المجاهدين.

٣٦٢٠. في الآية إشـارة إلى الإعداد لملاقاة العدو لكي لا يقع الوهن المادي، والإعداد الروحي بالإيمان والعمل الصالح لكي لا يقع الوهن المعنوي.

٣٦٢١. تفيد أن من أعظم ما يجلب الوهن والضـعف هو النظر إلى الآلام النفسـية والجسدية التي تنزل بالعبد دون النظر إلى ثواب الله تعالى، والأجور الأخروية المعدة لـه من جراء تلك

الآلام؛ فالمؤمن مطالب بأن يوازن أحواله؛ ويربط مشاعره بما يرضي الله تعالى؛ ولهذا فإن النظرة الدنيوية القاصرة هي أعظم ما يجلب الوهن والضعف في النفوس؛ وعلى المؤمنين الحذر من ذلك.

٣٦٢٢. تفيد أن النصر حليف لمن يصبر أكثر؛ ويتحمل الآلام أكثر من غيره؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "واعلم أن النصر مع الصبر".

٣٦٢٣. تفيد أهمية تدريب الجنود المجاهدين على طرق وكيفيات تحمل الآلام التي تحصل لهم في المعارك مع الكفار؛ والتركيز على الجوانب الروحية في ذلك؛ وهي نقطة فارقة بين المجاهدين والأعداء.

٣٦٢٤. فيها: تمتازون أيها المؤمنون بسعيكم لهدف من قتالكم لا يسعى إليه عدوكم ولا يؤمنون به وهو الشهادة في سبيل الله، وما يتبعها من رضوان الله، وما أعدَّه الله للشهيد من الفضل والمكانة في الآخرة. بينما يظن أعداؤكم أنهم إلى تراب ولا بعث بعد الموت فيعتقدون أن فقدان الحياة الدنيا هو أقصى الخسران وأعظمه.

٣٦٢٥. فيها: يفيد التعبير بقوله تعالى:﴿إِن تَكُونُواْ﴾ إشارة لطيفة إلى أن من طبع المجتمع المؤمن أن يكتم ألمه ومصابه ولا يظهره للناس؛ بدلالة [إن] التي تفيد الشك والقلة؛ ولهذا لعن رسول الله ﷺ النائحة لما تجدد بنوحها من الآلام للمستمعة؛ والتي هي أيضاً [المستمعة] ملعونة لاستماعها وسعيها لتجديد آلامها.

٣٦٢٦. فيها: التعبير ب[إن] في قوله تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ ﴾ فيه تسلية للمؤمنين لأن [إن] يعبر بها للشيء العرضي الزائل فيفهم من هذا أنه إن حصل لكم ألم وقد لا يحصل حينئذ ينبغي أن تلتفت أنظاركم إلى المآلات والعواقب. وقوله:﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ ﴾ يفيد أن ألم الكفار ملازم وثابت ومحقق، أما الألم الذي يصيب المؤمنين فإنه عرضي.

٣٦٢٧. فيها: قوله:﴿ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ يفيد أن المماثلة قد تحصل بأدنى وصف يشترك فيه الطرفان ولا يشترط أن تكون من كل وجه.؛ وهذا يفيدنا أن صفات الله تعالى التي أثبتها لبعض خلقه لا تقتضي المشابهة والمماثلة.

٣٦٢٨. فيها تذكير بفضل الله ﷻ على أهل الإيمان وما أعده لهم.

٣٦٢٩. تفيد أن الرجاء عبادة جليلة لا تكون إلا لله ﷻ؛ فالرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله ﷻ، وصرفه لغير الله تعالى شرك إما أصغر، وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي. والرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله ورجا ثوابها، أو تاب من معصيته ورجا قبول توبته، فأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍّ مذموم.

٣٦٣٠. تفيد أن الرجاء من الله تعالى عقيدة مؤصلة في المجتمع المؤمن؛ ولا تقبل الشك أو الطعن؛ ولهذا قال تعالى:﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ بصيغة التأكيد والجزم؛ ولم يقل كما قال في الألم: [وإن تكونوا ترجون من الله].

٣٦٣١. تفيد أنَّه ينبغي للإنسان إذا عمِل العملَ الصَّالحَ أن يكون راجيًا؛ لقوله:﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ ويكون هذا الرَّجاءُ عند ابتغاء القومِ وطلَبِهم، وهكذا ينبغي للإنسانِ إذا وفَّقه اللهُ للعبادةِ أن يكون راجيًا، أي: راجيًا ثوابَها؛ لأنَّ مِن بشرى الإنسان أن يُوفَّق للعبادةِ؛ فمَن وُفِّق للعبادة على ما يُرضي اللهَ، فهي بُشرى بالقَبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّق للدُّعاءِ فهو بشرى بالإجابة.

٣٦٣٢. فيها الإشارة الى أن المؤمن والكافر يشتركان في شيء ويختلفان في آخر فيتفقان في الآلام الدنيوية نتيجة القتال ويختلفان في المآلات الأخروية﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ ولذا قال ﷺ يوم بدر: "لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار" وكفى بها ميزة وحث على الجهاد.

٣٦٣٣. فيها حث للعبد المؤمن على استحضار الإخلاص لله سبحانه في كل شؤونه، مع حسن الظن بربه جل وعلا بمجازاته على إحسانه.

٣٦٣٤. فيها: أن أهل الإيمان قلوبهم معلقة بربهم فحسب، في نصرهم على عدوهم؛ وإن امتلكوا الأسباب، والسلاح. وهذا هو السر في نصرهم، على أعدائهم؛ وإن فاقهم عدة وعددا.

٣٦٣٥. في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يُشهَدُ لمن قتل في المعركة بأنَّه شهيد؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ والرَّجاءُ قد يتحقَّقُ وقد لا يتحقَّق؛ ولهذا نُهِيَ أن نقولَ عن شخص معيَّنٍ بأنَّه شهيد، إلَّا مَن شهد له الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فمن شهِد له الرَّسولُ ﷺ بالشَّهادة شهِدنا له، وكذلك مَن شهِد له القرآنُ؛ كما في غزوة أُحُد.

٣٦٣٦. في الآية تربية على بذل الجهد، وتسليط الهمة على معالي الأمور، وتذليل الصعوبات والعقبات؛ لبلوغ المطلوب، وعدم الالتفات إلى المعوقات والمثبطات..

٣٦٣٧. في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ لينبهنا على علمه الكامل بمن يرجو من الله حقيقة؛ وفي هذا دعوة إلى الإخلاص والافتقار إلى الله بالرجاء، وفيه من قمع عجب النفس بالجهاد ما الله به عليم.

٣٦٣٨. فيها: إذا كان الله عليماً بالكافرين وبحقيقة كيدهم ومكرهم، فليثق المؤمنون بحكمته حين أمرهم بقتالهم..

٣٦٣٩. تفيد بإشارة لطيفة إلى أن المعارك والمواجهات الحربية بين المؤمنين والكفار يجب أن تتم وتكون على أساس عقدي صحيح؛ وليس على مصالح قومية وحزبية أو فئوية؛ وكل وهن وضعف يقع في المؤمنين في هذا السبيل فسببه خلل في هذا الأساس العقدي. لأن الله ﷻ قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وما الذي يرجوه القوميون والحزبيون في معاركهم مع الكفار؟؟؟!.

٣٦٤٠. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: منه. وعندي أن في حذف هذا المعلوم إشارة إلى كبرياء الله تعالى وترفعه من أن يذكر ضمير راجع إليه في جانب بيان عقيدة هؤلاء الكفار في الرجاء.

٣٦٤١. فيها: قوله: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ذكر المتعلق ليفيد أن المؤمنين يرجون من الله وحده. وحذف متعلق ﴿مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ إشعاراً بأن الكفار تكثر محال رجائهم.

٣٦٤٢. فيها: حذف معمول ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يدل على العموم؛ فرجاء المؤمن لله هو في كل وقت، وفي كل حال، وفي كل زمان، على كل شيء يريد فعله أو دفعه من الله ﷻ.

٣٦٤٣. تفيد ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، وهو: الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى. الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم كامل الحكمة. [السعدي].

٣٦٤٤. تفيد أن كل ألم ومصيبة تقع على المؤمنين وكذا الكفار فهو بعلم الله تعالى وبحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٣٦٤٥. تفيد أن من أعظم ما يخفف آلام المؤمن هو يقينه بأن له إلهاً يعلم حاله وآلامه؛ ويقضي له أو عليه بحكمته البالغة؛ فيومن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه؛ وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٣٦٤٦. تفيد إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى؛ وهما: العليم والحكيم.

٣٦٤٧. تفيد إثبات صفتي العلم والحكمة لله ﷻ.

٣٦٤٨. تفيد إثبات كمال الله ﷻ في حكمته تعالى؛ حيث قرن بين العلم والحكمة إشارة إلى أن حكمته صادرة عن علم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

٣٦٤٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما كان أول هذه القصص والتعجيب من حال الذين أوتوا نصيباً من الكتاب في ضلالهم وإضلالهم، ثم التعجيب من إيمانهم بالجبت والطاغوت، ثم التعجيب من حال من ادعى الإيمان بهذا الكتاب مع الكتب السالفة، ثم رضي بحكم غيره، وساق ﷻ أصول ذلك وفروعه، ونصب الأدلة حتى علت على الفرقدين، وانتشر ضياؤها على جميع الخافقين، وختم ذلك بمجاهدة المبطلين بالحجة والسيف، وسوّر ذلك بصفتي العلم والحكمة؛ ناسب أتم مناسبة الإخبار بأنه أنزل هذا الكتاب بالحق وبيّن فائدته التي عدل عنها المنافقون في استحكام غيره فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾ أي بما لنا من العظمة التي تتقاصر دونها كل عظمة ﴿إِلَيۡكَ﴾ أي خاصة وأنت أكمل الخلق ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الكامل الجامع لكل خير ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ملتبساً بما يطابقه الواقع ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي عامة، لأن دعوتك عامة فلا أضل ممن عدل عن حكمك وابتغى خيراً من غير كتابك، وأشار إلى أنه لا ينطق عن الهوى بقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي عرفك الذي له القدرة الشاملة والعلم الكامل، فإن كان قد بيّن لك شيئاً غاية البيان فافعله، وإلا فانتظر منه البيان؛ ثم شرع ﷻ في إتمام ما بقي من أخبارهم، وكشف ما بطن من أسرارهم، وبيان علاماتهم ليعرفوا، ويجتنبها المؤمنون لئلا يوسموا بميسمهم. ولما كان ﷻ قد خفف عليه ﷺ بأن شرع له القناعة في الحكم بالظاهر وعدم التكليف بالنقب عن سرائرهم بالدفع عن طعمة بن أبيرق، لأن أمره كان مشكلاً، فإنه سرق درعاً وأودعها عند يهودي، فوجدت عنده فادعى أن طعمة أودعها عنده، ولم يثبت ذلك على طعمة حتى أنزل الله ﷻ الآية، فأراد تعالى إنزاله في

هذه النازلة وغيرها مما يريده ﷻ في المقام الخضري من الحكم بما في نفس الأمر مما لا يعلمه إلا الله ﷻ إذ كان الصحيح الذي عليه الجمهور - كما نقله شيخنا قاضي الشافعية بمصر أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر رحمه الله في الإصابة في أسماء الصحابة - أن الخضر عليه الصلاة والسلام نبي، وكان نبينا ﷺ قد أعطى مثل جميع معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم مع ما اختص به دونهم - على جميعهم أفضل الصلاة وأتم التسليم والبركات، فقال تعالى عاطفاً على ما علم تقديره من نحو: فاحكم بما نريك من بحار العلوم التي أودعناها هذا الكتاب:﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ أي لأجلهم، من طعمة وغيره﴿خَصِيمًا﴾ أي مخاصماً لمن يخاصمهم. [نظم الدرر].

٣٦٥٠. تفيد علوَّ اللهِ ﷻ؛ لقوله:﴿ أَنزَلْنَآ ﴾ والنُّزولُ لا يكون إلَّا من عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ نازلًا لزِم أن يكونَ المتكلِّمُ به عاليًا.

٣٦٥١. فيها: تسمية القرآن بالكتاب، وأنه حق وجد، وليس بالهزل.

٣٦٥٢. فيها أن الله تعالى وصف ما أنزله على رسوله في الكتاب بالحق. وقد جاء هذا الوصف في القرآن في أكثر من مئة موضع. فالله تعالى هو الحق. وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق. وبالحق أنزل القرآن وبالحق نزل. ليحكم بين الناس بالحق. وخلق السموات والأرض بالحق. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون. كما أن الله أنزل على رسوله الكتاب بالحق. فكان الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق كما قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق ". أخرجه أبو داود وأحمد بإسناد صحيح.

٣٦٥٣. تفيد أن إنزال الكتب من أعظم نعم الله ﷯ على العباد فبه هدايتهم وسعادتهم.

٣٦٥٤. تفيد جواز ذكر الشيء على ما سيكون عليه؛ فالقرآن الكريم كانت آياته مكتوبة في صحف؛ وإنما جمعت تلك الصحف في كتاب بعد ذلك؛ وفي هذا إعجاز غيبي للقرآن الكريم.

٣٦٥٥. فيها: وجوب تحكيم القرآن في جميع شـــؤون الحياة كلها؛ حتى قلامة الظفر؛ لقوله:﴿ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

٣٦٥٦. فيها: بيان مكانة السنة في الإسلام. وعليه ففيها: رد على المارقين، الذين يسمون زوراً بـ"القرآنين".

٣٦٥٧. فيها وجوب التحاكم إلى كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ.

٣٦٥٨. فيها: حاجة العبد لإلهام الله ﷻ وتوفيقه؛ لقوله:﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ بما علمك وألهمك. قال القرطبي: معناه على قوانين الشرع؛ إما بوحي ونص، أو بنظر جار على سنن الوحي. وهذا أصل في القياس..

٣٦٥٩. فيها: إشارة إلى: أن من يحكم بالحق، يوفقه الله إليه، ويريه إياه.

٣٦٦٠. فيها: رؤية العبد للحق والاهتداء له بتوفيق الله فكم من الناس عميت أبصـــارهم عنه فما رأوه ولا اهتدوا إليه؛ اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعك وأرنا الباطل باطل وارزقنا اجتنابه.

٣٦٦١. فيها: إشارة إلى: عصمة النبي ﷺ في التبليغ، والحكم.

٣٦٦٢. فيها تشـريف للنبي ﷺ، وإرشـاد إلى ما يجب أن يكون عليه الحاكم أو القاضـي من عدالة ونزاهة.

٣٦٦٣. فيها دليل على عصمته ﷺ فيما يُبَلّغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم العلم والعدل لقوله:﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتَّب أيضـا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب. [السعدي].

٣٦٦٤. فيها: اشارة إلى: رفعة هذه الشريعة الإسلامية، وأنها مبنية على العدل؛ حيث علم الله ﷻ نبيه الحكم بالحق، وأمره بذلك؛ فامتثل النبي ﷺ أمر ربه فحكم به بين الناس، ولم يحاب قريبا، ولم يفرق بحكمه بالحق بين كافر ومســلم، لقوله:﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً، وليس بين المسلمين فحسب.

٣٦٦٥. تفيد أن مهمة الإمام هو الحكم بين الناس والجلوس بينهم؛ لا أن يحبس نفسه في السرداب ويختفي عن عيون الناس؛ وفي هذا رد على الشيعة الإمامية في ضلالاتهم وخرافاتهم في مسألة غيبة الإمام؛ حيث ادعوا أنه غاب غيبة صغرى ثم غيبة كبرى؛ فوا أسفى؛ من الذي غاب؛ هل غاب إمامهم أم غابت عقولهم؟؟!

٣٦٦٦. تفيد عموم بعثة النبي ﷺ للناس؛ وأن على عموم الناس مؤمنهم وكافرهم طاعة النبي ﷺ والامتثال لأحكامه؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الشريعة المحمدية ستبلغ ما بلغ الليل والنهار؛ وأن ورثة النبي ﷺ من الخلفاء والعلماء سيحكمون بين الناس على منهاج النبوة.

٣٦٦٧. فيها: في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أسند الأمر إلى الله تعالى؛ فدل على أن النبي ﷺ كان متبعاً لا مبتدعاً؛ ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ في ثلاث آيات. وقد أمره الله تعالى بذلك: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون مبينا مغبة ذلك؛ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة:١٢٠] فإذا كان هذا في حق المعصوم ﷺ فكيف بمن دونه ففيها تحذير من الابتداع في الدين؛﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢].

٣٦٦٨. فيها: قوله:﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ خاص بنبيه ﷺ ومفهومه يفيد: وجوب الاجتهاد وبذل الوسع على أمته في معرفة الحق. قال ابن كثير: احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية.

٣٦٦٩. في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ وتكريم وتعظيم وتفويض إليه، وتقويم أيضا على الجادة في الحكم.. [القرطبي].

٣٦٧٠. فيها: ذم الخائن، وفي الحديث: "لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة". رواه مسلم.

٣٦٧١. تفيد: حرمة الجدال، والدفاع عن أهل الباطل؛ لقوله:﴿ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ وتفيد [بالمفهوم]: الدفاع عن المظلوم، والجدال عنه؛ لإظهار الحق الذي عنده.

٣٦٧٢. فيها: أنه لا يجوز لأحد أن يدافع عن مدعي حق، قبل التثبت من صحة دعواه. [للمحامين خاصة].

٣٦٧٣. فيها: ترهيبُ المسلِم مِن أن يعلَمَ مِن الظَّالم كونَه ظالِمًا ثمَّ يُعِينَه على ذلك الظُّلم، ويحمِلَه عليه ويرغِّبَه فيه؛ لقوله:﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾. قال القرطبي: قال العلماء: لا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم.

٣٦٧٤. فيها دليلٌ على تحريمِ الخصومةِ في باطلٍ، والنِّيابةِ عن المبطِلِ في الخصوماتِ الدِّينيَّة والحقوقِ الدُّنيويةِ. وهو بابٌ في غايةِ الأهميةِ للمُحامين وغيرِهم.

٣٦٧٥. تفيد النهي عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل لذلك قال:﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تخاصم عن مَن عرفت خيانته، من مدع ما ليس له، أو منكرٍ حقا عليه، سواء علم ذلك أو ظنه.

٣٦٧٦. تفيد النهي عن الدفاع عن ولاة الجور والثناء عليهم.

٣٦٧٧. فيها النهي عن الدفاع عن أئمة الضلال والباطل. ويشمل ذلك دعاة الضلالة والبدعة وكل خائن وتحسين ضلالهم والمجادلة عنهم.

٣٦٧٨. فيها، وبضميمة ما بعدها: أن الاستغفار سبب في التوفيق؛ في الأمور عامة، والخصومات ومعرفة الحق من الباطل خاصة. لأنه قال بعدها: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٦] بعد أن نهاه أن يدافع، ويتخذ الخائنين خصيما. وكأنه يقول: وإذا أردت أن توفق إلى هذا فعليك بالاستغفار. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] قوتكم في كل شيء؛ الذي من جملته الفهم. فعلى القضاة الذين يحكمون في أعراض المسلمين ودمائهم وأموالهم، أن يتقوا الله في السر والعلن. وعلى كل مسلم أن يكثر من الاستغفار ليفتح له أبواب التوفيق والسداد. قال الشيخ العثيمين رحمه الله، في الشرح الممتع [٢٣/١]: واستنبط بعض العلماء من هذه الآية أنَّه ينبغي للإنسان إذا

نزلت به حادثةٌ، سواءٌ إفتاء أو حكم قضائيٌّ، أن يُكْثِرَ من الاستغفار؛ لأنَّ الله قال: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ وهذا ليس ببعيد؛ لأنَّ الذُّنوب تمنع من رؤية الحقِّ، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٦ - ١٠٧].

٣٦٧٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما كان ﷻ قد خفف عليه ﷺ بأن شرع له القناعة في الحكم بالظاهر وعدم التكليف بالنقب عن سرائرهم بالدفع عن طعمة بن أبيرق، لأن أمره كان مشكلاً، فإنه سرق درعاً وأودعها عند يهودي، فوجدت عنده فادعى أن طعمة أودعها عنده، ولم يثبت ذلك على طعمة حتى أنزل الله ﷻ الآية... فقال تعالى عاطفاً على ما علم تقديره من نحو: فاحكم بما نريك من بحار العلوم التي أودعناها هذا الكتاب: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ ﴾ أي لأجلهم، من طعمة وغيره ﴿ خَصِيمًا ﴾ أي مخاصماً لمن يخاصمهم. وأتبع ذلك قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له الإحاطة التامة والغنى المطلق ﴿ كَانَ ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾... وقد روى الترمذي سبب نزول هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] من وجه مستقص مبين بياناً شافياً وسمى بني أبيرق بشراً وبشيراً ومبشراً، ولم يذكر طعمة - والله ﷻ أعلم، قال: عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير ومبشر، فكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث قال: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح درع وسيف، فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي إنه قد عدى

علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا – ونحن نسأل في الدار –: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل – رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقةَ! قالوا: إليك عنا أيها الرجل! فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي! لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له! قال قتادة: فأتيته، فقال النبي ﷺ: سآمر في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة، فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت! قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح! ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة! قال: فقال لي عمي: يا ابن أخي! ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان! فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿خَصِيمٗا﴾ بني أبيرق،﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ مما قلت لقتادة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤]؛ فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وروى الحديث ابن إسحاق في السيرة وزاد: إن حساناً قال في نزوله عندها أبياتاً فطردته، فلحق بالطائف فدخل بيتاً ليسرق منه، فوقع عليه فمات، فقالت قريش: والله ما يفارق محمداً من أصحابه أحد فيه خير. ولما نهاه عن الخصام لمطلق الخائن، وهو من وقعت منه خيانة ما؛ أتبعه النهي عن المجادلة عمن تعمد الخيانة فقال ﷻ:﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ ﴾ أي في وقت ما ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ﴾ أي يتجدد منهم تعمد أن يخونوا ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ بأن يوقعوها في الهلكة بالعصيان فيما

اؤتمنوا عليه من الأمور الخفية، والتعبير بالجمع – مع أن الذي نزلت فيه الآية واحد – للتعميم وتهديد من أعانه من قومه، ويجوز أن يكون أشـــار بصـــيغة الافتعال إلى أن الخيانة لا تقع إلا مكررة، فإنه يعزم عليها أولاً ثم يفعلها، فأدنى لذلك أن يكون قد خان من نفســـه مرتين، قال الإمام ما معناه أن التهديد في هذه الآية عظيم جداً، وذلك أنه ﷻ عاتب خير الخلق عنده وأكرمهم لديه هذه المعاتبة وما فعل إلا الحق في الظاهر، فكيف بمن يعلم الباطن ويســـاعد أهل الباطل؟ فكيف إن كان بغيرهم؟ ثم أشـار ﷻ إلى أن من خان غيره كان مبالغاً في الخيانة بالعزم وخيانة الغير المســتلزمة لخيانة النفس فلذا ختمت بالتعليل بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي الجليل العظيم ذا الجلال والإكرام﴿لَا يُحِبُّ﴾ ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ بصـيغتي المبالغة – على أن مراتب المبالغين في الخيانة متفاوتة، وفيه مع هذا اسـتعطاف لمن وقعت منه الخيانة مرة واحدة، وقدم ﷻ ذلك، لأن فيه دفعاً للضـر عن البريء وجلباً للنفع إليه؛ ثم أتبعه بعيب هذا الخائن وقلة تأمله والإعلام بأن المجادلة عنه قليلة الجدوى.

٣٦٨٠. فيها مع ما قبلها: الآيات الســابقة في ســياق تقرير الشــدة والأزمة التي تمر بها الأمة والحث على عدم الإحباط في هذه المرحلة؛﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وحذرت التي تليها من بعض إفرازات الإحباط: [المداهنة للخصـم وخيانة الأمانة] وأرشدت هذه إلى العلاج ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ فالحلول في الاستغفار، والرجوع إلى الكتاب المنزل بالحق؛ وفي الحديث: "حتى تراجعوا دينكم".

٣٦٨١. تفيد الحث على الاســتغفار؛ وإذا كان النبي ﷺ يؤمر بالاســتغفار وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فغيره من باب أولى، ومع ذلك كان يقول: "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب الله في اليوم مائة مرة". وقال: "طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً".

٣٦٨٢. تفيد الحث على ملازمة وإدامة الاستغفار لما له من فوائد جليلة.

٣٦٨٣. فيها: توسط الاستغفار بين الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] لأهميته، وحاجة العبد إليه في كل أحواله ومنها عند الجدال والخصام.

٣٦٨٤. فيها: قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولم يقل – مثلاً – "يغفر لك": للإعلام أنه موصوف بالرحمة والمغفرة أزلاً، قبل أن يستغفره أحد.

٣٦٨٥. تفيد إثبات اسمي الغفور والرحيم لله ﷻ، وإثبات صـــفة المغفرة والرحمة له جل وعلا، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التوسل إليه بهذه الاسماء الحسنى والصفات العلى خصوصاً عند مقارفة الذنوب.

٣٦٨٦. أظهرت الآية عظمة الله ﷻ، وقوّته فبدل أن يظهر صـــفات الجبروت والانتقام من المخطئين أظهر عليهم صفتي المغفرة والرحمة؛ ولهذا فكل من عفا وصفح ورحم أخاه كان قوياً؛ وفي الحديث: " ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً ".

٣٦٨٧. فيها: عناية الله بنبيه ﷺ. وافتقار نبيه ﷺ إلى توجيه ربه؛ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ .

٣٦٨٨. تفيد النهي عن جدال مخصـــوص وهو الجدال عن ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ولذلك أعقبها بذم من هذه صفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وليس بذم الجدال نفسه؛ ومعلوم أن الجدال في الإسلام على نوعين: محمود ومذموم. دلت على ذلك النصوص الكثيرة.

٣٦٨٩. فيها أن أصحاب المعاصي بمعاصيهم لا يخونون الله وإنما يخونون أنفسهم ولذلك نهى تعالى عن المجادلة عنهم لأنهم بخيانتهم آثمون والله تعالى لا يحب ذلك.

٣٦٩٠. تفيد أنه لا يجوز الجدال عن الخائن، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة: لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها. [شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى ١٥/٤٤٤]. فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز، وهذا اســـتنباط

عميق من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهذا أصعب على النفس من نهيها عن الجدال عن الآخرين، لأن كل إنسان مجبول على الدفاع عن نفسه والاعتذار لها. وقد قال أيضا: فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز، بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه، وخضع له بقلبه، وسأله مغفرته وتاب إليه فإنه غفور رحيم تواب، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح فمن أساء سراً أحسن سراً، ومن أساء علانية أحسن علانية فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. مجموع الفتاوى [٤٤٧/١٤].

٣٦٩١. فيها رد على الجبرية؛ القائلين بالجبر؛ لقوله: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٣٦٩٢. فيها: حرص الشريعة على حقوق الناس.

٣٦٩٣. فيها النهي عن الدفاع عن أهل الخيانة والظلم.

٣٦٩٤. فيها النهي عن اطراء الخائنين وتزكيتهم وعلى رأسهم خونة الإسلام من العلمانيين والمنافقين والمبتدعين.

٣٦٩٥. فيها حرمة دفاع المحامي عن الظالم كما يفعله كثير من المحامين اليوم من أجل المال.

٣٦٩٦. تفيد النهي عن معاونة الآثم، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وتؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾. [ابن عثيمين].

٣٦٩٧. في الآية إظهار جميل لطف الله وعظيم عفوه سبحانه؛ الذي يتجاوز عمن لم يصر على ذنبه حتى أصبح عادة عنده، دليله قوله: ﴿يَخْتَانُونَ﴾.

٣٦٩٨. فيها أن على المسلم أن يحرص أن يكون ممن يحبه الله عز وجل.

٣٦٩٩. تفيد إثبات صفة المحبة لله سبحانه وتعالى، والرد على الأشاعرة.

٣٧٠٠. فيها التنفير عن الخيانة والآثام بكون الله عز وجل لا يحب صاحبهما.

٣٧٠١. فيها: جمعت الآية بين صفتي الخيانة والإثم ذلك أن من يخون يسهل عليه ارتكاب الإثم.

٣٧٠٢. تفيد أن الخيانة من كبائر الذنوب.

٣٧٠٣. دلت الآية على أن الخيانة من الأخلاق البغيضة التي لا يحبها الله ﷻ.

٣٧٠٤. تفيد التحذير من الخيانة، والترغيب في أداء الأمانة.

٣٧٠٥. فيها تشديد في النذارة والوعيد لمن عرف بالخيانة، وتكررت منه.. كما تفيد النذارة لمن اتصف بالخيانة في الأمور العظيمة، لا الأمور اليسيرة..

٣٧٠٦. فيها إشارة إلى التوبة من المعصية قبل أن يصبح لها أخوات، فالمعصية تجر إلى أختها؛ حتى يقع العبد في مستنقع المعاصي.. وإلف المعصية وتكرارها يتسبب في كشف الستر الذي يمتن به الله على العبد الذي يقع في المعصية حال ضعفه، ثم ما يلبث أن يؤوب ويتوب عنها، ولا يستمر عليها..

٣٧٠٧. فيها: قوله: ﴿خَوَّانًا﴾: كثير الخيانة، مسرف منهمك فيها، وكأنها سجية؛ ففيها إشارة إلى: خطر إدمان الذنوب وإتقانها، وعدم الإقلاع عنها والتوبة منها. وعليه: ففيها: فقه من فقه المعاصي، وهو: إن زل العبد ووقع في الذنب، أن يرتكب الأقل عدداً، وألا يمضي قدماً. وكما أن للطاعة فقه، فكذا للمعصية فقه. ووجهه: التنصيص على الخوّان، دون: "خائن". ومن في الناس لا يخون؟، ألا ترى أنه قال: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

٣٧٠٨. يفيد التعبير بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿خَوَّانًا﴾ مع أنه ﷻ لا يحب الخيانة ولا الخائنين، وذلك للإشارة إلى أنه ﷻ يحب من المختان أن يتوب ويرجع إليه سريعاً؛ قبل أن تصبح الخيانة سجيةً وطبعاً وخلقاً لا يستطيع الانفكاك عنها.

٣٧٠٩. فيها مع ما قبلها وبعدها: ضوابط وآداب مهنة المحاماة؛ فليت البعض ينبري لاستخراجها وتفصيلها وبيانها من هدايات هذه الآيات الكريمة.

٣٧١٠. فيها، وبضميمة ما بعدها: أن الخائن: جبان. لقوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يخفون أمر خيانتهم من الناس.

٣٧١١. فيها، وبضـــميمة ما بعدها: تهديد ووعيد من الله ﷻ للخائنين، وأنه لهم بالمرصـــاد. وفيها إشـــارة إلى: خبث طوية الخائن؛ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

٣٧١٢. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية وما سبقها لأن فيها مزيد كشف للخائِنِ؛ وقِلَّةِ تَأمُّلِهِ؛ والإعْلامِ بِأنَّ المجادَلَةَ عَنْهُ قَلِيلَةُ الجَدْوى.

٣٧١٣. هذه الآية أصل في مراقبة الله تعالى.

٣٧١٤. تفيد ســـفه العقول التي تراقب الناس ولا تراقب الله الذي لا تخفى عليه خافية من أمرهم، قالَ بعضـــهم: وكَفى بِهَذِهِ الآيَةِ ناعِيَةً عَلى النّاسِ ما هم فِيهِ مِن قِلَّةِ الحَياءِ والخَشْـيَةِ مِن رَبِّهِمْ، مَعَ عِلْمِهِمْ - إنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ - أنَّهم في حَضْـرَتِهِ لا سُـتْرَةَ ولا غَفْلَةَ ولا غَيْبَةَ، ولَيْسَ إلّا الكَشْفُ الصَّرِيحُ والِافْتِضاحُ.

٣٧١٥. فيها تعظيم لله ﷻ، وتعظيم لشريعته؛ فالله أحق أن يستحيا منه.

٣٧١٦. تفيد أن من أعظم دلائل ضـــعف الإيمان وقلة اليقين في القلب أن تكون مخافة الخلق أعظم من مخـافـة الله، ومراقبتهم أعظم من مراقبتـه وهو المطلع على كـل أمورهم القـادر على فضحهم.

٣٧١٧. فيها إشـارة إلى الاسـتحياء من الله ﷻ؛ لأن من يراقب الله تعالى يسـتحي من نظره إليه، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " استحيوا من الله حق الحياء قال: قلنا: يا نبي الله إنا لنسـتحيي والحمد لله، قال: ليس ذلك ولكن الاسـتحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء " رواه الترمذي، وقال الألباني: حسن.

٣٧١٨. فيها سفه المنافقين؛ إذ يعلمون معية الله ﷻ وإحاطته بما يعملونه، ومع ذلك يبيتون ما لا يرضيه، ويرتضونه.

٣٧١٩. تفيد ذم النفاق، وأن يظهر الإنسان خلاف ما هو عليه في الباطن.

٣٧٢٠. في الآية التحذير من الرياء، والالتفات إلى الخلق.

٣٧٢١. تفيد أن فطرة الناس على كراهة المعاصي وأصحابها؛ ولذلك يستخفي هؤلاء من الناس بمعاصيهم خشية الافتضاح بينهم.

٣٧٢٢. تفيد التخويف من ذنوب الخلوات، وفي حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً فيجعلها الله ﷻ هباء منثورا قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم قال: أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها " رواه ابن ماجه وغيره: وقال الشيخ الألباني: صحيح.

٣٧٢٣. فيها إشارة إلى مدح خلق الحياء، فهو الباعث غالباً على الاستتار في حال الوقوع في الذنب..

٣٧٢٤. فيها إشارة إلى أن كيد ومكر أهل النفاق والزيغ والضلال، ومؤامراتهم تحاك في الظلام وفي الغرف السوداء... ما يؤكد عظيم خبثهم وحقيقة جبنهم..

٣٧٢٥. فيها تأكيد جبن المنافقين وهلعهم من الناس؛ فلا يكيدون إلا في جنح الظلام والسراديب المظلمة؛ لأن نور الشمس يحرقهم فلا يملكون مقاومته. فمكائد المنافقين إنما تُنسج في ظلمة الليل موافقة لظلمة بواطنهم.

٣٧٢٦. فيها أن الليل مظنة استخفاء أهل الذنوب بجرمهم.

٣٧٢٧. تفيد أن الكثير من الأمور تدبر وتزور وتقدر ليلا لأنه وقت صفاء وخلوة.

٣٧٢٨. تفيد أن أهل الإيمان يدبرون ما يرضي الله من الخير في القول والعمل في ليلهم ونهارهم، ومن صفات أهل الشر عكس ذلك.

٣٧٢٩. فيها: معيته ﷻ، وقد تكون هذه المعية إحاطته سبحانه بكل شيء؛ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] وقد يراد بها التهديد كما في هذه الآية؛ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وتارة يراد بها النصر والتأييد ولابد أن تكون معلقة بوصف أو بشخص، فالوصف كقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:١٩] وبالأشخاص كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦]

٣٧٣٠. فيها: نفي الرضا عنهم يدل على ثبوته لغيرهم؛ لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. ففيها إثبات الرضا لله ﷻ.

٣٧٣١. فيها أن اللسان قد يهلك صاحبه إذا تكلم به المرء فيما لا يرضي الله ﷻ؛ وفي الحديث "رب كلمة يتكلم بها المرء من سخط الله لا يلقي لها بالا تهوي به في النار سبعين خريفا".

٣٧٣٢. فيها إثبات المعية العامة المقتضية للعلم والإحاطة ولذا قال في آخرها: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

٣٧٣٣. تفيدالوَعِيدَ الشَّدِيدَ والتَّقْرِيعَ البالِغَ؛ إذْ كانَ تَعالى مُحِيطًا بِجَمِيعِ الأقْوالِ والأعْمالِ؛ فَكانَ يَنْبَغِي أنْ تُسْتَرَ القَبائِحُ عَنْهُ بِعَدَمِ ارْتِكابِها.

٣٧٣٤. فيها: إحاطة الله ﷯ بكل شيء.

٣٧٣٥. فيها: إثبات صفة "الإحاطة" لله – جل ذكره –.

٣٧٣٦. فيها إشارة إلى: عظمة الله ﷻ، وسلطانه، وهيمنته على الخلق.

٣٧٣٧. فيها إشارة إلى: فائدة التعريض بالتهديد والوعيد – أحياناً –. وإذا كان في موضعه كان أنجع من التصريح به.

٣٧٣٨. تفيد: أن ما سكت عنه الله ﷻ زمان رسول الله ﷺ فهو من قبيل الجائز؛ كالعزل. فقد كان الناس يفعلونه زمانه ﷺ ولم ينههم؛ حتى ولو لم يعلم النبي ﷺ؛ لأن الله ﷻ يعلمه. ووجهه: أنكر الله ﷻ عليهم تبييتهم للقول المنكر، ولا يقر الله أحداً على منكر، ويدعه.

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٠٩].

٣٧٣٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ لما نهى الله تعالى نبيه ﷺ – والمؤمنون له تبع– عن أن يكون للخائنين خصيما، ثم أردف ذلك بالنهي عن الجدال عن الذين يختانون أنفسهم. بيّن أن ذلك لو وقع منكم أيها المؤمنون – وحاشى أن يقع من النبي ﷺ بعد هذا النهي الرباني – أنه لو وقع منكم فإنه لا أثر ولا ثمرة له عند الله ﷻ. لأن هذا الجدال سينقطع بانتهاء هذه الحياة الدنيا ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٣٧٤٠. ومن المناسبات: لما وبخهم ﷻ على جهلهم، حذّر من مناصرتهم في هذه الآية مبيّناً أنها لا تجديهم شيئاً.

٣٧٤١. فيها مع ما قبلها: مراقبة الله تعالى، والاستعداد للحساب يوم القيامة؛ ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

٣٧٤٢. في هذه الآية إرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها. فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطاً فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت فإن لذته

تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها. وهذا من أعظم ما ينفع العبدَ تدبرُه، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان. [السعدي].

٣٧٤٣. فيها: المجادلة تعني: المدافعة بشدة كمثل المرأة التي جادلت النبي ﷺ في زوجها، فهي إما لمصلحة متحققة وإما لمحبة ظاهرة. فجاء النهي عن ذلك وأنه لا ينفعهم لأن الله ﷻ يعلم سرائرهم.

٣٧٤٤. فيها الأسلوب القرآني الفريد في مخاطبة المستهدفين بالوعد والوعيد مباشرة فيحس كل قارئ أو سامع بأن الآيات تخاطبه شخصياً.

٣٧٤٥. تفيد قبح المخاصمة والجدال في باطل أو عن مبطلين، وقد قال رسول الله ﷺ: " من خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ". [السلسلة الصحيحة].

٣٧٤٦. فيها التحذير الشديد لمن يدافع عن أحد بالباطل؛ خاصة فيمن يدافعون عن موكليهم من المحامين، والشهود الذين لا يخشون الله تعالى، ولا يتورعون عن الكذب والغش.

٣٧٤٧. فيها: تحريم المحاماة إذا علم المحامي أن صاحبه مبطل. أمَّا إذا كان المحامي يريدُ أن يدافعَ عن الحقِّ بإثباتِهِ، فهذا جائزٌ، بل قد يكون واجبًا، كما لو وكَّلك شخصٌ لا يعرفُ ولا يكاد يُبِينُ، أن تدافعَ عنه، فهذا لا بأسَ به.

٣٧٤٨. فيها: جواز المدافعة بالحق.

٣٧٤٩. فيها: إشارة إلى خطر الجدل في تضييع الحقوق، أو إثباتها. وفي الحديث: "إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها ". رواه البخاري.

٣٧٥٠. فيها التحذير من الاغترار بما يبدو أنه حجج قوية من دفاع أهل الباطل عن أوليائهم.

٣٧٥١. فيها أن الله تعالى يمهل ولا يهمل ففي الدنيا قد يخون المرء أو يتستر في معصيته لكن الله ﷻ مطلع عليه، وفي يوم القيامة لن يغني عنه أحد شيئاً.

٣٧٥٢. فيها: أن الجدال والخصام في الباطل قد ينفع في الدنيا نفعاً مؤقتاً ولكنه لا ينفع يوم القيامة.

٣٧٥٣. فيها: التناصر بالباطل ذهاب للحق.

٣٧٥٤. فيها: قوله:﴿ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فيه إشارة إلى: شأن الدنيا، وأن المظالم لا تقع إلا فيها؛ بخلاف الآخرة. فلعل فيها: تسلية للمظلومين.

٣٧٥٥. تفيد حقارة الدنيا من اسمها﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ وترشد إلى الزهد فيها، وألَّا يضيع المؤمن وقته في الجدال عن المبطلين لينال عرضاً من الدنيا قليل.

٣٧٥٦. فيها: استخدام الإضمار في موقع الإظهار دلالة على استحقار وصغار المجادل عنهم.

٣٧٥٧. فيها أن يوم القيامة هو يوم تكشف الحقائق وتقطع الأسباب.

٣٧٥٨. فيها: أن الله ﷻ لا تخفى عليه خافية، فلا يظن به سبحانه ظن السوء فلا بد من الظن الحسن بالله ﷻ حتى ينتفع بالظن يوم القيامة.

٣٧٥٩. تفيد أن في يوم القيامة لا يجادل أحد عن أحد؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ [النحل: ١١١].

٣٧٦٠. تفيد التخويف من يوم القيامة وأن يعد الإنسان جواباً لما يسأل عنه فليس هناك من يجادل عنك.

٣٧٦١. فيها إشارة إلى: أن يوم القيامة: ليس فيه إلا الحق.

٣٧٦٢. في الآية دلالة على شدة الحساب يوم القيامة.

٣٧٦٣. فيها إشارة إلى: أنه لا يجادل أحد عن أحد في باطل أبداً – في ذلك اليوم –.

٣٧٦٤. فيها إشارة للناس ليستعدوا للقاء الله ﷻ، والمجادلة عن أنفسهم يوم القيامة فلا يغرهم دفاع الناس عنهم في الدنيا إن كانوا على خطأ، فليتوبوا ولينيبوا إلى الله تعالى، وقد ذكر الله في الآية السابقة أنه يعلم بحالهم وما يخفونه عن الناس.

٣٧٦٥. فيها: إثبات يوم القيامة.

٣٧٦٦. فيها: الحذر من نتيجة الجدال بالباطل.

٣٧٦٧. في نفي الوكيل يوم القيامة ردٌ على ضلال المتصوفة ممن يقولون لاتباعهم: من كان معنا في طريقتنا دفعنا عنه يوم القيامة وأدخلناه الجنة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

٣٧٦٨. تفيد أنه ليس للناس يوم القيامة وكيل من دون الله تعالى يدفع عنهم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

٣٧٦٩. فيها: مشروعية الوكالة عن الغير في إثبات حق، أو دفع ظلم؛ لقوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يريد: من ذا الذي يتوكل لهم في خصومة الله عنهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

٣٧٧٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فإنه - تعالى ذكره - لما أخبر أن أحداً لن يحامي عن أحد يوم القيامة، فتح باباً هو من أعظم صور رحمة الله ﷻ وفضله: "التوبة"، وحتى لا ييأس أحد.

٣٧٧١. الآية في سياق بناء المجتمع الفاضل، وفيها وقاية من انتشار الفساد وتعزيز سبله؛ بنبذ المذنب، فشرعت التوبة للمذنب حماية للمجتمع..

٣٧٧٢. من أعظم آيات الرجاء في فضل الله ﷻ وعفوه... نستغفر الله ونسترحمه.

٣٧٧٣. فيها: جاءت لفظة ﴿سُوٓءًا﴾ نكره لتدل على شمولها لكل السيئات والذنوب التي يمكن أن يرتكبها الانسان؛ وذلك يدل على عظمة حلم الله ﷻ، ومغفرته لذنوب عباده متى ما استغفروا وتابوا.

٣٧٧٤. فيها أن عمل السيئات ظلم للنفس، والتحلل منه يكون بالاستغفار الصادق.

٣٧٧٥. تفيد فضيلة العادلين مع أنفسهم، ممن يقيمونها على دين الله سبحانه وتعالى وطاعته وتقواه قدر استطاعتها، ولا يحمّلونها فوق طاقتها، ولا يمكّنونها من كل ما تشتهيه فهذا من الظلم لها بل يخالفون هواهم لرضى ربهم سبحانه وتعالى.

٣٧٧٦. تفيد النهي عن كل أنواع الظلم وأولها ظلم النفس.

٣٧٧٧. فيها: من أنواع الظلم ظلم النفس بالمعاصي والذنوب.

٣٧٧٨. فيها: قد تكون النفس عدوة لصاحبها فيجب الحذر منها.

٣٧٧٩. فيها إشارة إلى أن الظلم خصلة شنيعة ولا تقبل شرعاً وعرفاً.

٣٧٨٠. فيها: أن من استغفر بعد الاساءة غفر الله له.

٣٧٨١. فيها أن طلب الاستشفاع في الاستغفار بالنبي ﷺ انتهى بموته ﷺ إنما الطلب الآن من الله تعالى مباشرة. وعن عائشة أنها قالت: وا رأساه فقال رسول الله ﷺ: " ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك " الحديث، وفيه دليل على أنه لا يستغفر لأحد بعد موته ﷺ.

٣٧٨٢. فيها: الفرق بين عمل السوء وظلم النفس: أنهما إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا فكان معناهما كالتالي: عمل السوء: فيما بينه وبين الخلق، ظلم النفس: فيما بينه وبين الله ﷻ. فقدم الإساءة على ظلم النفس لأن صيانة حقوق الآخرين مقدمة عند الشارع الحكيم على صيانة حق العبد نفسه.

٣٧٨٣. في قوله تعالى:﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ دليل على أن النفس ليست ملكاً للعبد يتصرف فيها كيف يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق

العدل، بإلزامها للصراط المستقيم علمًا وعملاً فيسعى في تعليمها ما أمر به ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم. [السعدي].

٣٧٨٤. فيها التعبير بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ يفيد أن الإنسان مهما كان ظلمه وسوؤه وطول أمده فإنه لا يقنط من رحمة الله ﷻ.

٣٧٨٥. فيها: التعبير بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ للإشارة إلى ما بين المعصية والاستغفار من تفاوت معنوي شاسع. إذ المعصية تؤدي بفاعلها إلى الخسران أما الاستغفار الذي تصحبه التوبة الصادقة فيؤدي إلى الفلاح والسعادة.

٣٧٨٦. فيها: عدم القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى.

٣٧٨٧. فيها: الحث على التوبة والاستغفار.

٣٧٨٨. تفيد فضل الاستغفار، وأثره في مغفرة الذنوب وستر العيوب.

٣٧٨٩. فيها: الدلالة الظاهرة للآية أن من أسباب المغفرة الاستمرار في الاستغفار؛ لقوله: ﴿يَسْتَغْفِرِ﴾ بصيغة المضارع.

٣٧٩٠. فيها: التوبة من الذنب صحيحة ولو تكرر وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى.

٣٧٩١. فيها: عبر بالفعل ﴿ يَجِدِ﴾ للدلالة على تحقق المغفرة والرحمة لأن فعل "وجد" معناه الظفر بالشيء ومشاهدته.

٣٧٩٢. فيها: تأمل التلطف والتقريب بلفظة ﴿ يَجِدِ﴾ فكأن الله ﷻ ينتظر منك فقط توبتك ورجعتك له ليغفر لك مباشرة.. أشبه باليقين " وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " فما أرحمك يا الله.. فعليكم بالإنابة وأبشروا.

٣٧٩٣. فيها: لأن أجد الله غفوراً رحيماً في استغفاري؛ خير لي من أن يغفر لي ويرحمني؛ ولهذا لم يقل سبحانه وتعالى: [ثم يستغفر الله يغفر له ويرحمه]. بل قال: ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وفي هذا إشارة

إلى قمة كرم الله تعالى ولطفه وإحسانه بعبده؛ حيث يستقبل عبده التائب إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ من الألوهية والمغفرة والرحمة؛ وفي الحديث: " لَلهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلَته بأرضٍ فَلَاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجَعَ في ظلِّها قد أيس من راحِلَته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخِطامها، ثمَّ قال مِن شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شِدَّة الفَرح ".

٣٧٩٤. من أعظم ما يفيد الرجاء في الآية المجيء فيها بالفعل المضارع﴿ يَجِدِ ﴾ الذي يفيد تجدد مغفرة الله ﷻ، ورحمته للمستغفرين من عباده.

٣٧٩٥. فيها: سعة رحمة الله ﷻ بقبول الاستغفار من عبده إذا تمت شروطه.

٣٧٩٦. فيها الرد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب.

٣٧٩٧. تفيد أن الله تعالى يستجيب لطلب الغفران من عبده متى تاب إليه وأناب، لأنه ﷻ قد وصف نفسه بأنه كثير المغفرة والرحمة لعباده، متى أقبلوا على طاعته بقلب سليم، ونية صادقة.

٣٧٩٨. تفيد رحمة الله ﷻ، ولطفه بهذه الأمة المرحومة في قبول التوبة، ويسر أمرها؛ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم ذنبًا أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه. وإذا أصاب البولُ شيئًا منه، قَرَضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم، جعل الله الماءَ لكم طهورًا وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال: "ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا ". [رواه ابن جرير].

٣٧٩٩. تفيد إثبات صفة المغفرة والرحمة لله ﷻ، وإثبات اسمي الغفور والرحيم له ﷻ، ومن فقه ذلك التوسل بها لمغفرة الذنوب وستر العيوب.

٣٨٠٠. هذه الآية تبني جوانب القوى الداخلية الواقية للإنسان من الاستسلام للاستمرار في السلوك الخاطئ. فهي تبين أن الخطأ سيقع، وأن ظلم النفس قد يحدث ولكن ليس هو نهاية المطاف. وللأسف فإن ضعف الوعي بهذه الآية وما فيها من الشحن النفسي لجوانب القوة يجعل كثيراً من المغرر بهم في الانحرافات السلوكية والمخدرات فرائس سهلة للاستمرار في السلوك الخاطئ بحجة أنهم قد تلوثوا وأصبحوا مع المنحرفين فيصيبهم الإحباط ويتم تدمير شخصياتهم والتحكم فيهم من قبل المجرمين حتى يدمنوا.

٣٨٠١. فيها بيان سماحة الاسلام؛ مما يؤدي الى الراحة النفسية، ويستفاد منها في العلاج النفسي، وراحة الضمير، وتقليل الشعور بالذنب الذي يعذب المذنبين والعصاة ويدفعهم الى مزيد من الإجرام.

٣٨٠٢. فيها الرد على كثير من الفرق المنحرفة:

- ممن يقول بالتكفير بالكبائر لان فيها عموم الغفران والرحمة.
- ممن يقول بعصمة الاولياء لأنه لا يوجد فيها استثناء لأحد.
- ممن يقول بأن العبد مجبور كونه قائم بالعمل.
- ممن يقول بالإرجاء كون العفو مرتبط بالاستغفار.
- ممن يدعي أن للدين ظاهراً وباطناً حيث وضحت العمل وما يترتب عليه دون أي تمويه.
- فيها الرد على الغلاة حيث بينت يسر الدين الإسلامي.
- فيها رد على الفئات الضالة مثل النصارى القائلين بشفاعة عيسى عليه السلام لهم دون الحاجة للعمل.
- فيها الرد على مَن يحرقون الموتى هرباً من العقاب وغيرهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١١١].

٣٨٠٣. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق الترغيب في التوبة والحث عليها، جاء في هذه الآية تأكيد هذا الحث بالتنفير من الخسران، وذلك بالوقوع بالإثم الذي يجلب الضر للنفس ولا ينفعها.

٣٨٠٤. فيها مع ما قبلها: بعد الترغيب بالتوبة، ناسب التحذير من التمادي بالآثام والغفلة التي تعود على صاحبها بالعقاب..

٣٨٠٥. تفيد أن ضرر الآثام إنما يعود على النفس، وفي هذا تنبيه للعاقل إلى تركها والتباعد عنها فإن العاقل لا يجلب ضرراً إلى نفسه.

٣٨٠٦. فيها التأكيد على عقوبة الذنب وأن له عاقبة عائدة على صاحبه في الدنيا والآخرة فالآية لم تخصص زمن العقوبة.

٣٨٠٧. في الآية توجيه للعناية بالنفس، وذلك بحملها على العمل بما يعود عليها بالنفع والسعادة..

٣٨٠٨. فيها رد على الجبرية؛ لأنه نسب الكسب إليهم.

٣٨٠٩. فيها: سبحان من جعل للإنسان اختياراً في كسب الخير والشر بحكمته، وجعل عليه رقيباً بعلمه.

٣٨١٠. فيها: اختلال موازين العاصي فبدلاً من أن يحقق معنى الكسب الذي هو جلب النفع ودفع الضر، أحدث بنفسه ما يقابل ذلك فجلب لنفسه الضر وسوء العاقبة ودفع عن نفسه الخير والعاقبة الحسنة فكان غايته تحقيق المكاسب لنفسه فجر عليها الويلات؛ ففيها جزاء من جنس العمل للعاصي.

٣٨١١. فيها بيان عدل الله وحكمته أنه لا يُعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يُعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه.

٣٨١٢. فيها: تهديد وتحذير؛ من الذنوب والآثام.

٣٨١٣. فيها أن الله لا تضره معصية العاصين كما أنه لا تنفعه طاعة الطائعين.

٣٨١٤. تفيد سعة علم الله، وأنه يحصي على عباده الصغير والكبير.

٣٨١٥. تفيد أن تشريع الله ﷻ وأفعاله مبنية على العلم والحكمة.

٣٨١٦. فيها: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أي لم يزل كذلك. فلعل من فوائد هذا التذييل: الرد على القدرية النفاة. فهو - جل ذكره - عليم: يعلم ما يكون من ذنوب بني آدم؛ فإن ما يقع في ملكه لا يخرج عن علمه وإذنه. وحكيم: له الحكمة في الأمر كله عامة، وإن أذن في وقوع الذنوب من عباده خاصة؛ ألا ترى أنه قال في الحديث القدسي: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم" رواه مسلم. ففيها من هذين الوجهين رد على القدرية.

٣٨١٧. تفيد إثبات صفة العلم وصفة الحكمة لله ﷻ، وأنه لم يزل متصفا بذلك أزلاً وأبداً.

٣٨١٨. تفيد إثبات اسم العليم واسم الحكيم لله ﷻ، وترشد إلى التوسل بها إلى الله جل وعلا.

٣٨١٩. في الجمع بين الصفتين والاسمين زيادة تعظيم وإجلال لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٢].

٣٨٢٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق ذكر الإثم الخاص بالعبد، جاء في هذه الآية ذكر الإثم الذي يمتد إلى الآخرين..

٣٨٢١. هذه الآية مع الآيتين السابقتين تبيّن أنماط الشخصيات الإنسانية بعد الوقوع في الأخطاء والآثام وذلك كما يلي: أولاً: النمط الإيجابي ذو التقويم الواضح لحالته والذي يدرك ما ارتكبه من الخطأ، فيتوقف عن السلوك الخاطئ ويستغفر ربه ويستعيد توازنه وتطمئن نفسه بتوبته لربه وتغمره رحمة ربه وهو المبين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

ثانياً: النمط الذي يقع في الخطأ ولكنه يواجه سـلوكه الخاطئ بالاستمرار والتمادي في الخطأ وهذا الشخص سيؤذي نفسه ويهلكها نتيجة لإصراره على أخطائه فيزداد كل يوم تدهوراً وفشلاً وهو الموصوف في الآية الثانية: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.

ثالثاً: النمط الأكثر خطورة وهو الذي يقع في الأخطاء والآثام ولكنه لا يتوقف ويرجع كما في الحالة الأولى ولا يستمر في أخطائه بصورة ذاتية كما في الحالة الثانية ولكنه يسقط حالته على غيره بصورة من حيل الدفاع النفسي السالبة متهماً غيره بما يقوم به هو؛ حتى يضلل الناس ويرضي نفسه بصورة لا شعورية. أو يسعى في نشر الأخطاء والإشاعات من أجل أن يعمم السلوك الخاطئ وهو المذكور في هذه الآية:﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾.

وتضمنت كذلك على بيان روعة التناسق الموضوعي ودقة المناسبة بين هذه الآيات الثلاث من كتاب الله تعالى؛ فما أعظم كلام الله؛ وما أروع كنوزه ودرره؛ وما ألطف هداياته وأدقّ عباراته.

٣٨٢٢. تفيد مع ما قبلها أن المجادل والمحامي عن هذا المختان الذي كسب الخطيئة والإثم يدخل تحت حكمه إذا ساعده في رميه للبريء؛ ويحتمل هو أيضاً البهتان والإثم المبين.

٣٨٢٣. فيها التفريق بين الخطيئة والإثم؛ قال السعدي في تفسيره رحمه الله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أي: ذنبا كبيراً ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ ما دون ذلك.

٣٨٢٤. فيها: ورود أداة ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي، إشارة إلى خطورة البهتان، والتنفير من الإيغال فيه..

٣٨٢٥. فيها أن الأصل في المسلم البراءة حتى تثبت إدانته.

٣٨٢٦. في الآية تشنيع لبهت البريء ولو كان غير مسلم، ووصفه بالبهتان والإثم المبين..

٣٨٢٧. تفيد أن الذنوب المتعلقة بحقوق العباد أشد اثماً.

٣٨٢٨. فيها حماية المجتمع من خطر الشائعات، واتهام الأبرياء بالبهتان الباطل.

٣٨٢٩. فيها دلالة واضحة على أن دين الاسلام دين العدل مع الجميع.

٣٨٣٠. فيها تربية المؤمن على الإنصاف من النفس والعمل على تحقيق براءتها بالحق والعدل لا بالظلم والإجحاف والإسقاط على البرءاء.

٣٨٣١. تفيد تربية الناشئة وتحفيزهم على الاعتراف بالذنب، وعدم رميه على الآخرين بسبب خوف العقوبة، أو رغبة في تبرئة ساحته.

٣٨٣٢. يفيد وصف هذا الفعل بالرمي: شدته على نفس البريء، لعظم الألم الذي يسببه البهتان على نفوس الأبرياء، وفي هذا دليل على صيانة الإسلام وحفظه لأعراض الناس.

٣٨٣٣. فيها بيان عظم اجتماع الكذب مع الذنب والافتراء، فإنّ الكذب يهدي للفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار.

٣٨٣٤. فيها قوله: ﴿ٱحۡتَمَلَ﴾ تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر فهي كالمحمولات، قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ ولذلك تجعل الإنسان يخلد إلى الأرض.

٣٨٣٥. تفيد أن العبد يكفيه حمله لذنوبه فلماذا يتكلف حمل ذنوب وآثام من يبهتهم؛ ولهذا قال تعالى:﴿ ٱحۡتَمَلَ ﴾ ولم يقل: [حمل]. للإشارة إلى أنهم كلفوا أنفسهم حملاً ثقيلاً لا يطيقونه.

٣٨٣٦. تفيد أن البهتان والإثم يعظم بحالة البريء؛ وبما رمي به؛ فإن كان نكرة في المجتمع [بريئا] لا يؤبه له؛ ولا يجد من يدافع عنه وعن قضيته؛ كان هذا البهتان والإثم أعظم وأفظع؛ وكذلك إذا جر هذا الرمي إلى إزهاق روحه وإتلاف جسده؛ ولعل في مجيء هذه الكلمات بلفظ النكرة:﴿بَرِيٓـٔٗا﴾ ﴿ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا ﴾ إشارة إلى ذلك؛ والله أعلم. قال العلامة ابن عثيمين ﵀: إن السيئات تتضاعف بتعدد أوصافها؛ لقوله:﴿ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ وهذا هو الواقع وهو العدل؛ أرأيت من قذف قريباً له ومن قذف أجنبياً عنه؛ كلاهما قذف؛ ولكن انضم إلى قذف القريب قطيعة الرحم؛ فتكون هذه السيئة متضاعفة فلا جرم أن يتضاعف إثمها؛ لأن الأحكام مرتبة على أوصافها.

٣٨٣٧. تفيد تحريم البهتان، وفي الحديث: "... إن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته". رواه مسلم.

٣٨٣٨. فيها تعظيم لجرم البهتان، دل على ذلك:

- الوعيد لمن رمى الآخرين بالذنوب؛ كبيرة كانت أم صغيرة.
- في ورود ﴿ ثُمَّ ﴾ إشارة إلى أن الأصل فيه عدم الاجتراء عليه.
- في ورود ﴿ ٱحْتَمَلَ ﴾ بصيغة الافتعال: تغليظ لجريمة الفاعل..
- في وصفه يحتمل﴿ بُهْتَانًا ﴾ إشارة للذم الشديد الذي يلحقه في الدنيا.
- وفي وصفه بأنه يحتمل ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ إشارة إلى الذي يلحقه من العذاب الشديد في الآخرة.

٣٨٣٩. فيها: قوله: ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾؛ لأنه مركب من عدة آثام: أولا: ارتكاب الاثم. ثانيا: الكذب بعدم الاعتراف به. ثالثا: بهتان الغير. رابعا: عدم استشعار عظمة الله ﷻ. خامسا: الخوف من غير الله ﷻ. سادسا: إعلاء شأن الدنيا على الاخرة.

قال تعالى:﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

٣٨٤٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق نهي النبي الكريم ﷺ عن أن يكون خصيماً مدافعاً عن الذين يختانون أنفسهم، ثم ذكر من أحوال الخائنين... ونعى على الذين يرمون الأبرياء بالسوء بهتاناً منهم فتلبسوا بذلك إثماً مبيناً، جاء في هذه الآية أن الله قد امتن على نبيه ﷺ فبيّن له أحوال الخائنين؛ ليحذر من أن يلبسوا عليه أو يضللوه بافتراءاتهم وكذبهم، وأنهم لن يستطيعوا ذلك لعظم فضل الله عليه ورحمته به.

٣٨٤١. تفيد دقة المناسبة وروعة التناسق فبعد أن ذكر ﷻ من يكسب الخطيئة والإثم ثم يرم به بريئاً كذباً وبهتاناً، ذكر نبيه ﷺ، إذ هو أول بريء مبرأ من البارئ ﷻ، وهو أول وأعظم من سيتعرض للرمي من سهام المخطئين الآثمين في حياته وبعد مماته، وذلك للنيل من ذاته ومن

عرضه ومن دينه، ومن كل من يمُتّ إليه بصلة عليه الصلاة والسلام، ولهذا كان الكذب عليه ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، وهنا قد تظهر للمتأمل والمتدبر العلاقة التناسبية والتناسقية الواضحة بين هذه الآية التي تتحدث عن النبي الكريم ﷺ وبين قوله تعالى في خاتمة الآية السابقة: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ ويظهر – والله أعلم – أن في ضم هاتين الآيتين مع بعضهما إشارة إلى أنه لا يجرؤ أحد أن يرمي الكذب على النبي ﷺ متعمداً إلا صاحب الخطيئات والآثام.

٣٨٤٢. الآية تبين أن هذا محض فضل منه وليس حقا عليه سبحانه.

٣٨٤٣. فيها أن فضل الله ورحمته عصمة من الضلال.

٣٨٤٤. تفيد عظيم عناية الله تعالى برسوله ﷺ، ورحمته به.

٣٨٤٥. تفيد أن النبي ﷺ محتاج لفضل الله ورحمته؛ وأنه لولا فضل الله عليه ورحمته لحصل له ما يحصل لغيره؛ وعليه فإن حاجة غيره من العباد إلى فضل الله ورحمته أشد وأعظم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته" وفي رواية: " إلا أن يتداركني بفضل ورحمة ".

٣٨٤٦. فيها: اجتماع الفضل والرحمة يدلان على معية الله تعالى لعبده حفظاً من شبهات الأعداء، وتبصرةً بكيفية نكاية الأعداء.

٣٨٤٧. فيها: إثبات الرحمة الخاصة للنبي ﷺ. والرحمة كما هو معروف نوعان: عامة وخاصة.

٣٨٤٨. تفيد أن العبد مهما بلغ من العلم بالله واليقين والحذر من عدوه فإن العصمة بيد الله ﷻ، ولولاه تعالى لكان عرضة للضياع والانحراف والضلال، فلا يأخذ العجب والثقة بالنفس أحداً من العلماء أو العوام فيظن أنه في مأمن من الضلال بل يستحضر فضل الله ورعايته وهدايته ورحمته، ويديم التعلق به جل وعلا، ويركن إليه دون سواه.

٣٨٤٩. تفيد إثبات صفة الرحمة لله ﷻ، وهي رحمة حقيقية تليق بجلاله وعظمته، لا كما يقول الأشاعرة: هي إرادة الثواب.

٣٨٥٠. فيها: الكل محتاج لفضل الله ورحمته؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عامة الناس في غنى عن رحمته.

٣٨٥١. فيها التنبيه الى أن من فضل الله ورحمته إنزال الكتاب والحكمة. وهذه هي الجديرة بفرح المؤمن ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

٣٨٥٢. تفيد أن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق. وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، كما حفظه عن الضلال في الأعمال. [السعدي].

٣٨٥٣. فيها التحذير من المضلين، وما أكثرهم اليوم على وسائل الإعلام المختلفة، ووسائل التواصل الاجتماعي.

٣٨٥٤. تفيد سعي الكفار الحثيث لإضلال المؤمنين؛ وقد قال الله تبارك وتعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

٣٨٥٥. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ فلما أرادوا إضلاله أضلهم الله ﷻ. ومن يبحث عن الشبهات ليضل بها الآخرين كان أول الواقعين في شراكها.

٣٨٥٦. فيها: أن كل من أراد الضر أو السوء بالخلق فلا يضر إلا نفسه.

٣٨٥٧. فيها أن أهل الضلال لا يضلون في الحقيقة إلا أنفسهم؛ حيث حرموا أنفسهم من اتباع الحق، وشغلوها بمدافعة الحق ومحاربته.

٣٨٥٨. تفيد أن حفظ الله لعبده من الضلال أعظم فضل.

٣٨٥٩. فيها: يحفظك الله من أسباب الضلالة وأهلها وذلك من كمال فضله عليك.

٣٨٦٠. فيها: على المؤمن أن ينصح لعامة الناس، ولا يحتقر أهل الضلال منهم فلولا فضل الله عليه ورحمته لكان مثلهم.

٣٨٦١. فيها: أكثر الغدر إنما يرتد على صاحبه.

٣٨٦٢. تفيد الحذر من أهل السوء، وألّا يغتر الإنسان بظاهر الحال.

٣٨٦٣. فيها: لا يسلم الداعية ـ مهما كان مقامه ـ من شانئين ومتربصين.

٣٨٦٤. فيها أن المقابلة بالعمل تسير بالتوازي طيلة حياة الإنسان، فمن يعمل سوءاً يجز به، ومن يكيد يكاد به، ومن يمكر يُمكر به، ومن يخادع يُخدع ومن سعى في إضلال الناس فإنما يضل نفسه.

٣٨٦٥. فيها: من كان على الحق وحده فليمض في دربه، ولا يغتر بكثرة المخالفين له.

٣٨٦٦. فيها: عصمة الله ﷻ لنبيه ﷺ من إضرارهم؛ ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

٣٨٦٧. تفيد اليقين بكفاية الله تعالى، ودفعه عن أهل الإيمان لقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

٣٨٦٨. يفيد عدم الاكتفاء بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ واتباع ذلك بعدم إضرارهم النبي ﷺ؛ ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾؛ إشارة لطيفة إلى أن إضلال الضال لنفسه قد يضر المهتدي إذا لم ينصحه أو يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر؛ ولهذا لما كان النبي ﷺ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ قال له ربه: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لأنك قد بالغت في نصحهم وارشادهم؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] أي: وقمتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ذلك من ضمن الاهتداء؛ ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

٣٨٦٩. تفيد أن أشد الضرر ما كان فيه فتنة وإضلال لدين العبد؛ ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] ولهذا من سلم له دينه؛ لم يضره شيء وقع له بعد ذلك.

٣٨٧٠. تفيد ضرورة الاعتصام بالله والتوكل عليه والالتجاء إليه ومعرفة فقر العبد بالنسبة إلى ربه ولو بلغ من العلم ما بلغ. فعلى المسلم أن يتبرأ من حوله وقوته فمهما بلغ المؤمن من كمال

وعلو ورفعة وتمكن في علم أو دين أو طاعة أو عبادة أو صـــلاح أو تقوى أو قوة أو تمكين في الأرض أو غير ذلك فإنما ذلك محض فضل من الله تعالى ورحمة.

٣٨٧١. فيها: القرآن منزل من عند الله وليس بمخلوق.

٣٨٧٢. تفيد أن السـنة وحي، وأنها تنزل كما ينزل القرآن؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ والحكمة هي السنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ – ٤]. وفي الحديث: " أوتيت القرآن ومثله معه". وقال الإمام الشـافعي: " ذكر الله الكتاب، وهو القُرَآن، وذكر الحِكْمَة، فسمعتُ مَنْ أرْضى من أهل العلم بالقُرَآن يقول: الحكمة سنة رسول الله؛ لأن القُرَآن ذُكر وأُتْبِعَتْه الحكمة، وذكرَ الله منَّه على خَلْقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يَجُزْ – والله أعلم – أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنةُ رسول الله. وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسـوله، وحتَّم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول: فرضٌ، إلا لكتاب الله، ثم سـنة رسـوله". انتهى "الرسـالة" [١/٧٨]. وقال العلامة ابن رجب رحمه الله: "من قال الحكمة: السنة، فقوله الحق؛ لأن السنة تفسر القرآن، وتبين معانيه، وتحض على اتباعه" انتهى من "لطائف المعارف " [ص/٨٤]. وقد ذكر الله عز وجل الكتاب مقترناً بالحكمة في تسعة مواضع من القرآن الكريم للدلالة على أهميتها وأنها من عند الله (السنة النبوية).

٣٨٧٣. فيها: رد على المارقين، المسمون – زوراً — بالقرآنيين الذين ينكرون السنة النبوية.

٣٨٧٤. تفيد أن أقوى الأسلحة ضد أهل الباطل هي الاستمساك بالكتاب والسنة.

٣٨٧٥. تفيد أن إنزال الكتاب والحكمة من أعظم المنن على العباد؛ فبها يخرجون من الظلمات إلى النور.

٣٨٧٦. يفيد ذكر إنزال الكتاب والحكمة بعد ذكر هم الطائفة إضلال النبي ﷺ إشارة لطيفة إلى أن من تمسك بالكتاب والحكمة لن يضل بعدهما أبدا؛ وقد جاء في الحديث؛ "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبدا؛ كتاب الله وسنتي ".

٣٨٧٧. فيها: أشرف العلوم علم الوحيين [الكتاب والسنة] فطلبهما فريضة، وشفاءٌ للقلوب المريضة.

٣٨٧٨. تفيد أن التمسك بالكتاب والسنة سبب للثبات على الحق والبعد عن الضلال.

٣٨٧٩. تفيد إثبات صفة العلو للعلي الغفار؛ لأن النزول لا يكون إلا من علو.

٣٨٨٠. تفيد أن نعمة العلم من أعظم النعم؛ ولذلك امتن الله تعالى بها على نبيه ﷺ.

٣٨٨١. تفيد أن العلم علمان؛ كسبي: يكتسبه الإنسان بالتعلم والتجارب. وآخر: إنما هو هبة من الله ﷻ يختص به من يشاء من عباده.

٣٨٨٢. فيها: في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ دلالة على أنه علمه ما لم يكن يعلم من قبل وليس كل شيء. وفي هذا دليل على بطلان قول من يقول: إن النبي ﷺ كان يعلم الغيب.

٣٨٨٣. تفيد أن من أعظم أسباب نيل العلم دعاء الله تعالى وطلب العلم منه لأنه من فضل الله ﷻ وحده؛ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

٣٨٨٤. تفيد أهمية أن يتذكر العبد فضل الله تعالى؛ وأن يعرف ويستشعر ما هو عليه اليوم من الفهم والإدراك؛ وما كان عليه قبل ذلك من الجهل وعدم العلم؛ ليعلم عظم فضل الله عليه؛ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

٣٨٨٥. تفيد أن فضله ﷻ على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق، وأجناس الفضل التي قد فضّله الله بها لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها. [السعدي].

٣٨٨٦. فيها التنبيه على فضل هذه الأمة. فكما أن فضل الله على نبيها كان عظيماً؛ وقد ورّث لها نبيها ﷺ هذا الفضل الذي منه [الكتاب والحكمة]؛ فدل على فضلها وأن فضله تعالى عليها عظيم. فلتعرف هذا الفضل ولتشكر الله عليه ولتحافظ وتستمسك بما فضلت به.

٣٨٨٧. فيها أن هذا الفضل من الله ﷻ، والرحمة ممتدة الأثر غير مقصور على النبي ﷺ فحسب، فحمايته وعصمته من الضلال حفظٌ لهداية الله لعباده من الخلل والزلل فكان خير ذلك منعكس على كل خلق الله ﷻ.

٣٨٨٨. فيها: أعظم الفضل وتمام المنة؛ ما أنزله الله على عبده ورسوله من الكتاب والحكمة. ومن تبعه من أمته حظي بهذا الفضل..

٣٨٨٩. تفيد أن الله ﷻ له الفضل العظيم على خلقه؛ على الناس عموماً؛ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٣] وعلى المؤمنين خصوصا؛ ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٣٨٩٠. فيها الحث على استشعار فضل الله على العبد في جميع الأحوال؛ وبالتالي شكره الدائم على هذا الفضل حتى في مدلهمات الأمور لو تفكر فيها العبد لوجد فضل الله يحيط به من كل جانب.

٣٨٩١. فيها: إثبات نبوة النبي ﷺ وأن النبوة اصطفاءٌ واختيارٌ، وليست باكتساب واجتهاد؛ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

٣٨٩٢. تفيد قمة البلاغة القرآنية وروعة الفصاحة البيانية؛ من خلال الجناس غير التام: ﴿يُضِلُّوكَ﴾، ﴿يُضِلُّونَ﴾، ﴿يَضُرُّونَكَ﴾.

٣٨٩٣. تفيد مع ما بعدها أن خير ما يواجه ويجابه به الطوائف التي تسعى إلى إضلال الناس وإخراجهم من دينهم وعقيدتهم وما دل عليه كتاب ربهم وسنة نبيهم: هو من خلال تفعيل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع؛ لقوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

٣٨٩٤. المتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها تهدي الناس إلى ما يسعدهم في كل زمان ومكان متى اتبعوا توجيهاتها وإرشاداتها. إنها تأمرهم في شخص نبيهم ﷺ أن يلتزموا الحق في كل أقوالهم

وأعمالهم، حتى ولو كان الذي عليه الحق من أقرب الناس إليهم، وكان الذي له الحق من أعدى أعدائهم، وتنهاهم عن الدفاع عن الخائنين الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، وتبين لهم أن دفاعهم عنهم لن يفيدهم أمام الله- تعالى-. ثم تفتح للعصاة باب التوبة لكي يفيئوا إلى رشدهم ويعودوا إلى طاعة ربهم وتخبرهم أن شؤم المعصية سيعود إليهم وحدهم... وتنبههم إلى أن من أشد الذنوب عند الله- تعالى- أن يفعل الشخص فاحشة ثم يقذف بها غيره. ثم تسوق الآيات في ختامها جانبا من فضل الله على نبيه ورحمته به، لكي يزداد ثباتا واطمئنانا» ويزداد أعداؤه خوفا وضعفا واضطرابا. وهكذا نرى الآيات الكريمة تهدي الناس إلى الحق الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية. ولا يترجح مع الحب أو البغض حتى ولو كان الذي عليه الحق ممن يظهرون الإسلام ويعاملون معاملة المسلمين، وكان الذي له الحق من اليهود الذين لم يتركوا مسلكا لمحاربة الدعوة الإسلامية إلا سلكوه والذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك أنكروه وحاربوه. فهل رأيت- أخي القارئ- عدالة تقترب من هذه العدالة في سموها ونقائها واستقامة منهجها؟ إن هذه الآيات لتشهد بأن هذا القرآن من عند الله، لأن البشر مهما استقامت طبائعهم، فإنهم ليس في استطاعتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع الذي تشير إليه الآيات، والذي يكشف لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

٣٨٩٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فبعد أن بين الله تعالى ما كان منهم إذ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ بيّن أن الأصل في النجوى والاستخفاء أنها من الخصال المذمومة إلا ما استثناه الشارع مما فيه مصلحة للمسلمين.

٣٨٩٦. تفيد مع ما قبلها؛ أن النجوى لا تَغْلِبُ ولا تصير دأباً إلّا عَلى الطوائف الضالة؛ وأهل الريب والشبهات والانحرافات، ولهذا نَفى الله الخير عن أكثر النجوى.

٣٨٩٧. فيها مع ما قبلها: لم تَخْلُ الحوادث التي أشارت إليها الآي السابقة، ولا الأحوال التي حذّرت منها، من تناج وتحاوُر، سِرّا وجهراً، لتدبير الخيانات وإخفائها وتبييتها، لذلك كان المقام حقيقاً بتعقيب جميع ذلك بذكر النجوى وما تشتمل عليه، لأنّ في ذلك تعليماً وتربيةً وتشريعاً، إذ النجوى من أشهر الأحوال العارضة للناس في مجتمعاتهم، لا سيما في وقت ظهور المسلمين بالمدينة، فقد كان فيها المنافقون واليهود وضعفاء المؤمنين، وكان التناجي فاشياً لمقاصد مختلفة، فربما كان يثير في نفوس الرائين لتلك المناجاة شكّا، أي خوفاً، إذ كان المؤمنون في حال مناوأة من المشركين وأهلِ الكتاب، فلذلك تكرّر النهي عن النجوى في القرآن نحو: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ [المجادلة: ٨] الآيات، وقوله: ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤] فلذلك ذمّ الله النجوى هنا أيضاً، فقال: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾. فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لإفادة حكم النجوى، والمناسبةُ قد تبيّنت. والمقصود من الآية تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة، فإنّ شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأنّ الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلّم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلاّ في أحوال شاذّة يناسبها إخفاء الحديث. فمَن يناجي في غير تلك الأحوال رُمي بأنّ شأنه ذميم، وحديثه فيما يستحيي من إظهاره، كما قال صالح بن عبد القدوس:

السّتر دون الفاحشات ولا   يَغشاك دون الخير مِنْ سترِ

وقد نهى الله المسلمين عن النجوى غير مرّة، لأنّ التناجي كان من شأن المنافقين فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [المجادلة:٨] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة:١٠]. وقد ظهر من نهي النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون ثالث أنّ النجوى تبعث

الريبة في مقاصد المتناجين، فعلمنا من ذلك أنّها لا تغلب إلاّ على أهل الريَب والشبهات، بحيث لا تصير دأباً إلاّ لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى. [ابن عاشور].

٣٨٩٨. في الآية وقاية للمجتمع الفاضل من الشرور..

٣٨٩٩. فيها إرساء لقواعد بناء المجتمع الفاضل، بِحثِّ أفراده على نشر الخير والفضيلة بينهم..

٣٩٠٠. تفيد أن كلام الناس خير وشر، وأغلبه شر.

٣٩٠١. تفيد أن على المسلم أن يصون لسانه، وألا يكثر من الكلام لأنه لا خير في كثير من كلامه، وأنه عليه لا له إلا إذا كان في ذكر الله تعالى، أو أمر بصدقة، أو معروف، أو نهي عن منكر، أو إصلاح بين الناس.

٣٩٠٢. فيها إشارة إلى ذم الكثرة.

٣٩٠٣. فيها: الصمت أفضل من الكلام إلا ما كان فيه خير.

٣٩٠٤. فيها تربية اجتماعية؛ حيث أن اعتزال الناس والعمل سراً دون جماعة المسلمين من النجوى التي لا خير فيها، فإن شأن المحادثات والمحاورات والدعوة إلى الدين وتعليم الدين أن تكون جهرة لأنها دعوة إلى حق، فمن كان يدعو إلى حق وقول سليم فلا يصير إلى المناجاة، ومن تخفّى دون الناس باجتماعات ولقاءات سرية دون الناس فشأنه ذميم. وقد جاء في الأثر الذي رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" [١٤/٥٦٧-٥٦٨]، وابن أبي عاصم في "المذَكِّر والتذكير" [ص٩١] بإسناد صحيح عن زيد بن أسلم العدوي، عن أبيه، قال: "بلغ عمر بن الخطاب أنَّ ناساً يجتمعون في بيت فاطمة، فأتاها، فقال: يا بنت رسول الله -ﷺ-! ما كان أحدُ من الناس أحبَّ إلينا من أبيك، ولا بعد أبيك أحبَّ إلينا منك، وقد بلغني أنَّ هؤلاء النَّفر يجتمعون عندك، وايم الله؛ لئن بلغني ذلك؛ لأحرقنَّ عليهم البيت، فلما جاءوا فاطمة قالت: إن ابن الخطاب قال كذا وكذا، فإنه فاعل ذلك، فتفرقوا حين بويع لأبي بكر رضي الله عنه". وقد روى أحمد في "الزهد" [ص٤٨]، والدارمي في "سننه" [١/٣٤٣/٣٤٤]، واللالكائي في "شرح أصول

اعتقاد أهل السنة والجماعة" [١/١٣٥]، وابن عبد البر في "جامع بيان وفضله" [٢/٩٣٢] عن الأوزاعي قال: "قال عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله تعالى ورضي عنه-: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة؛ فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة". فهذان الأثران البليغان، من نظر فيهما بعين الإنصاف وقف على شؤم الاجتماعات السرية، وسوء عاقبتها على جماعة المسلمين، ولو لم يكن ذلك الشر في هذه الاجتماعات؛ لَمَا ذهب عمر ﷺ إلى العزم على تعزير من قام بها، ولَمَا وصفها عمر بن عبد العزيز رحمه الله بأنها "تأسيس ضلالة".

٣٩٠٥. فيها التشنيع على الذين يتناجون لتفريق كلمة المسلمين بدعاوى الغيرة على الإسلام.

٣٩٠٦. تفيد النهي عن النجوى إلا في ما هو خير، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

٣٩٠٧. في الآية ذم ضياع الأوقات في غير فائدة.

٣٩٠٨. فيها: فضل الصدقة.

٣٩٠٩. فيها تأكيد على أهمية الصدقة؛ لما لها من أثر في منع انتشار الجريمة والأمراض الاجتماعية الخطيرة..

٣٩١٠. فيها: التعبير بقوله:﴿ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ يفيد الدعوة إليها، والحث على بذلها سراً ما دامت المصلحة تقتضي ذلك.

٣٩١١. تفيد فضل وفضيلة من يأمر الناس بالصدقة والانفاق ومنه الإطعام، بخلاف المكذب بالدين الذي لا يحض على طعام المسكين.

٣٩١٢. فيها: الخير والإحسان مأمور بهما الإنسان. قال الماوردي: ينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة ففاتت فأعقبت ندماً...

والأمة التي يفشو فيها قول المعروف وفعله، تسودها السعادة، وتظلها المحبة والمودة والرحمة.

٣٩١٣. فيها: فضل الأمر بالمعروف.

٣٩١٤. تشتمل الآية الكريمة على الترغيب في رأب الصدع بين أفراد المجتمع المسلم، والتكافل وهو صورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك تكون النجوى بهذه الصورة صمام أمان يحفظ المجتمع.

٣٩١٥. فيها: قوله:﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾ قال العباس ﷺ: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته أتممته. وقال بعض الشعراء:

زاد معروفك عندي عظما أنه عندك مستور حقير

تتناساه كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شرط المعروف ترك الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله، لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر.

٣٩١٦. تفيد أهمية ومنزلة الحث على الأمور التي فيها نفع وصلاح للمجتمع.

٣٩١٧. فيها الفضل العظيم والمنزلة السامية للإصلاح بين الناس.

٣٩١٨. تفيد مع ما قبلها أن من أراد النجاح والإبداع في مجال الإصلاح بين الناس؛ عليه أن يتعلم أحكام الشريعة وأسرارها ومقاصدها وحكمها؛ لقوله تعالى في الآية السابقة:﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾. وكذا يقال أيضا فيمن يريد أن يبدع في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولهذا ينبغي أن تعطى لهؤلاء ممن يتصدون للأمر بالمعروف والإصلاح بين الناس؛ دورات تعليمية وتدريبية وتطويرية في مجال الأحكام الشرعية والسياسة الشرعية ومقاصد الشريعة.

٣٩١٩. فيها: من أفضل الخير الذي ينبغي أن يحرص عليه أبناء المجتمع المسلم: الإصلاح بين الناس، وقد وصفه الله بأنه خير مطلق، فقال: ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

٣٩٢٠. في الإشارة إلى النجوى في الإصلاح بين الناس تنبيه إلى أنه ليس كل ما علم يشاع. بل قد تقتضي المصلحة إخفاء بعض الحقائق بقصد الإصلاح؛ ولذلك أباح الشارع الكذب مع تحريمه في إصلاح ذات البين. فدلَّ على أهميته وحرص الشارع على تحقيقه.

٣٩٢١. تفيد أن هنالك أمور الأفضل فيها الإسرار وعدم الإعلان خاصة مساعي الصلح.

٣٩٢٢. تفيد أهمية الاصلاح بين عموم الناس، وأن الإسلام دين سلم وسلام لمن سالمه.

٣٩٢٣. تفيد أنه لا يشترط أن يكون المصلح على علاقة بين المتخاصمين إلا العلاقة الإنسانية؛ ولهذا يسن للمؤمن أن يصلح بين المؤمنين وبين غير المؤمنين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾.

٣٩٢٤. فيها البشارة العظيمة للقائمين على الجهات الخيرية والدعوية التي تهتم بالفقراء والدعوة والإصلاح الأسري والمجتمعي.

٣٩٢٥. فيها مكانة وحدة الصف واجتماع الكلمة في الإسلام.

٣٩٢٦. فيها أن جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم من مقاصد الشريعة.

٣٩٢٧. فيها: أباح الشارع الحكيم الكذب وندب التناجي من اجل ازالة العوائق بين المسلمين.

٣٩٢٨. تفيد أن هذه الأمور الثلاثة المذكورة في الآية [الصدقة، والأمر بالمعروف، وإصلاح ذات البين]التي أخرجها الله تعالى من التناجي المذموم هي جماع الخير الإنساني والاجتماعي ولها أثر في الحفاظ على لحمة المجتمع وتماسكه، الذي يفضي إلى صحته وقوته.

٣٩٢٩. فيها: من المقاصد العظيمة للشارع الحكيم الإحسان إلى الناس، والأمر بالمعروف، والإصلاح بينهم. ولذلك حث الشارع على اتخاذ الوسائل الممكنة لتحقيقها من نجوى ومن إعلان.

٣٩٣٠. فيها التنبيه إلى أنه ينبغي لكل مسلم أن يكون له مشروع إصلاحي يخدم فيه أمته، يراعي الحكمة في تحقيقه واستمراره. ولا يكون المسلم سلبياً لا يعنيه شأن أمته.

٣٩٣١. فيها: على الانسان فعل الأسباب وترك النتائج لله سبحانه وتعالى.

٣٩٣٢. فيها إشارة إلى أن إضافة نية النفع للآخرين، إلى نية التعبد بالعمل الصالح لله تعالى؛ يزيد في فضله وثوابه.

٣٩٣٣. فيها الحث على القربات ذات النفع المتعدي.

٣٩٣٤. فيها: ذكر الله- تعالى- هذه الأقسام الثلاثة، لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة. أما إيصال الخير: فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال. وإليه الإشارة بقوله:﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾. وإما أن يكون من الخيرات الروحانية وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة. ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف. وإليه الإشارة بقوله:﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾. وإما إزالة الضرر فإليها الإشارة: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية.

٣٩٣٥. فيها: الإخلاص ركن أساس في كل شيء ولاسيما في هذه الأمور الثلاثة. وقد يعمل الناس نفس الأعمال ولكنَّ قبولها والأجور التي رُتبت عليها تتفاوت بحسب النيات؛ قال مالك ابن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعنّى.

٣٩٣٦. فيها: قالﷻ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل ومن يأمر بذلك كما جاء في صدر الآية. لأن المقصود الترغيب في هذا الفعل الحسن، لأن الآمر بالخير إذا دخل في زمرة الخيرين كان الفاعل أحرى بالدخول في زمرتهم.

٣٩٣٧. فيها: إثبات الرضا لله ﷻ، وهي من صفاته الفعلية.

٣٩٣٨. فيها: إثبات صفة الفعل لله ﷻ.

٣٩٣٩. فيها: عدم استعجال ثواب الدنيا؛ فما عند الله ﷿ من ثواب الآخرة خير وأبقى.

٣٩٤٠. فيها: قوله:﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وعد بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله. فدلّ على أنّ كونها خيراً وصف ثابت لها لما

فيها من المنافع، ولأنّها مأمور بها في الشرع، إلاّ أنّ الثواب لا يحصل إلاّ عن فعلها ابتغاء مرضاة الله كما في حديث: "إنما الأعمال بالنيات ".

٣٩٤١. يفيد التعبير بسوف هنا التأكيد على الوقوع في المستقبل. أي: فسوف نؤتيه أجراً لا يحيط به نطاق الوصف، ولن نبخسه شيئاً من حقه حتى ولو كان هذا الشيء بالغاً النهاية في الصغر.

٣٩٤٢. فيها: إذا أتى التعظيم من عظيم فهو يدل على عظمته؛ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

٣٩٤٣. فيها: أن فضل الله ﷻ على عباده لا يحد بحد.

٣٩٤٤. تفيد أن الذي يعطي الأجر هو الذي ينبغي أن نخلص له العمل.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

٣٩٤٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فبعد أن جاء في الآية السابقة الوعد بالثواب العظيم لمن وافق هدي الذي تفضل عليه ربه ورحمه ﷺ بالأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس... ناسب في هذه الآية ورود الوعيد بأشد العقاب لمن خالف هديه واختار شقاً غير شقه ﷺ.

٣٩٤٦. تفيد تحريم مشاقة الرسول ﷺ، وأنها كبيرة من كبائر الذنوب.

٣٩٤٧. فيها: عدم مخالفة أمر الرسول ﷺ.

٣٩٤٨. وجوب الالتزام بما جاء به الرسول ﷺ.

٣٩٤٩. فيها: أنه متى ما قوي الإيمان قوي الاتباع لرسول الله ﷺ.

٣٩٥٠. فيها تأكيد على أن سبيل النجاة هو اتباع هدي النبي الخاتم ﷺ والتزام طريقه..

٣٩٥١. فيها: بمفهوم المخالفة أن مَن لم يُشاقِقِ الرَّسولَ ﷺ، واتَّبعَ سبيلَ المؤمنين، بأن كان قصدُه وجهَ اللهِ ﷻ واتِّباعَ رسولِه ﷺ ولزومَ جماعةِ المسلمين، ثمَّ صدَر منه مِن الذُّنوبِ أو الهمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوس، وغَلَبات الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ ﷻ لا يُولِّيه نفسَه وشيطانَه، بل يتداركُه بلُطفِه، ويمُنُّ عليه بحفظِه، ويعصِمُه من السُّوءِ.

٣٩٥٢. تفيد العذر بالجهل.

٣٩٥٣. تفيد خطورة العصيان بعد العلم والبيان.

٣٩٥٤. فيها بيان عظم جرم من علم الحق... فأعرض عن علمه، ولم يعمل بالحق..

٣٩٥٥. فيها أهمية الدليل وضـــرورة العمل بحسـبه، دل على ذلك قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾.

٣٩٥٦. فيها إشـارة إلى: عدل الله - جل ذكره -، ومحبته للعذر. لقوله:﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾.

٣٩٥٧. فيها: تبين بالدليل الشرعي من كتاب أو سنة أو تبين بالفهم والإدراك والفطرة السليمة ممن لم يبلغه الدليل.

٣٩٥٨. فيها: لا تقوم الحجة مع التردد وإنما على الانسان التبين.

٣٩٥٩. فيها: ما جاء به النبي ﷺ فهو هدى ونور وصلاح وخير وحق.

٣٩٦٠. تفيد أن للعبد إرادة ومشيئة.

٣٩٦١. تفيد أن طاعة النبي ﷺ مطلقة وطاعة غيره مقيدة بسلوك السبيل الصحيح.

٣٩٦٢. تفيد وجوب اتباع منهج السـلف الصـالح؛ لأن الله تعالى توعَّد من يخالفه. قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: من لم يكن متبعاً سـبيلهم كان متبعاً غير سـبيلهم، فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه. مجموع الفتاوى [١٧٣/٧].

٣٩٦٣. فيها: تشريف لهذه الأمة؛ لعصمة الله ﷻ لها أن تجتمع على خطأ وضلالة.

٣٩٦٤. فيها: تشريف وتعظيم للنبي ﷺ.

٣٩٦٥. تفيد سلامة منهج أصحاب النبي ﷺ.

٣٩٦٦. فيها: علق الوعيد بمشاقة الرسول ﷺ واتباع غير سبيل المؤمنين، مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول ﷺ توجب الوعيد، ولكن هما متلازمان. فلهذا علقه بهما، كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا. [شيخ الإسلام ابن تيمية، منهاج السنة [٨/٣٤٥].

٣٩٦٧. تفيد أن سبيل المؤمنين هو طاعة النبي ﷺ.

٣٩٦٨. تفيد أن النبي ﷺ جاء بالهدى ودين الحق.

٣٩٦٩. يفيد عطف اتباع غير سبيل المؤمنين على مشاقة الرسول ﷺ؛ للإشارة إلى وجوب حفظ الجماعة الإسلامية بعد الرسول ﷺ، فقد ارتد بعض العرب بعد الرسول ﷺ. وقال الحطيئة في ذلك:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

فكانوا ممن اتبع غير سبيل المؤمنين وشاقوا الرسول ﷺ.

٣٩٧٠. تفيد حجية الإجماع، وقد استدل بها الإمام الشافعي رحمه الله.

٣٩٧١. تفيد أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، كما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: " إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة ".

٣٩٧٢. فيها الدعوة إلى الاعتصام ونبذ الفرقة والخلاف.

٣٩٧٣. منها يستفاد الالتفاف حول الحق. والحرص على معرفة الحق بالبحث عن الأدلة وعدم الركون إلى الجهل.

٣٩٧٤. تفيد أن من لم يلتزم بالكتاب والسنة فهو في مرحلة استدراج.

٣٩٧٥. فيها: عقوبة من شاق الرسول ﷺ واتبع سبيل غير المؤمنين الضياع والدمار. إلا أن يتوب.

٣٩٧٦. فيها: رد على الجبرية، والقدرية النفاة. فقوله:﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ رد على الجبرية. وقوله: ﴿ نُوَلِّهِۦ﴾ رد على القدرية.

٣٩٧٧. فيها إشارة إلى: أن الله من وراء القصد، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله:﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ نتركه وما اختاره لنفسه.

٣٩٧٨. فيها إشارة إلى: غنى الله عن خلقه عامة، والمخالفين له خاصة، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾[الزمر: ٧]، ولقوله:﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ قال ابن عاشور في التحرير: أي نتركه وشأنه لقلة الاكتراث به، كما ورد في الحديث: "وأما الآخر فأعرض الله عنه".

٣٩٧٩. تفيد إثبات النار، وأن من أسمائها جهنم.

٣٩٨٠. تفيد التخويف من النار ودار البوار، وسوء مصير ومنقلب من دخلها.

٣٩٨١. فيها: إثبات وجود النار، والعذاب فيها – والعياذ بالله-.

٣٩٨٢. فيها: أسوأ مصير يصير له الانسان النار. – والعياذ بالله-.

قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

٣٩٨٣. في مناسبة لما قبلها: تَعْقِيبُ الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِهَذِهِ مُشِيرٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِاتِّبَاعِ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ اتِّبَاعُ سَبِيلِ الْكُفْرِ مِنْ شِرْكٍ وَغَيْرِهِ، فَعَقَّبَهُ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ.. [التحرير والتنوير].

٣٩٨٤. تفيد مع ما قبلها أن المشرك قد شاق الرسول وفارق سبيل المؤمنين.

٣٩٨٥. فيها مع ما قبلها وبعدها: كررها الله ﷻ مرتين في هذه السورة وبينهما ذكر قتل النفس وهذا يدل على أن قاتل النفس له توبة وأن ما سوى الشرك فالله يغفره.

٣٩٨٦. تفيد خطورة الشرك؛ فهو الذنب الذي لا يغفر، وصاحبه من الخالدين في النار، ويحبط الأعمال كلها.

٣٩٨٧. تفيد أن الشرك أعظم الذنوب. وليس فوقه شيء.

٣٩٨٨. تفيد أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين، وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من

نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات. فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

٣٩٨٩. تفيد أن الذنوب والمعاصي التي دون الشرك هي تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته.

٣٩٩٠. فيها أشد الوعيد لمن يدعون في كربهم، ولقضاء حاجاتهم غير الله أو يشركون معه غيره، ويدعون أن ذلك توسلاً واستشفاعاً..

٣٩٩١. تفيد أن الذنوب كبائر وصغائر؛ فأكبر الكبائر الشرك فمن مات عليه فهو خالد في النار.

٣٩٩٢. تفيد سعة رحمة الله ﷻ بما يفيده عموم ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فشيء واحدٌ غير قابل للمغفرة، وما عداه قابل لها، والله ينعم والعبد يذنب ثم يغفر سبحانه.

٣٩٩٣. تفيد عزة الله ﷻ وإحاطته؛ فالمغفرة لا تكون إلا بمشيئته وإذنه.. عز وتقدس..

٣٩٩٤. تفيد إثبات المغفرة لله ﷻ، وتحث العباد إلى السعي إلى ما يوصل إليها ومن ذلك اجتناب الشرك لقوله تعالى في الحديث القدسي: " لو اتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ". رواه الترمذي.

٣٩٩٥. تفيد إثبات المشيئة لله تعالى.

٣٩٩٦. فيها: قوله:﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تفيد تحذيراً من المعاصي، وأن يكون صاحبها على وجل؛ فقد لا تغفر له، ولعموم قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] فإذا شاء الله أخذ بالذنب عدلاً، أو عفى عنه وغفره فضلاً.

٣٩٩٧. فيها الحث والمسارعة للتوبة وطلب المغفرة.

٣٩٩٨. فيها التنبيه إلى فضل التوحيد، وأنه يجعل باب المغفرة مفتوحاً أمام العبد، ومن تحقيقه يأتيه الخير.

٣٩٩٩. يفيد إظهار اسم الجلالة أن من يشرك بالله إنما حربه مع الله تعالى.

٤٠٠٠. تفيد أن الضلال مراتب والشرك أبعدها.

٤٠٠١. فيها: المشرك مفتر وضال؛ فقد كذب على الله وافترى بدعوى أن لله شريكاً.

٤٠٠٢. تفيد حث الدعاة والعلماء على التحذير من الشرك؛ لأنه الذنب الذي لا يغفر، وصاحبه من الخالدين في النار ويحبط الأعمال، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: " يا ابن آدم لو اتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة"، فلابد من إنقاذ الناس من الشرك بتحذيرهم منه باستمرار خصوصاً مع كثرة مظاهره في البلاد الإسلامية كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والطواف بقبورهم تقربا إليهم، والنذر لهم وغيرها.

٤٠٠٣. في الآية رد على الطائفتين المنحرفتين عن الحق في الإيمان: رد على الغلاة الوعيدية من الخوارج والمعتزلة في قولهم بخلود مرتكب الكبيرة من الموحدين في النار فيرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني ما دون الشرك. وفيها رد على المرجئة الوعدية الذين يقولون لا تضر الذنوب مع التوحيد ولن يدخل النار أحد من الموحدين بقوله تعالى: ﴿ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ فليست المغفرة لكل أحد، وإنما حسب المشيئة فدلت على أن بعض الموحدين لا يغفر لهم فيدخلون النار بحسب ذنوبهم لكنهم لا يخلدون فيها كما تقول الوعيدية.

٤٠٠٤. تفيد بلاغة القرآن الكريم؛ حيث جمعت هذه الآية بين الترغيب والترهيب، والبشارة والنذارة.

٤٠٠٥. فيها: حسن الظن بالله ﷻ.

٤٠٠٦. فيها: المتصرف في الأمور كلها الله ﷯.

٤٠٠٧. فيها: ختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وختمت الآية التي تشبهها بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] لأنها في شأن أهل الكتاب من اليهود وهم عندهم علم بصحة نبوته ﷺ وبأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع ومع ذلك فقد حملهم الحسد على إنكار الحق، فصار فعلهم هذا افتراء بالغ العظم في الكذب والجرأة على الله. وختمت الآية التي معنا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ لأنها في قوم مشركين لم يعرفوا من قبل كتاباً ولا وحياً، فأتاهم رسول ﷺ بالهدى ودين الحق، وميز لهم طريق الرشد من طريق الغي، ولكنهم لم يتبعوه فكان فعلهم هذا ضلالاً واضحاً عن طريق الحق. وابتعاداً شديداً عن الصراط المستقيم. ويؤخذ من مجموع الآيتين أن المشرك مفتر ضال.

٤٠٠٨. تفيد خطورة الشرك وأنه يؤدي بالإنسان إلى الضلال البعيد الذي يصعب الرجوع عنه، قال ابن عاشور: البعيد أريد به القويّ في نوعه الذي لا يرجى لصاحبه اهتداء، فاستعير له البعيد لأنّ البعيد يُقصي الكائن فيه عن الرجوع إلى حيث صدر.

قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء: ١١٧].

٤٠٠٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق وصف الشرك بأنه ضلال؛ جاءت هذه الآية لتبين أن أكثر الضُّلّال من أهل الأوثان، وأنهم يدعون آلهة باطلة..

٤٠١٠. تفيد أن من أعظم أنواع الشرك وأكثرها وأخطرها: دعاء غير الله ﷻ؛ لقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾.

٤٠١١. تفيد أن الدعاء هو العبادة.

٤٠١٢. تفيد أن كل من يُدعى هو مِن دون الله تعالى فمن دعاه فهو مشرك، ولو دعا ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو ولياً صالحاً؛ فهؤلاء جميعاً مِن دون الله ﷻ.

٤٠١٣. تفيد أن الخطورة الكبرى تكمن في الاستمرار عليه حتى الممات وهذا مأخوذ من الفعل المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾.

٤٠١٤. فيها إشارة إلى: تعظيم الرب - جل وعلا - نفسه.

٤٠١٥. فيها إشارة إلى: تعظيم الموحدين ربهم - جل ذكره -، ووصفهم ربهم بصفات الكمال والجلال، بخلاف المشركين.

٤٠١٦. فيها إشارة إلى: ضلال المشرك، وسفهه؛ لقوله:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾.

٤٠١٧. فيها إشارة إلى ذلة وحقارة المشرك الذي يعتقد أن من المخلوقين من يستحق التوجه والتذلل بين يديه لطلب خير أو دفع ضر... وهو لا يغني عن نفسه شيئا.

٤٠١٨. فيها: الرد على المشركين، وتحقير وتسفيه آلهتهم، وما يعبدون، وبيان ضلالهم؛ لقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ ونظيره: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧] ولم يقل يعبدوه.

٤٠١٩. فيها: من المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضراً ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد والجلال، والعز والجمال، والرحمة والبر والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟ "هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟ "ومع ذلك فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. [السعدي].

٤٠٢٠. تفيد خطورة شبهة عبادة الإناث؛ فقد تسربت حتى وصلت إلى بعض غلاة الصوفية؛ فجعلت الذين يقولون بوحدة الوجود يزعمون أن الله تعالى يتجلى لهم بصورة المرأة؛ ولهذا نجد

أن الصوفية يلهجون بذكر النساء، ويرونهم أكمل وأتم وأجمل لتجليات الذات الإلهية التي يعتقدونها فيهن، وهذا واضح جداً في تلك العناية التي لقيتها المرأة في الأدب الصوفي من التذلل لها والتشبث بها والتفتن في وصفها... بل قرر زعماء الإباحية والزنادقة العتاة [ابن عربي وابن الفارض وغيرهما] أن الله تعالى يتجلى في كل صورة حسنة في صورة الرجل أو المرأة فيكون فاعلاً ومفتعلاً – تعالى الله عن كفرهم وإلحادهم علواً كبيراً –، وأن الله تعالى تجلى في صور العاشقات والمعشوقات، ويطول النقل عنهم لو أردنا ذلك مما يأباه الدين، وتشمئز منه النفوس، وتمجه الفطر السليمة، ويأباه الذوق.

٤٠٢١. تفيد تلاعب الشيطان بأوليائه بأن جعلهم يعبدون ما يحتقرون.

٤٠٢٢. فيها: إلزام الخصم بموجب مبدئه وما يدين ويعتقد؛ ووجهه: أنهم كانوا يكرهون البنات، فكيف سموا آلهتهم واشتقوا لها من أسماء الإناث؟! ونظيره: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٢].

٤٠٢٣. تفيد أن الشرك انتكاسة فطرية بجعل صاحبه مركوس الفكر متناقضاً في عقيدته متحيراً في سيره، كما أنه بالتوحيد ينال العبد الكمال النسبي والقرب من ربه؛ فبالشرك يقع العبد في نقص العقل الذي هو من صفات الإناث، وفي البعد عن الله الذي عوقب به الشيطان المريد.

٤٠٢٤. تبين أن سبب الشرك في الأصل ناتج عن فساد التصور الصحيح، أو التعلق بالأهواء والشهوات.

٤٠٢٥. تفيد أن الشرك من أسباب الانحطاط والتسفل والالتحاق بأخس المخلوقات كالشيطان.

٤٠٢٦. تبين أن الشرك من أسباب التعطيل للعقل وإطفاء نوره الذي يرى به الأمور على حقائقها؛ وصدق الله إذ يقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٤٠٢٧. فيها: أن كل عابد لغير الله عابدٌ للشيطان.

٤٠٢٨. تفيد أن الشيطان أحرص ما يكون على إيقاع الناس في الشرك ليضمن خلودهم معه في النار: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

٤٠٢٩. فيها خطورة كيد الشيطان الذي سوَّل لعبَّاد الأصنام والأهواء عبادتهم.

٤٠٣٠. تفيد أن الشيطان من أسباب ضلال المشركين وعبدة الأصنام والقبور؛ فقد ورد عن كثير من السلف أن الشيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم من داخل الأصنام ليضلهم، وهكذا يحصل لمن يدعون الأموات والصالحين فإنه ربما يظهر لهم الشيطان في صورة من دعوه ليضلهم، وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه وبالذات في القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة.

٤٠٣١. فيها: أن المشرك يعبد الشيطان على الحقيقة، وإن اتخذ حجراً أو شجراً، لأن الشيطان هو المحرض الرئيس على عبادة غير الله؛ لقوله: ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [مريم: ٤٤] مع أنه من قبل قال: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢].

٤٠٣٢. تفيد أن الشيطنة درجات ومراتب.

٤٠٣٣. تفيد عتو الشيطان وتمرده وفسقه.

٤٠٣٤. فيها إشارة إلى: أن كل من عبد من دون الله راضياً، كان مارداً عاتياً، مع كونه طاغوتا؛ لقوله: ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أي: مارداً. والمارد: العاتي، والمتجرد من كل خير، والخارج عنه. وعليه: فيمكن أن يضاف إلى كلمة الطاغوت "المريد"؛ في وصف الطواغيت الذين عبدوا من دون الله.

قال تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٨ -١١٩].

٤٠٣٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما كان التقدير: فقال إصراراً على العداوة بالحسد: وعزتك لأجتهدن في إبعاد غيري كما أبعدتني! عطف عليه قوله: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ ﴾ أي والله لأجتهدن في أن آخذ ﴿ مِنْ عِبَادِكَ ﴾ الذين هم تحت قهرك، ولا يخرجون عن مرادك ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي جزءاً أنت قدرته لي ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أي عن طريقك السوي بما سلطتني به من الوساوس وتزيين الأباطيل ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي كل ما أقدر عليه من الباطل من عدم البعث وغيره من طول الأجل وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والعفو والإحسان ونحوه مما هو سبب للتسويف بالتوبة ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ ﴾. ولما كان قد علم مما طبعوا عليه من الشهوات والحظوظ التي هيأتهم لطاعته، وكانت طاعته في الفساد عند كل عاقل في غاية الاستبعاد؛ أكد قوله: ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ﴾ أي يقطعن تقطيعاً كثيراً ﴿ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ويشققوها علامة على ما حرموه على أنفسهم ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي له الحكمة الكاملة فلا كفوء له، بأنواع التغيير من تغيير الفطرة الأولى السليمة إلى ما دون ذلك من فقء عين الحامي ونحو ذلك، وهو إشارة إلى ما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم بالتقريب للأصنام من السائبة وما معها، المشار إلى إبطاله في أول المائدة بقوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ١] المصرح به في آخرها بقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣] ويكون التغيير بالوشم والوشر، ويدخل فيه كل ما خالف الدين، فإن الفطرة الأولى داعية إلى خلاف ذلك حتى أدخلوا فيه تشبيه الرجال بالنساء في التخنث وما يتفرع عنه في تشبيه النساء بالرجال في السحق ومانحاً فيه نحوه. ولما كان التقدير: فقد خسر من تابعه في ذلك، لأنه صار للشيطان ولياً؛ عطف عليه معمماً قوله: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ﴾ أي يتكلف منهم ومن غيرهم تغيير الفطرة الأولى فيأخذ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا ﴾ ولما كان ذلك ملزوماً لمحادة الله ﷻ، وكان ما هو أدنى من رتبته في غاية الكثرة؛ بعّض ليفهم الاستغراق

من باب الأولى فقال: ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي المستجمع لكل وصف جميل﴿فَقَدۡ خَسِرَ﴾ باتخاذه ذلك ولو على أدنى وجوه الشرك﴿ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ أي في غاية الظهور والرداءة بما تعطيه صيغة الفعلان، لأنه تولى من لا خير عنده. [نظم الدرر].

٤٠٣٦. فيها، وبضميمة ما قبلها: أن الآمر بعبادة غير الله ملعون.

٤٠٣٧. تفيد أن الشيطان ملعون، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، فكيف يليق بالإنسان أن يتخذه وليا؛ ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٠]

٤٠٣٨. تفيد أن لعنة إبليس – عليه لعنة الله – على التعيين جائزة.

٤٠٣٩. تفيد تجنب الذنوب التي توجب اللعن، ومنها الذنوب التي لعن الشيطان بسببها.

٤٠٤٠. تفيد إثبات صفة الرحمة لله ﷻ؛ لأن اللعن معناه الطرد والابعاد عن رحمة أرحم الراحمين.

٤٠٤١. في الآية أن من أسباب لعن الله تضليل الخلق، ودعوتهم إلى ما يخالف شرع الله، وأن دعاة الضلالة هم أولياء الشيطان المتبعون لخطواته.

٤٠٤٢. تفيد حرص الشيطان على إغواء بني آدم، وإضلالهم، وإهلاك النصيب الأكبر منهم.

٤٠٤٣. فيها: أن الكفار عباد لله – عبودية قهر –؛ لقوله: ﴿ مِنۡ عِبَادِكَ﴾.

٤٠٤٤. تفيد أن الشيطان يجتهد غاية الاجتهاد في اضلال بني آدم، وقد قال تعالى بعد أن حذرنا منه:﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

٤٠٤٥. فيها إشارة إلى: إقرار الشيطان بملك الله وسلطانه؛ ﴿ مِنۡ عِبَادِكَ ﴾ ولم يقل: "من العباد". فالعجب ممن ينكر وجود الرب – جل ذكره –، وقد أقر به إبليس.

٤٠٤٦. فيها: أن الشيطان لا يعدو قدره، وأن ما يقع من كفر وعصيان، وقع بإذن الله فيه وحكمته البالغة. لقوله:﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ مقدراً معلوماً في سابق علمك، ولن أعدو إلى غيرهم ممن عصمت؛ ففيها رد على القدرية الغلاة.

٤٠٤٧. تفيد فضل وشرف وسعادة من نجا من هذا النصيب المفروض؛ فقد قال مقاتل بن حيان وغيره: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة.

٤٠٤٨. دلت الآية على حِلم الله تعالى، وأنه سبحانه يُمْهل ولا يُهمِل؛ إذ أنظر ﷻ إبليس اللعين رغم هذا التمرد والمصارحة بالعناد والمحاجّة.... فلم يعاجله بالأخذ مع قدرته وجبروته سبحانه وتعالى..

٤٠٤٩. فيها أن إضلال الشيطان يشمل الضلال في العلم والضلال في العمل.

٤٠٥٠. تفيد أن الأماني الباطلة، وطول الأمل، والتسويف من وسائل الشيطان لإضلال العباد، ولذلك كان يقال: سوف من جنود إبليس.

٤٠٥١. تفيد أن الشيطان مع الإضلال، يمنيهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ﴾ [البقرة:١١١] ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾[الأنعام: ١٠٨] ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٤]. وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

٤٠٥٢. تفيد أن طول الأماني والركون للدنيا ونسيان الآخرة من حبائل الشيطان التي يضل بها كثير من بني آدم؛ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ قيل مَعْنَاهُ: أمنينهم طول الْعُمر فِي النَّعيم؛ ليؤثروا الدُّنْيَا على الْآخِرَة، وَقَالَ الزّجاج: مَعْنَاهُ: أمنيهم إِدْرَاك الْآخِرَة مَعَ رُكُوب الْمعاصِي.

٤٠٥٣. يفيد﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ أَنَّهُ لا حِيلَةَ لَهُ فِي الإِضْلالِ أَقْوى مِن إلْقاءِ الأمانِيِّ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ، وطَلَبُ الأمانِيِّ يُورِثُ شَيْئَيْنِ؛ الحِرْصَ والأمَلَ، والحِرْصُ والأمَلُ يَسْتَلْزِمانِ أكْثَرَ الأخْلاقِ

الذَّمِيمَةِ، وهُما كالأَمْرَيْنِ اللَّازِمَيْنِ لِجَوْهَرِ الإنْسانِ قالَ ﷺ: " يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ ويَشِبُّ مَعَهُ اثْنانِ الحِرْصُ والأَمَلُ ".

٤٠٥٤. فيها: قوله:﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام فنبَّه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال. [السعدي].

٤٠٥٥. فيها: أن قطع آذان الأنعام [البحيرة]، من عمل الشيطان، وطاعة له. وكذا يقال في: تغيير الخلق، من الوشم والنمص وكل ما قيل في معناه. وكذا يقال في الأماني. ففيها: أنه لا يحل تأخير التوبة؛ وإنما تجب على الفور؛ لأن تأخيرها من أماني الشيطان. وعليه: فإن أهل الإيمان إن هم أخَّرُوا وسوَّفُوا ووقعوا في الأماني، تسلَّط عليهم الشيطان؛ ولأن كيده لم يقتصر على أهل الكفر فحسب، بل وصل إلى أهل الإيمان.

٤٠٥٦. يفيد قوله:﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ إذا نسكنا نسكاً [ما أهدي للبيت، والأضحية]، أن نجتنب المقطوعة الأذن؛ ليس لكونه قرباناً فيُختار أنفسه فحسب، بل وللبعد عن فعل ومشابهة المشركين الممتثلين أمر الشيطان بقطع أذنها. قال القرطبي في تفسيره: ولما كان هذا من فعل الشيطان وأثره أمرنا رسول الله ﷺ " أن نستشرف العين والأذن ولا نضحي بعوراء ولا مقابلة ولا مدابرة ولا خرقاء ولا شرقاء" أخرجه أبو داود عن علي قال: أمرنا؛ فذكره. المقابلة: المقطوعة طرف الأذن. والمدابرة المقطوعة مؤخر الأذن. والشرقاء: مشقوقة الأذن، والخرقاء التي تخرق أذنها السمة. والعيب في الأذن مراعى عند جماعة العلماء.

٤٠٥٧. فيها النهي عن كل ما من شأنه تغيير خلق الله طلباً للحسن وغيره كالنمص والتفليج وحلق اللحية ونحو ذلك إلا من ضرورة، واستثني من ذلك ما كان من خصال الفطرة ونحوها.

٤٠٥٨. فيها: قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ هذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن. وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضا تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان. فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته. فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة. لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين. [السعدي].

٤٠٥٩. تفيد: حرمة عمليات التجميل؛ التي لا يطلب منها إلا زيادة الحسن والجمال، مثل: تكبير حجم الثدي، والشفاه، ونحوه مما أحدثه أهل السرف والعبث. وحرمة النمص، وحلق اللحية من باب أولى؛ لأنه نهى عن النمص وهو أخذ شيء من شعر الحاجب؛ فما الظن بمن يزيل شعر اللحية كاملاً؟!.

٤٠٦٠. فيها النهي عن الخصاء للإنسان كما جاء ذلك في تفسير بعض السلف لقوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ قال القرطبي في تفسيره: وأما الخصاء في الآدمي فمصيبة، فإنه إذا خصي بطل قلبه وقوته، عكس الحيوان، وانقطع نسله المأمور به في قوله ﷺ: " تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم" ثم إن فيه ألماً عظيماً ربما يفضي بصاحبه إلى الهلاك، فيكون فيه تضييع مال وإذهاب نفس، وكل ذلك منهي عنه. ثم هذه مثلة، وقد نهى النبي ﷺ عن المثلة، وهو صحيح. وقد كره جماعة من فقهاء الحجازيين والكوفيين شراء الخصي من الصقالبة وغيرهم وقالوا: لو لم يشتروا منهم لم يخصوا. ولم يختلفوا أن خصاء بني آدم لا يحل ولا يجوز؛ لأنه مثلة وتغيير لخلق الله تعالى، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد ولا قود، قاله أبو عمر.

٤٠٦١. فيها تحذير من تغيير خلق الله، فإذا كان ذلك في حق البهائم جريمة، فهو في حق الإنسان المكرَّم أشد جرماً..

٤٠٦٢. تفيد: حرمة المثلة.

٤٠٦٣. فيها حماية للمجتمع الفاضل من كل رذيلة، وعادات دخيلة، وتنقيته من الشوائب التي تعلقت به مما كان يفعله المشركون..

٤٠٦٤. تفيد أن الولاية ولايتان كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فلينظر العبد أيهما يتخذ ولياً: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾.

٤٠٦٥. فيها: الشيطان: يمثل المخلوق المتمرد على أوامر خالقه. يمثل جانب الشر. يقود حملة الإغواء والإضلال. إمام في تزيين الأعمال الباطلة. يوسوس، يعد، يمني.. له نصيب في نفس كل أحد؛ بما فيها من الاستعداد للشر، وكل إنسان يستطيع أن يشعر بوسوسة الشيطان له..

٤٠٦٦. تفيد أن طاعة الشيطان فيما يأمر به من الباطل هو نوع من ولايته ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد من يُطعه فيما يدعو إليه من الضلال، فكل من أطاعه فهو ولي له وإن لم يقصد أن يتولاه، كما يكون مطيعًا له وإن لم يقصد أن يطيعه، بموافقته لإرادته، وإجابته إلى ما دعاه إليه، فهو يعمل عملًا يُعينه عليه الشيطان، وكان الشيطان له وليًّا ناصرًا معينًا.

٤٠٦٧. تفيد أن كمال الربح في طاعة الله، والخسران الكامل في مخالفة أمره اتباعا للشيطان وهوى النفس ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾؛ لِأَنَّ طاعَةَ اللَّهِ تُفِيدُ المَنافِعَ العَظِيمَةَ الدّائِمَةَ الخالِصَةَ عَنْ شَوائِبِ الضَّرَرِ.

٤٠٦٨. تفيد أن خسارة الآخرة هي أعظم الخسارة وأبينها إذ لا مجال للتدارك؛ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء: ١٢٠ - ١٢١].

٤٠٦٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ ففيها إشارة إلى: أن الشيطان لا يحدث شيئا خارجا عن سلطان الله، وعلمه. ووجهه: إخباره - تعالى ذكره - عن قيل الشيطان: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ وأخبر بعدها أن الشيطان يفعله، وبيّن وكشف حقيقة فعله، فقال - محذراً -: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾؛ لأن العبد قد يسمع من يخبر أنه يفعل كذا وكذا، وهو لا يعلم أيفعل أم لا. فكأن الله يقول: يعدهم الشيطان الوعود الكاذبة، ويُمَنِّيهم الأماني الباطلة؛ ولا يفعله إلا بإذني وعلمي؛ بدليل أنه ما يعدهم في الواقع إلا باطلاً لا حقيقة له.

٤٠٧٠. فيها، وبضميمة ما قبلها: بيان العداوة الشديدة الظهور، من الشيطان لبني آدم.

٤٠٧١. فيها بعض وسائل الشيطان لإضلال الانسان. [الوعد والأماني].

٤٠٧٢. فيها كذب أماني ووعود الشيطان للإنسان.

٤٠٧٣. فيها تنبيه للمؤمن ألا يغتر ويخدع بأماني الشيطان.

٤٠٧٤. فيها: ورود ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ بصيغة المضارع، يدل على استمراره ومداومته على التغرير بالعباد، ووعدهم بالوعود الكاذبة الباطلة..

٤٠٧٥. فيها: غاية الشيطان صرف الناس عن عبادة الله تعالى من خلال تزيين الباطل بالأماني والوعود الكاذبة. ومن ذلك تخويفهم بالفقر ومنعهم من الإنفاق.

٤٠٧٦. فيها: من تتبع الأماني والوعود الكاذبة من الشيطان لم يفق إلا وهو في ضيافته وعندها: ولات حين مناص!

٤٠٧٧. فيها: أن الشيطان كذّاب، بل الأصل فيه الكذب. وفي الحديث: "صدقك وهو كذوب". وهنا تنبيه: إلى الذين يزعمون أنهم يكلمون الجن ويأتون منهم بالأخبار، نقول لهم إن الأصل فيهم الكذب، والكذب فسق، الفاسق مردود الشهادة؛ فلا تحل الرواية عن كذاب.

٤٠٧٨. فيها: إخلاف الوعد من صفات الشيطان وأتباعه.

٤٠٧٩. فيها: الشياطين تزين الباطل بصورة الحق.

٤٠٨٠. فيها: المؤمن كيّس فطن؛ عليه تقصِّي مداخل الشيطان، ومعرفتها جيداً؛ لسد المداخل وإحكام إغلاقها، والتحرز من وسوسته، وكيده. والآية الكريمة تبين مداخله..

٤٠٨١. فيها: قوله:﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ إظهار في مقام الاضمار لإظهار عداوته.

٤٠٨٢. فيها حرمة الغرر في البيع وغيره من المعاملات، لأنه أحد وسائل الشيطان.

٤٠٨٣. فيها: إنما جعل عِدَته إياهم ما وعدهم "غرورًا"، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليًّا على حقيقةٍ من عِدَاته الكذب وأمانيه الباطلة حتى إذا حصحص الحق، وصاروا إلى الحاجة إليه، قال لهم عدوّ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وكما قال للمشركين ببدر، وقد زيَّن لهم أعمالهم:﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ ﴾ وحصحص الحقّ، وعاين جِدّ الأمر ونـزول عذاب الله بحزبه: نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨] فصارت عِدَاته، عدُوَّ الله إياهم عند حاجتهم إليه غرورًا.

٤٠٨٤. فيها إظهار لعظيم رحمة الله بعباده، حيث عرَّفهم بعدوهم، وبيّن لهم أساليبه في الكيد لهم والمكر بهم؛ ليتقوه ويحذروا شروره..

٤٠٨٥. فيها مع ما قبلها: من اتبع الشيطان قاده للهاوية.

٤٠٨٦. فيها: الإشارة إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لشدة بعدهم في الضلال، وتيههم في الأماني.

٤٠٨٧. تفيد أن مأوى الشيطان وأعوانه وأتباعه في الآخرة نار جهنم؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

٤٠٨٨. في الآية كشف لحقيقة ما يدعوا إليه الشيطان، وهو دعوة حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

٤٠٨٩. فيها بيان خطر مصير ومآل الذين أطاعوه وصدقوه فيما وعدهم ومنَّاهم..

٤٠٩٠. فيها: تفظيع حال الكافرين بأنَّ مستقرهم ومأواهم جهنم. وفي كلمة المأوى ما فيها من سوء العاقبة وتفظيع العذاب.

٤٠٩١. تفيد التخويف من النار ودار البوار؛ من اسمها المخيف «جهنم».

٤٠٩٢. تفيد إثبات اليوم الآخر، وما فيه من الحساب والجزاء.

٤٠٩٣. تفيد أن أهل النار لا مهرب لهم ولا مفر منها؛ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ٨ – ٩].

٤٠٩٤. تضمنت الآية تنبيهاً وتحذيراً لأتباع الشيطان فيما يزين لهم؛ بأن يبادروا بالتوبة إلى الله والرجوع إليه قبل فوات الأوان، فإنهم لا يجدون مهرباً من العذاب يوم القيامة، ولا ثمة قبول للتوبة، ولا تنفع الندامة إن لم يتوبوا في الدنيا.

٤٠٩٥. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما بعدها؛ فبعد أن ذكر الله ﷻ أن الأماني الكاذبة من الشيطان ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ ذكر أن جميع الأماني لا يعتد بها إذا لم توافق الشرع المنزل من عند الله؛ قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] ويفهم من السياق أن تلك الأماني كلها إنما هي من الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

٤٠٩٦. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فإنه – تعالى ذكره – لما ذكر أن الشيطان لا يعد إلا غرورا، بيّن بعدها أنه يعد بالحق؛ ونظيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

٤٠٩٧. فيها مع التي قبلها أن عدة الله الحق ليست كعدة الشيطان الكاذبة.

٤٠٩٨. تفيد مع ما قبلها أن القرآن الكريم مثاني: تثنى فيه المعاني؛ فإذا ذكر الوعيد ذكر بعده الوعد، وإذا ذكرت النار، ذكر بعدها الجنة، وإذا جاء ذكر الكافرين جاء بعده ذكر المؤمنين، وهكذا.... وفي هذا إشارة إلى أن على العبد أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يكون خائفاً دائما فيستولي عليه اليأس، ولا راجياً دائماً فيستولي عليه الأمن من مكر الله، بل يكون بين هذا وهذا. ومن هنا تظهر للمتأمل دقة المناسبة وروعة التناسق بين هذه الآية وما قبلها.

٤٠٩٩. في الآية: أن تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح تكون مؤهلة لدخول الجنة.

٤١٠٠. تفيد أن الإيمان وحده لا يكفي، كما أن العمل وحده لا يكفي، وعلى هذا فلا يستحق الجنة إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وإذا ذكر ثواب الجنة مقيداً أو معلقاً بالإيمان وحده، فالمراد بذلك الإيمان المتضمن للعمل الصالح.

٤١٠١. تفيد أن العمل لا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحاً، والعمل الصالح هو: ما كان خالصاً صواباً، أي: ما ابتغي به وجه الله، وكان على وفق شريعة الله المنزلة.

٤١٠٢. تفيد أن العبرة ليست بكثرة العمل، بل بحسنه وصلاحه والمداومة عليه؛ لأن ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمع قلة.

٤١٠٣. فيها: رد على المرجئة؛ لقوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن الإيمان قول وعمل، بخلاف ما قاله المرجئة أن الإيمان قول لا غير.

٤١٠٤. تفيد الشهادة بأن كل مؤمن قد عمل الصالحات، هو من أهل الجنة، وأنه سيدخلها، لقوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ وهذا على سبيل العموم.

٤١٠٥. فيها: قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ السين تدل على المستقبل القريب؛ فيدل على قرب دخول الجنة وقصر هذه الدنيا.

٤١٠٦. تفيد وصف الجنة وما فيها من النعيم؛ قال السعدي: فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذلك كله وأجلّ رضوان الله عليهم وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فلله ما أحلى ذلك النعيم وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٤١٠٧. تفيد أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ وقد دل على ذلك القرآن، والسنة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال النبي ﷺ: "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما؛ وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما".

٤١٠٨. فيها: قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ولم يقل: "جنة"، لكثرة الفضل، وتمامه من الله الكريم. ولم تأت كلمة "نار" جمع أو مثنى في القرآن، بخلاف الجنة. وقد قال قبلها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ولم يقل: "نيران" - مثلا -. كل هذا ليبين ربنا ومعبودنا - جل ذكره -، أن الرحمة أحب إليه من العذاب؛ "رحمتي سبقت غضبي"؛ فلا يعذب إلا من يستحق؛ بل من كرمه وفضله يخلق للجنة أقواما، ما عملوا خيراً قط؛ [محض الفضل منه فحسب]، ولا يفعل ذلك للنار، فيخلق لها أقواما - حاشاه -. فلا يهلك على الله إلا هالك.

٤١٠٩. تفيد أن في الجنة أنهاراً، وقد ذكر بيان أنواع هذه الأنهار في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

٤١١٠. تفيد أن أنهار الجنة جارية من تحت قصورها وأشجارها. وفائدة التنبيه بقوله:﴿ تَجۡرِي ﴾ ولم يقل – مثلا –: [جنات تحتها الأنهار]: لتكمل البهجة بحسـن، وروعة المنظر. والأهم من ذلك: لأن الركود يُتلف ويغير ويُفسـد. ولذا نبه في آية أخرى بقوله: ﴿ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾ والآسن هو المتغير الريح والطعم. ونبه بقوله:﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ ﴾ وذلك لجريانه. لأن الله ﷻ أودع في الماء الجاري من النشـاط والحيوية، ما ليس في الراكد. ألا ترى أنه ﷺ– نهى عن البول في الماء الدائم الذي لا يجري. وفي رواية: الراكد. ومفهوم الحديث جوازه في الماء الجاري، لأنه يدفع النجاسة عن نفسه، وذلك لقوته، وتجدده؛ ولذا صنع الناس اليوم [تجدها في محلات العصائر] أجهزة تُجري الأشربة جرياناً مستمراً؛ لتجنب التغير، ولبهجته.

٤١١١. فيها أن المناظر الحسنة من النعم الجليلة؛ والله جميل يحب الجمال.

٤١١٢. تفيد جواز حذف ما يعلم، لقوله تعالى:﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي: ماء الأنهار.

٤١١٣. تفيد تمام نعيم الجنة؛ لقوله:﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، حيث تفيد كمال السعادة، بخلود النعيم، وخلود المنعم، فلا يكتمل النعيم إلا بخلودهما معاً.

٤١١٤. تفيد أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين، وقد أجمع على ذلك أهل السـنة والجماعة. فنسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

٤١١٥. فيها رد على الجهمية القائلين بفناء الجنة ونعيمها.

٤١١٦. تفيد أن القرآن الكريم يربي على دوام التدقيق في الأمور والمفاضـلة بينها، ويوجه العبد لاختيار ما فيه المصلحة..

٤١١٧. فيها: صدق وعد الله ﷻ، ووعده سبحانه حق.

٤١١٨. تفيد أن على الإنسان أن يحسن الظن بربه، وأن يثق في وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٤١١٩. فيها توجيه للمربي، وذلك بتحفيز من يربيهم بالوعد الحسـن، واسـتخدام المؤكدات اللازمة والمناسبة لإنفاذ الوعد..

٤١٢٠. تفيد وصف أقوال الله تعالى بالصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.
وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: "إن أصدق الحديث كلام الله... "

٤١٢١. فيها: لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً، كان ما يدل عليه مطابقةً وتضمنًا وملازمةً كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

٤١٢٢. كلام الله سبحانه وتعالى مشتمل على أصدق الحقائق الدنيوية والأخروية، فمن آمن به واستمسك بحقائقه وصل إلى أكمل مبتغاه.

٤١٢٣. تفيد أن أخبار الله سبحانه وتعالى كلها صدق؛ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وهذا يجعل المؤمن يزداد يقيناً وتصديقاً لا يتطرق إليه شك ولا ريب. فكل ما عارض وخالف أخبار الله تعالى فهو كذب.

٤١٢٤. فيها: أن على المسلم أن يلتزم الصدق في أقواله وأفعاله، ويبتعد كل البعد عن الكذب في كل أعماله.

٤١٢٥. فيها: إثبات صفة الكلام لله - جل ذكره -.

٤١٢٦. تفيد أن الله سبحانه وتعالى يقول، والقول -إذا أطلق- فإنه يراد به اللفظ المسموع، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، حيث قالوا: إن الله عز وجل يقول قولاً مسموعاً، وأنه بصوت وحرف.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٤].

٤١٢٧. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق الوعد بنعيم الجنات، والخلود فيها لمن آمن وعمل صالحاً، جاء التأكيد على أن دخولها لا يكون بالأمنيات، وترك أسباب الظفر بها.

٤١٢٨. تفيد، وبضميمة ما سلف: ذم التمني، الذي يحمل على ترك العمل، وفعل السيئات.

٤١٢٩. فيها مع ما قبلها: بيّن الله تعالى فيما سبق أن الأماني جند من جنود إبليس ثم حذر منها في هذه الآية.

٤١٣٠. تمثل في الآيتين حقيقة أن القرآن مثاني، يتوعد ويعد، ينذر ويبشر... ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٤١٣١. تفيد أن شرائع الله تعالى كلها تنص على مبدأ العمل وترك العطالة والبطالة والأماني الكاذبة؛ سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة أو الشعوب؛ وهنا تظهر للمتأمل والمتدبر دقة تناسب وروعة تناسق هذه الآية مع جميع موضوعات السورة الكريمة.

٤١٣٢. هذه أخوف آية في كتاب الله ﷻ، ففيها أن كل من يعمل معصية ولم يتب منها فلا بد أن يجازيه الله بها إما في الدنيا وإما في الآخرة.

٤١٣٣. فيها وقاية للمجتمع الفاضل من انتشار السيئات.

٤١٣٤. فيها تعريض بأهل الكتاب الذين يتمنون على الله الأماني، رغم سوء أعمالهم، وإشراكهم بخالقهم..

٤١٣٥. تفيد أن من صفات أهل الكتاب التمني الزائف.

٤١٣٦. فيها التحذير من أهل الكتاب والتشبه بهم.

٤١٣٧. في الآية بيان أن ما عند الله ﷻ لا ينال بالأماني بل بما قدم الإنسان؛ فالجزاء من جنس العمل.

٤١٣٨. فيها المعنى الذي قاله الحسن البصري رحمه الله تعالى: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل".

٤١٣٩. فيها: التمني تجارة المفلسين ولا يفيد شيئاً.

٤١٤٠. فيها معنى قول حذيفة ﷺ: "نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كانت لهم كل مرة ولكم كل حلوة. فوالله لتسلكن طريقهم قدر الشراك".

٤١٤١. فيها الرد على من جعل آيات الوعيد في أهل الكتاب وآيات الوعد في المسلمين.

٤١٤٢. فيها رد على الجبرية؛ لقوله:﴿ يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا ﴾.

٤١٤٣. فيها: كلمة﴿ سُوٓءٗا ﴾ نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فأي سوء دق أو جل يؤاخذ عليه صاحبه.

٤١٤٤. تفيد أن العمل السـيء مهما تناهى في الصـغر؛ وتقازم في النكر﴿ سُوٓءٗا ﴾ فإن العبد مجزي به؛ لهذا ينبغي للعبد أن لا يستصغر أو يتقاعس من التوبة من أي معصية وأي سيئة حتى ولو خفيت عليه؛ وعليه أن يكثر من الدعاء الذي جاء في هذا الحديث: "خَطَبَنَا رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّـرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؛ فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ". ومن هنا قد يظهر للمتأمل والمتدبر سـر مجيء هذه الآية بعد قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

٤١٤٥. فيها معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٤١٤٦. فيها: إبهام الفاعل في قوله:﴿ يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ زيادة في الترويع والتهديد؛ فلا يدري المسـيء كنه العقوبة.

٤١٤٧. فيها رد على: المرجئة؛ الذين زعموا بأنه: لا تضر مع الإيمان معصية.

٤١٤٨. تفيد الترهيب من أثر شؤم المعصية في الحياة، وتهدي إلى المسارعة في تطهير كل سوء اقترفه العبد بالاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة؛ ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

٤١٤٩. تفيد كمال عدله جل وعلا، كما تفيد كمال علمه.

٤١٥٠. فيها: أن الله ﷻ حكم عدل لا يحابي، ولا يجامل أحداً؛ إنما الأمر تابع للعمل.

٤١٥١. فيها: العدل بين المتخاصمين.

٤١٥٢. فيها: التهديد والوعيد لمن عمل سوءاً.

٤١٥٣. فيها: من يظن أن له منزلة وفضلاً عند الله لجنسه أو نسبه وهو قائم على معصيته فهو واهم خاطئ.

٤١٥٤. فيها: ما يحصل من مصيبة قد تكون كفارة، لأنها نوع من الجزاء. وقد أجمع عامة العلماء على أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها- وإن قلت مشقتها- يكفر الله- تعالى- بها الخطيئات، والأكثرون على أنها- أيضا- ترفع بها الدرجات، وهو الصحيح المعول عليه. فقد صح في غير ما طريق: "ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة".

٤١٥٥. فيها: كمال قوة الله ﷻ وسلطانه.

٤١٥٦. في الآية إثبات ولاية الله للطائعين، أما الذين يعملون السوء فليس لهم ولي يتولى أمرهم ومصالحهم.

٤١٥٧. تفيد أن الولي والنصير هو الله ﷻ؛ ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٤٠] ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٩] ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٥].
ومن أسمائه ﷻ: الولي والنصير، ويلاحظ ارتباط هذين الاسمين في كثير من الآيات.

٤١٥٨. تفيد – بالمفهوم – أن ولاية الله ونصرته، لا تنال إلا بالعمل الصالح، وأن اقتراف الآثام، وترك ما أوجب الله سبب في تخلي الله عن العبد، وكما قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣] فكل مؤمن تقي، هو لله ولي؛ وعليه: ففيها: رد على المتصوفة الغلاة؛ الذين يزعمون أن التكاليف أو بعضها تسقط عن

السادة، والأولياء، مع تركهم الفرائض وإتيانهم المحارم. قال ابن عاشور: فيها الرد على عقيدة من يتوهّم أنّ أحداً يغني عن عذاب الله. [التحرير و التنوير].

٤١٥٩. فيها: أن من يعمل صالحاً، يصرف عنه العذاب، ويتولاه الله [يلي أمره]، وينصره ويدافع عنه.

٤١٦٠. فيها الحث على التوبة وكثرة الاستغفار؛ لنسلم من عقوبات الله في الدنيا والآخرة.

٤١٦١. تفيد شدة الترابط بين هذه الآية والآية السابقة فلما أحَال الله تعالى الْخلق على الْعَمَل في الآية السابقة بَين الْعَمَل فِي هَذِه الْآيَة والجزاء عليه.

٤١٦٢. تفيد أن شرط قبول العمل الصالح صحة الإيمان.

٤١٦٣. تفيد أن دخول الجنة يستلزم الإيمان والعمل الصالح.

٤١٦٤. فيها أن النساء شقائق الرجال في العبادات إلا ما خصه الدليل.

٤١٦٥. فيها إنصاف للمرأة من الظلم الذي كان واقعاً عليها قبل شريعة الإسلام العادلة.

٤١٦٦. فيها الردّ على من يحرم المرأة حظوظاً كثيرةً من الخير من أهل الجاهلية، أو من أهل الكتاب. [التحرير و التنوير].

٤١٦٧. قوله: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فيها استشعار الإيمان _ إخلاصاً لله وتصديقاً للجزاء _عند الشروع في العمل؛ قال السعدي: فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء.

٤١٦٨. تفيد إثبات الجنة وترغب فيها؛ فإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٤١٦٩. فيها وعد بِتَوْفِيَةِ جَزاءِ أعْمالِهِمْ مِن غَيْرِ نُقْصانٍ، والرّاجِعُ فِي: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ لِعُمّالِ السُّوءِ وعُمّالِ الصّالِحاتِ جَمِيعًا، وجازَ أنْ يَكُونَ ذِكْرُهُ عِنْدَ أحَدِ الفَرِيقَيْنِ دَلِيلًا عَلى ذِكْرِهِ عِنْدَ الآخَرِ.

٤١٧٠. تفيد أهمية مخاطبة الناس بما يفهمون من واقعهم؛ لأن النَّقِيرِ هُوَ النَّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ وأهل المدينة أعرف الناس بذلك والله تعالى لا يظلم شيئاً صغيراً أو كبيراً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

٤١٧١. تفيد دقة المناسبة بين هذه الآية والآية السابقة؛ فالله تَعالى لَمّا شَرَطَ حُصُولَ النَّجاةِ والفَوْزَ بِالجَنَّةِ بِكَوْنِ الإنْسانِ مُؤْمِنًا – شَرَحَ الإيمانَ وبَيَّنَ فَضْلَهُ مِن وجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنَّهُ الدِّينُ المُشْتَمِلُ عَلى إظْهارِ كَمالِ العُبُودِيَّةِ والخُضُوعِ والِانْقِيادِ لِلَّهِ تَعالى.

والثّانِي: أنَّهُ الدِّينُ الَّذِي كانَ عَلَيْهِ إبْراهِيمُ عليه السلام وكُلُّ واحِدٍ مِن هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ بِالتَّرْغِيبِ فِي دِينِ الإسْلامِ.

٤١٧٢. تفيد مع ما قبلها أن الإسلام الصحيح القائم على أسسه الثابتة هو سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة، وهو الدين القائم على الحقائق الصحيحة وليس على الأماني الباطلة.

٤١٧٣. تفيد مع ما قبلها أن دخول الجنة لمن زكّى نفسه بالإسلام والإيمان والإحسان، وليس بالأماني الفارغة.

٤١٧٤. ومن المناسبات: لما سبق ذكر الشيطان وتزيينه للباطل، وذكر صور من صور الضلال والشرك والزيغ والضلال، ناسب التوجيه هنا لاتباع إبراهيم عليه السلام في ميله عن الشرك وعن جميع الأديان الباطلة، إلى التوحيد ودين الحق..

٤١٧٥. في الآية براعة استهلال بأسلوب الإنشاء، في طرح سؤال يستفز العقول والنفوس، لتقرير خبر: أن لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله..

٤١٧٦. فيها: لا أحسن من الإسلام ديناً.

٤١٧٧. تفيد فَضَّلَ دِينَ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ.

٤١٧٨. تفيد فَضِيلَة الإِسْلامِ؛ فإن مُحَمَّدًا ﷺ إنَّما دَعا الخَلْقَ إلى دِينِ إبْراهِيمَ عليه السلام وقَدِ اشْتُهِرَ عِنْدَ كُلِّ الخَلْقِ أنَّ إبْراهِيمَ عليه السلام ما كانَ يَدْعُو إلّا إلى اللَّهِ تَعالى كَما قالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ – ٧٩] وما كانَ يَدْعُو إلى عِبادَةِ فَلَكٍ ولا طاعَةِ كَوْكَبٍ، ولا سَجْدَةِ لِصَنَمٍ، ولا اسْتِعانَةِ بِطَبِيعَةٍ، بَلْ كانَ دَيْدَنُهُ الدَّعْوَةَ إلى اللَّهِ والإعْراضَ عَنْ كُلِّ ما سِوى اللَّهِ، وهَكَذا دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ، ﷺ.

٤١٧٩. في الآية الكريمة شهادة لمحمد ﷺ أنه حقق هذه المنزلة العالية [الأحسن دينا]؛ لأن الآية نزلت عليه، وهو بلغها، وهو خير أمته اعتقاداً وعملاً، إضافة إلى أن إحسانهم جميعاً يحسب له لأنه هو الذي أرشدهم إليه.

٤١٨٠. تفيد أن النجاة في الآخرة تكون بتجريد التوحيد لله، والاتباع لما جاء عنه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] ومَعْنى إسْلامِ وجْهِهِ لِلَّهِ إطاعَتُهُ وإذْعانُهُ، وانْقِيادُهُ لِلَّهِ تَعالى بِامْتِثالِ أمْرِهِ، واجْتِنابِ نَهْيِهِ في حالِ كَوْنِهِ مُحْسِنًا، أيْ: مُخْلِصًا عَمَلَهُ لِلَّهِ لا يُشْرِكُ فِيهِ بِهِ شَيْئًا مُراقِبًا فِيهِ لِلَّهِ كَأنَّهُ يَراهُ، فَإنْ لَمْ يَكُنْ يَراهُ فاللَّهُ تَعالى يَراهُ.

٤١٨١. دلت الآية الكريمة على وجوب الإخلاص والمتابعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذان الوصفان وهما: إسلام الوجه لله، والإحسان هما الأصلان المتقدمان، وهما كون القول والعمل خالصاً لله، صواباً: موافقا للسنة والشريعة؛ وذلك أن إسلام الوجه لله هو يتضمن إخلاص القصد والنية لله سبحانه". الاستقامة [٢/٣٠٤].

٤١٨٢. تفيد أن الدين الحق هو ما جمع الاستسلام لله مع حسن العمل واتباع سنن الهداة السابقين.

٤١٨٣. فيها أن كل إنسان له دين، فإما أن يكون دينه الإسلام وهو أحسن الأديان، أو يكون دينه الكفر والشرك.

٤١٨٤. تفيد أنَّ صَرْفَ العَبْدِ نَفْسَهُ بِكُلِّيَّتِها لِلَّهِ تَعالى أعْلى المراتِبِ الَّتِي تَبْلُغُها القُوَّةُ البَشَرِيَّةُ.

٤١٨٥. تفيد أهمية ومنزلة التوحيد لإحسان الدين والوصول للدرجات العالية، فالخلل في الدين يبدأ من خلل الاعتقاد، والإحسان يكون بإحسان هذا الجانب.. فالله الله في جوانب المعتقد وتصحيحها؛ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

٤١٨٦. يفيد ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الحَصْرَ، مَعْناهُ: أنَّهُ أسْلَمَ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وما أسْلَمَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وهَذا تَنْبِيهٌ عَلى أنَّ كَمالَ الإيمانِ لا يَحْصُلُ إلّا عِنْدَ تَفْوِيضِ جَمِيعِ الأُمُورِ إلى الخالِقِ، وإظْهارِ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ.

٤١٨٧. تفيد فَساد طَرِيقَةِ مَنِ اسْتَعانَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإنَّ المشْرِكِينَ كانُوا يَسْتَعِينُونَ بِالأصْنامِ والأوثان ويَقُولُونَ: هَؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ، والدَّهْرِيَّةُ والطَّبِيعِيُّونَ يَسْتَعِينُونَ بِالأفْلاكِ والكَواكِبِ والطَّبائِعِ وغَيْرِها. واليَهُودُ كانُوا يَقُولُونَ في دَفْعِ عِقابِ الآخِرَةِ عَنْهُمْ: إنَّهم مِن أوْلادِ الأنْبِياءِ، والنَّصارى كانُوا يَقُولُونَ: ثالِثُ ثَلاثَةٍ، فَجَمِيعُ الفِرَقِ اسْتَعانُوا بِغَيْرِ اللَّهِ ﷻ.

٤١٨٨. فيها: لما طلب أشرف ما في النفس: الإخلاص؛ صوّر الاستجابة بأشرف ما في البدن: الوجه.

٤١٨٩. تفيد منزلة ومكانة الوجه في الإنسان، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء فإذا انقاد لله فقد انقاد له جميع الأعضاء لأنها تابعة له.

٤١٩٠. فيها تكريم للوجه بنص الآية وبغيرها من الآيات، وقد جاء النهي عن ضرب الوجه حتى في القتال؛ لما فيه من مجامع الحسن، وتصويره لدواخل الإنسان من فرح وحزن، وغضب ورضا... ولما فيه من وسائل الإدراك الحساسة، التي قد تؤثر في النفس فتنتقل بالإنسان من الكفر إلى الإيمان، بما يرى من الآيات ويسمع من المواعظ..

٤١٩١. الآية تفيد بأن الوجه يعبر عن الحالة الداخلية للإنسان.

٤١٩٢. تفيد أهمية صرف الأعمال لله تعالى، والإحسان فيها، وضرورة الإقبال عليه ظاهراً وباطناً؛ فإنه إذا أسلم العبد وجهه لله فقد أسلم أشرف شيء وأكرمه من جسده لله تعالى، فكيف بباقي أعضائه؟!

٤١٩٣. فيها: جملة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية؛ تفيد أن يكون العمل الصالح يصحبه الإحسان.

٤١٩٤. فيها إشارة إلى أن الإحسان هو أعلى مراتب الدين﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

٤١٩٥. في الآية أن الترقي في القرب من الله ﷻ يكون من خلال هذين المعيارين: الأول: إسلام الوجه لله. والثاني: الإحسان في العمل باتباع محمد ﷺ؛ فاتباع محمد ﷺ هو دليل اتباع ملة إبراهيم.

٤١٩٦. فيها: إشارة إلى أهمية العمل، بل جمعت الآية بين مراتب الدين كلها؛ الإيمان والإحسان، والإسلام. وعليه: ففيها رد على المرجئة.

٤١٩٧. تفيد أن اتباع المنهج مقدم على اتباع الخلق مهما كانت منزلتهم؛ ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

٤١٩٨. تفيد أن تحقيق الحنيفية التي هي إخلاص التوحيد لله تعالى هي أعظم عمل يقرّب إلى الله تعالى، وبه تنال محبته وقربه.

٤١٩٩. فيها استخدام أسلوب الاستفهام التقريري لتأكيد الخبر وتقويته، وما يحمل مع ذلك من معاني النفي والتعجب.

٤٢٠٠. يفيد إظْهارُهُ عليه السلام في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ لِتَفْخِيمِ شَأْنِهِ والتَّنْصِيصِ عَلى أنَّهُ المَمْدُوحُ، وسِرُّ هَذِهِ الجُمْلَةِ التَّرْغِيبُ في اتِّباعِ مِلَّتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - فَإنَّ مَن بَلَغَ مِنَ الزُّلْفى عِنْدَ اللَّهِ تَعالى مَبْلَغًا مُصَحِّحًا لِتَسْمِيَتِهِ خَلِيلًا حَقِيقٌ بِأنْ يَكُونَ اتِّباعُ

طَرِيقَتِهِ أَهَمَّ ما يَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْناقُ الهِمَمِ، وأَشْـرَفَ ما يَرْمُقُ نَحْوَهُ أَحْداقُ الأُمَمِ، فَإِنَّ دَرَجَةَ الخُلَّةِ أَرْفَعُ مَقاماتِ المَحَبَّةِ، وما ذاكَ إلّا لِكَثْرَةِ طاعَتِهِ لِرَبِّهِ، كَما وصَفَهُ بِهِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

٤٢٠١. تفيد أن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، فإبراهيم عليه السلام بلغ ما بلغ بما وفّى به في حق ربه جل وعلا، قالَ كَثِيرٌ مِن عُلَماءِ السَّـــلَفِ: أيْ: قامَ بِجَمِيعِ ما أُمِرَ بِهِ، وفي كُلِّ مَقامٍ مِن مَقاماتِ العِبادَةِ، فَكانَ لا يَشْغَلُهُ أمْرٌ جَلِيلٌ عَنْ حَقِيرٍ، ولا كَبِيرٌ عَنْ صَغِيرٍ، وقالَ تَعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] الآيَةَ، وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

٤٢٠٢. فيها: بيان فضـل إبراهيم عليه السلام فيجب على العبد أن يحب من أحبه الله، ويقتفي أثره، ويتخذه أسوة يقتدي به؛ و "المرء مع من أحب" رواه البخاري.

٤٢٠٣. تفيد أهمية تعلم ما جاء عن سـيرة إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسـنة، والاقتداء به؛ فإن الله مدحه ليكون قدوة لنا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٤٢٠٤. فيها دليل على التفاضل بين الأنبياء، وأن أفضلهم الخليلان.

٤٢٠٥. تفيد تفاضل تحقيق التوحيد في القلوب تفاضلاً لا يعلمه غيره تعالى.

٤٢٠٦. يؤخذ من الآية أسـلوب عظيم في الدعوة، وهو تذكير الناس بما كان عليه سـلفهم من الإيمان والاستقامة، ليكونوا خير خلف لخير سلف.

٤٢٠٧. تفيد أهمية إبراز القدوات للناس، وبيان صفاتهم التي تميزوا بها ليقتدوا بهم.

٤٢٠٨. فيها: إثبات صفة "الخلة" لله – جل ذكره –.

٤٢٠٩. في الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى اتخذ محمدا ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خَليلاً؛ لأنه هو الذي اتبعه على ملته أعلى اتباع وأكمله، بل هو على الملة الحنيفية الكاملة بكمال شـــريعتها

وسماحتها؛ فهو أقرب في خلة الله ﷻ من أبيه إبراهيم ﵇ وهو الخليل الأعظم صاحب الوسيلة والشفاعة والمقام المحمود.

٤٢١٠. تفيد أن الخلة أعظم المنازل التي ينالها الخلق؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل الخلة عبادة الله وحده، والعبادة غاية الحب والذل". مجموع الفتاوى[١٦/٢٠٢]. وقالَ الإمامُ العَلّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ القَيِّمِ في كِتابِهِ "الجَوابُ الكافِي": "الخُلَّةُ تَتَضَمَّنُ كَمالَ المَحَبَّةِ ونِهايَتَها، بِحَيْثُ لا يَبْقى في القَلْبِ سَعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وهي مَنصِبٌ لا يَقْبَلُ المُشارَكَةَ بِوَجْهٍ ما، وهَذا المَنصِبُ خاصَّةٌ لِلْخَلِيلَيْنِ - صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِما - إبْراهِيمَ ومُحَمَّدٍ، كَما قالَ ﷺ: " إنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَما اتَّخَذَ إبْراهِيمَ خَلِيلًا ". وفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أنَّهُ قالَ: " لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِن أهْلِ الأرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَلِيلًا، ولَكِنَّ صاحِبَكم خَلِيلُ اللَّهِ". ثُمَّ قالَ ابْنُ القَيِّمِ قُدِّسَ سِرُّهُ: وأمّا ما يَظُنُّهُ بَعْضُ الظّانِّينَ أنَّ المَحَبَّةَ أكْمَلُ مِنَ الخُلَّةِ وأنَّ إبْراهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، ومُحَمَّدٌ ﷺ حَبِيبُ اللَّهِ - فَمِن جَهْلِهِ، فَإنَّ المَحَبَّةَ عامَّةٌ والخُلَّةَ خاصَّةٌ، والخُلَّةُ نِهايَةُ المَحَبَّةِ، وقَدْ أخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إبْراهِيمَ خَلِيلًا، ونَفى أنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رَبِّهِ، مَعَ إخْبارِهِ بِحُبِّهِ لِعائِشَةَ ولِأبِيها ولِعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ وغَيْرِهِمْ ﵃".

٤٢١١. فيها: المراتب العالية ينالها أصحاب الهمم السامية - وما أدرك إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام هذه الخلة إلا بالأهلية، فليست المراتب بالأماني الكاذبة، بل بالنوايا الخالصة، والأعمال الصادقة، وتقديم الآخرة.

٤٢١٢. فيها أن المحبة مراتب.

٤٢١٣. فيها: رد على المارق "الجعد بن درهم"، ومن تبعه من الجهمية، الذين يزعمون أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا!.

٤٢١٤. في الآية رد على اليهود والنصارى الذين يدعون الانتساب إلى خليل الله إبراهيم ﵇، وليسوا على ملته ودينه، وهو الاسلام.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء: ١٢٦].

٤٢١٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق ذكر الخلة التي أكرم الله ﷻ بها نبيه إبراهيم عليه السلام وحتى لا يُظن أنها خلة كخلة البشر، ناسب الاحتراز بعدها بقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾.

٤٢١٦. فيها إشعار بغنى الله عن خلقه، حتى لا يتوهم أحد أنه يتخذ فلاناً خليلاً أو فلاناً حبيباً لحاجة ومنفعة. وقد قيل: "لم تخلق الخلق لوحشة، ولا استعملتهم لمنفعة" ففيها مناسبة دقيقة لما قبلها.

٤٢١٧. فيها مع ما قبلها: تأكيد على أن الخلة لإبراهيم عليه السلام لا تخرجه عن رتبة العبودية لله سبحانه وتعالى

٤٢١٨. فيها مع ما قبلها: علو مكانة الخليلين؛ حيث اختارهما من جميع ما أحاط به علمه وملكه سبحانه وتعالى.

٤٢١٩. تفيد كمال الملك لله سبحانه وتعالى، مع كمال العلم والإحاطة، وهذا لا يكون إلا لله تعالى.

٤٢٢٠. فيها أنّ الله سبحانه مالك الملك، وهو المستحق وحده للعبادة والطاعة.

٤٢٢١. تضمنت الآية الأمر بالنظر والتأمل في خلق السموات والأرض، والاستدلال بذلك على وحدانية الله وقدرته وعزته.

٤٢٢٢. فيها: إلزام الخلق بتوحيد العبادة، وإفراد الله بها دون من سواه. ووجهه: تقديم ما حقه التأخير في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص؛ فلله الملك والخلق وحده، وليس لغيره فيهما شرك وزن مثقال ذرة. ولذا لم يقل: "وما في السماوات والأرض لله"، ففيه: إلزام بإفراده بالعبادة [توحيد الألوهية]، لأن من يملك على الحقيقة، هو الذي يعبد، ويفرد بالعبودية؛ ولأن توحيد الربوبية ملزم بتوحيد الإلهية، والعكس.

٤٢٢٣. فيها سعة ملك الله جل جلاله.

٤٢٢٤. فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع

المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٢٢٥. الآية محفزة للمؤمنين لدعاء ربهم واللجوء إليه وطلبه في كل ما يحتاجونه. لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض.

٤٢٢٦. فيها: تكرار ﴿مَا فِي﴾ يدل على أن أهل السماوات غير أهل الأرض.

٤٢٢٧. فيها ترغيب وترهيب؛ لقوله:﴿مُّحِيطًا﴾: ترغيب لمن عمل صالحاً فالله يعلمه ولن يتر صاحبه. وترهيب لمن عمل سوءاً بأن الله مطلع عليه وإذا أراد أخذه فلن يفلته.

٤٢٢٨. فيها: إشارة إلى أنه: ليس الشأن في "الملك" فحسب، وإنما الشأن في الإحاطة به جملة وتفصيلا، وتدبيره بالعدل والحكمة. ولذا كان ملك الملوك قاصراً، لأنهم عاجزون إلا بغيرهم؛ أن يحيطوا بما يملكونه. ولذا جاء التذييل بقوله:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ يريد: لم يزل الله محيطاً بكل ما يفعله عباده من خير وشر، عالما بذلك، لا يخفى عليه شيء منه.

٤٢٢٩. الآية تشعر المؤمن بالأمان ليقينه بإحاطة ربه ﷻ بكل ما في السماوات وما في الأرض. فكل ما يخيف المؤمنين من شيء مهما عظم وتجبر فالله محيط به علماً وقدرةً. فما أعظمك يا ربنا.

٤٢٣٠. فيها دليل على عظمة الخالق ﷻ، وكمال تصرفه في الكون.

٤٢٣١. فيها سعة علم الله تعالى وقدرته.

٤٢٣٢. ترشد الآية إلى مراقبة الله تعالى في كل حال، فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

٤٢٣٣. تفيد تنمية المهابة لله ﷿ في قلوب العباد.

٤٢٣٤. في الآية تقرير لوجوب طاعة الله على أهل السماوات والأرض..

٤٢٣٥. فيها تسلية للمسلمين وتطمين.

٤٢٣٦. تفيد الاستغناء بالله ﷻ وسؤاله واللجوء إليه لأنه المحيط بكل شيء سبحانه وبحمده.

٤٢٣٧. فيها، وبضميمة ما بعدها: أن الذي يملك السماوات والأرض هو الذي يشرع ويحكم ولا معقب لحكمه، لقوله بعدها: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

٤٢٣٨. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما ختمت الآية السابقة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ ناسب أن يكون مصدر الفتيا الذي أحاط بكل شيء علماً وحكمة.

٤٢٣٩. فيها مع التي قبلها: أن إحاطة الله ﷻ بما في السماوات والأرض يطمئن المستفتين أنهم سيجدون ما فيه كفايتهم بالرجوع لكتاب الله سبحانه.

٤٢٤٠. فيها مع التي قبلها إشارة دقيقة إلى أنه ينبغي على من يتصدر للإفتاء، أن يكون محيطاً بالمسائل الشرعية التي تؤهله للفتوى..

٤٢٤١. فيها تأكيد على أن القرآن الكريم نزل ليعالج العادات الجاهلية، ويرسي قواعد بناء المجتمع الفاضل..

٤٢٤٢. فيها تأكيد على أن الخالق الحكيم هو صاحب الحق في إقرار الحقوق وتشريع الأحكام المتعلقة بالنساء..

٤٢٤٣. فيها استحباب العلم، وسؤال أهل العلم.

٤٢٤٤. تفيد حرص الصحابة رضي الله عنهم على العلم.

٤٢٤٥. تفيد حرص الصحابة وعنايتهم بمعرفة الأحكام الشرعية للعمل بها؛ وخصوصاً تلك المتعلقة بشأن النساء؛ وذلك لشدة تورعهم عن ظلم النساء وايذائهن. وقد استوصى الشرع بالنساء خيرا.

٤٢٤٦. تفيد الحرص على معرفة الأحكام.

٤٢٤٧. تفيد أن النبي ﷺ هو سيد المفتين وقدوتهم، وقد كان الصحابة يستفتونه.

٤٢٤٨. فيها: إذا سئل العالم ولم يكن عنده علم بالإجابة فعليه أن يبحث عن الإجابة عند من هو أعلم بها منه.

٤٢٤٩. تفيد أن الأسئلة عن الموضوعات المتعلقة بالنساء ستكون مستمرة؛ لقوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار. ولذلك ينبغي الاعتماد والرجوع إلى ما أنزله الله سبحانه عن النساء وإظهاره وتعليمه والإعلام به.

٤٢٥٠. تفيد بيان عناية الشريعة الإسلامية بالنساء؛ وأن كل ما شرع من أحكام فهو في مصلحتهن بلا شك ولا ريب؛ وفي هذا رد على من يظن من السفهاء الحقوقيين بأن أحكام الشرع فيه هضم وظلم لحقوق المرأة.

٤٢٥١. تفيد أن الله ﷻ يفتي عباده ويبين لهم، وفي هذا توجيه إلى الافتقار إلى الله ﷿ في طلب العلم، وفهم الحجج، والتسديد في الجواب عن أسئلة المستفتين؛ فقد قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. يا معلم إبراهيم علمنا ويا مفهم سليمان فهمنا.

٤٢٥٢. فيها: قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ وعد من الله تعالى بالإجابة عما يسألون عنه. وهو لون من تبشير السائل المتحير بأنه قد وجد ضالته حتى يطمئن قلبه، ويهدأ باله.

٤٢٥٣. فيها: في تقديم لفظ الجلالة تنويه بشأن هذه الفتيا، وإشعار بوجوب التزام ما تتضمنه من أحكام لأنها صادرة من العليم الخبير.

٤٢٥٤. تفيد أهمية الرجوع إلى ما في كتاب الله تعالى من الأحكام الشرعية؛ لقوله تعالى:﴿ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن تقيد الفتاوى الشرعية بالكتاب والسنة ليستفيد منها المجتمع المؤمن.

٤٢٥٥. تفيد بإشارة لطيفة إلى أنه ينبغي للمفتي أن يذكر للمستفتي الحكم الشرعي مع الدليل إن أمكن؛ أو لفت نظره إلى الموطن الذي ورد فيه الدليل.

٤٢٥٦. تفيد كثرة ما في القرآن من علم وجواب عن أسئلة السائلين؛ لأن قوله تعالى:﴿ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي يفتيكم أيضاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [قل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام].

٤٢٥٧. فيها: قوله تعالى:﴿ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أصلٌ في الإحالة، فيؤخذ من الآية أنه ينبغي للكاتب أو الخطيب مراعاة الأحوال، فيحيل ويوجز في مكان، ويطنب ويفصِّل في مكان آخر، كل ذلك بما يحقِّق المصلحة والمقصود.

٤٢٥٨. الآية الكريمة اشتملت على ألوان من الترغيب بشأن الإحسان إلى النساء، وإلى المستضعفين من الولدان، وإلى اليتامى؛ حتى تعيش الأمة عيشة هانئة، يشعر ضعيفها برعاية قويها له، ويشعر قويها برضا ضعيفها عنه.

٤٢٥٩. تفيد وجوب إعطاء الضعفاء من الولدان والنساء وغيرهم حقهم في الميراث، وتعجيل ذلك، وهذه مسألة يتساهل فيها كثير من الناس.

٤٢٦٠. تفيد عناية الشريعة الإسلامية بيتامى النساء؛ والوصية بهن؛ حيث اجتمع في حقها ضعفان: ضعف من حيث كونها امرأة؛ وضعف من حيث فقد العائل.

٤٢٦١. تفيد بيان ما كان عليه أهل الجاهلية من التسلط والجبروت والظلم للنساء عموماً ولليتامى منهن خصوصاً؛ حيث لم يكن يؤتونهن ما كتب لهن؛ ويتحكمون فيهن وفي مصيرهن وهضم حقوقهن.

٤٢٦٢. فيها بيان جمال الإسلام وعدله، ونبذه وطرحه لجور الجاهلية الأولى؛ سيما للضعيفَين "المرأة واليتيم"؛ لأنهم كانوا في الجاهلية لا يورّثون الصغار ولا البنات؛ فنهاهم عن ذلك.

٤٢٦٣. فيها: شتان ما بين عدالة الإسلام وظلم الجاهلية في معاملة يتامى النساء.

٤٢٦٤. تفيد أن المهر مفروض للمرأة؛ ولا حق لوليها في هذا المهر؛ ولهذا فإن لها الحق في أن تعطي من تشاء منه بطيب نفس ما دامت عاقلة رشيدة؛ لقوله تعالى:﴿ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾.

٤٢٦٥. تفيد أنه يجوز للوصي أو الولي أن يتزوج موليته اليتيمة إذا كان يحل له زواجها؛ وعليه أن يتقي الله فيها فلا يظلمها ولا يهضمها حقوقها المشروعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

٤٢٦٦. تفيد سعة معاني القرآن، وأن الجملة الواحدة قد تدل على المعنى ومقابله فإن قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن. وكلا المعنيين مراد في الآية؛ فما أكثر هدايات القرآن الكريم!

٤٢٦٧. تفيد عناية الشريعة بالمستضعفين من الولدان عموماً؛ وذلك من خلال التوصية بالرفق بهم والإحسان إليهم وإدخال السرور في قلوبهم؛ لقوله تعالى:﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في هذا الباب.

٤٢٦٨. فيها: إذا كان استضعاف المشركين لفئة من المجتمع شنيعاً فوقوعه منكم أهل الإسلام أشد شناعة.

٤٢٦٩. فيها: الوصاية بالمستضعفين وهذا من سماحة الدين وشموله.

٤٢٧٠. تفيد الأمر بالقيام على اليتامى بالقسط أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله. ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم

لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حثّ غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٢٧١. تفيد وجوب قيام المجتمع بحفظ وأداء حقوق اليتامى بالقسط والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ فعبر بالقيام للإشارة إلى أن إقامة العدل والقسط من أسباب قيام المجتمعات وبقاء الدول وتفوقها؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة".

٤٢٧٢. تفيد الحث على الإحسان عموما؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم سواء كان الخير متعدياً أو لازماً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسنا وضده، فيجازي كُلًّا بحسب عمله.

٤٢٧٣. فيها: الترغيب في فعل الخير مهما كان؛ فإنه عند العليم سبحانه بمكان.

٤٢٧٤. فيها: اشارة إلى: الإخلاص في فعل الخير، وأن يراد به وجه الله؛ لقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

٤٢٧٥. فيها: الحذر من الإخلال بالواجب، فكل ما عمل فالله به عليم.

٤٢٧٦. تفيد سعة علم الله ﷻ، واتصافه بالعلم أزلاً وأبداً.

٤٢٧٧. تفيد مع ما بعدها أن أصعب الفتاوى وأشدها هي ما كانت متعلقة بالمشاكل الزوجية من النشوز والإعراض والمحبة والفراق؛ ولهذا فإن المفتي غالباً ما يحيل هذه المسائل إلى القضاء لصعوبة البت فيها؛ والقضاء يحيلها إلي لجنة الإصلاح عملا بقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨].

٤٢٧٨. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها؛ فبعد أن ذكرت الآية السابقة أن الرجل قد يتزوج من ذوات الأموال من النساء اليتامى من أجل مالها، لا من أجل العيش والاستقرار معها،﴿ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ عقب ذلك بذكر أحوال المشاقة بين الأزواج في هذه الآية واللاتي بعدها.

٤٢٧٩. تفيد عناية الله ﷻ بما يحصل بين الزوجين وذلك بذكر أمور وأحوال تستدعي من الشرع ذكرها وتوضيحها، ولو كانت تلك الأمور والحالات قليلة أو نادرة في المجتمع، وسبب ذلك أن الزوجين هما اللبنة الأساسية للمجتمع، وهما الرابطة التي تربط بين الأولاد، وبين الصهر وصهره، وخراب هذه اللبنة أو الرابطة خراب للمجتمع، ولهذا عبر سبحانه وتعالى بـ﴿ وَإِنِ ﴾ المفيدة للقلة والندرة:﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن ترفع الأزواج ونشوزهم عن زوجاتهم لا ترقى إلى أن تكون ظاهرة في المجتمع المؤمن.

٤٢٨٠. فيها: العمل بالقرائن ثابت بالقرآن والسنة؛ لقوله:﴿ خَافَتۡ ﴾ ولم يقل رأت.

٤٢٨١. تفيد أن المرأة ينبغي أن تتفطن لمرضاة زوجها أو نشوزه وإعراضه وتسعى لإصلاح ذلك الخلل، حتى لا يتطور الأمر فيصير بينهما أمراً جللاً في علاقتهما من فراق أو طلاق أو غيره.

٤٢٨٢. يفيد التعبير بالبعل في هذا السياق دون أن يقول مثلا؛ [وإن امرأة خافت من زوجها نشوزا] للإشارة إلى أن الأصل في الزوج هو الاستعلاء؛ وعلى المرأة أن لا تأنف من ذلك بل عليها أن تحسن التبعل لبعلها؛ قال الراغب في البعل: الذكر من الزوجين؛ ولما تصور من الرجل استعلاء على المرأة فجعل سائسها والقائم عليها شبه كل مستعل على غيره به؛ فسمي باسمه؛ فسمى العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله تعالى بعلا لاعتقادهم ذلك فيه؛ ومنه: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلًا﴾ [الصافات: ١٢٥] ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٤٢٨٣. فيها: أن النشوز قد يكون من الزوج.

٤٢٨٤. فيها: وقد عبر سبحانه عن طلب الصلح بقوله:﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ ﴾ ترفقاً في الإيجاب، ونفياً لما يتوهم من أنَّ تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه يؤدى إلى الإثم، لأن

الصلح بينهما يقتضى أن يتسامح أحد الزوجين في جزء من حقه ليظفر بخير أكثر مما تسامح فيه. فإذا تركت المرأة بعض حقها لتدوم عشرتها مع زوجها بالمعروف فذلك لا إثم فيه بل إن فيه الخير.

٤٢٨٥. يفيد قوله تعالى - بالمفهوم -:﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ أن ثَمَّ جناح إذا لم تسلك هذه السبل التي شرعها الله ﷻ.

٤٢٨٦. فيها: التنكير في قوله: ﴿ صُلْحًاۚ ﴾ له فائدة وهو إسقاط حقها بلا عوض، لأن الله ﷻ أطلق هنا.

٤٢٨٧. فيها: لا يعني التنازل عن الحق صلحاً هضمٌ للحق.

٤٢٨٨. تفيد حرص الإسلام على إبقاء الروابط الأسرية، وإن استدعى ذلك التنازل عن بعض الحقوق.

٤٢٨٩. فيها: بقاء المرأة مع زوجها والتنازل عن كل حقها أو غالبه خير لها من بقائها بلا زوج يرعاها ويحنو عليها ويقضي حوائجها ويرعى مصلحتها، ولأنها إذا بقيت بلا زوج طمع فيها الذي في قلبه مرض حتى ولو كانت عجوزاً شمطاء وقد تضعف فتستجيب بسبب الفقد والحرمان فلكل ساقطة لاقطة.

٤٢٩٠. تفيد أن ترك التسوية بين النساء وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها.

٤٢٩١. فيها: أكد سبحانه هذا الصلح بقوله:﴿ صُلْحًاۚ ﴾ للإشارة إلى وجوب أن يكون الصلح بينهما حقيقياً لا شكلياً، وأن يكون بحيث تتلاقى القلوب، وتصفو النفوس. وتشيع بينهما المودة والرحمة، ويرضى كل واحد منهما بما قسم الله له. وقوله:﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ جملة معترضة من مبتدأ وخبر لتأكيد الصلح الذي حض الله عليه قبل ذلك. أي: والصلح بين

الزوجين خير من الفرقة وسوء العشرة، اللهم إلا إذا استحال الصلح والوفاق بينهما فإنه في هذه الحالة تكون الفرقة بينهما خيراً؛ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ.

٤٢٩٢. فيها: الصلح خير، وعاقبته حميدة.

٤٢٩٣. فيها: قد يكون الصلح ثقيلاً على النفس لكنه سهل على أهل الإيمان الذين يؤمنون أنه خير.

٤٢٩٤. فيها: "قوله:﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ يؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيه من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح. وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمر الله به وحثّ عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبةً فيه. وذكر المانع بقوله: ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك. فمتى وفق الإنسان لهذا الخُلُق الحسن سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر". [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٢٩٥. تفيد أن أحد الزوجين إذا تنازل عن بعض حقوقه للآخر بقصد الإبقاء على الحياة الزوجية جاز ذلك، فإذا رغب رجل- مثلاً- في طلاق زوجته لسبب من الأسباب وكانت

الزوجة تريد البقاء معه، وتنازلت المرأة عن بعض حقوقها في سبيل أن تبقى معه وتراضيا على ذلك عن طيب خاطر، بأن أعطته بعض المال- مثلاً- فإن ما أخذه منها لا يعد مالاً حراماً في مثل هذه الحالة. أما إذا تظاهر الرجل بالنشوز أو الإعراض لكي ينال شيئاً من حقوقها أو تتنازل له عن بعضها، فإن ما يأخذه الرجل منها في مثل هذه الحالة يكون أكلاً لحقوق غيره بالباطل، لأنه لم يكن راغباً حقيقة في الطلاق وإنما تصنع النشوز أو الإعراض اجتلاباً لمالها، واستدراراً لخيرها. وقد نهى الله عن كل ذلك بل أمر بترك النشوز، ووعد من يحسن المعاشرة الزوجية ويتقي الله بالأجر الجزيل.

٤٢٩٦. تفيد أن التنازل عن بعض الحقوق من أجل الصلح والإصلاح، ليس فيه غضاضة ولا هضم ولا ظلم، بل وليس فيه دلالة على أن العاقبة غير حميدة لأحد المتصالحين، لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ أي خير لجميع الأطراف المتصالحة.

٤٢٩٧. فيها: لا يشترط للشخص أثناء الصلح أن يحصل على كامل حقه بل ينبغي له إن كان سيخسر خسراناً كبيراً أن يضع بعض حقوقه من أجل الإصلاح.

٤٢٩٨. تفيد أن الشريعة الإسلامية تحب بل وتحث على بقاء الزوجة في عصمة زوجها، ولو مع إسقاط بعض الحقوق الواجبة بينهما، وهو أولى لهما من الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الطلاق شر، ومن الشر ما لا بد منه، وقد جاء في الحديث: " أبغض الحلال إلى الله الطلاق ". وعلى هذا فإنه لا يجوز للرجل أن يقدم مصلحته على ضرر غيره، ولا للمرأة أن تقدم مصلحتها على ضرر غيرها، فأما إذا أطاقا تحقق المصلحتين أو دفع المفسدتين وجب عليهما فعل ذلك.

٤٢٩٩. تفيد أن على الزوج أن يحسن إلى زوجته ويحرص على صحبتها وبقائها وإن كرهها كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

٤٣٠٠. يفيد بناء الفعل لغير الفاعل أو للمفعول في قوله:﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ تعليم الأدب مع الله ﷻ، وتفيد أن الله يبتلي عباده ببعض ما في خلقتهم من الصفات.

٤٣٠١. تفيد قمة البلاغة القرآنية، حيث جاء قوله تعالى:﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ من باب المبالغة، حيث جعل الشح كأنه شيء معد في مكان، وسيقت الأنفس وأحضرت إليه، وإنما لم تأت العبارة القرآنية هكذا [وأحضر الشح الأنفس] لكون الشح مجبولاً عليه الإنسان، ومركوزا في طبيعته.

٤٣٠٢. فيها: من أسوأ ما تتصف به النفس البشرية: الشح؛ فهو مانع لصاحبه من الخير؛ وقد قال رسول الله ﷺ: "إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم". فعلى المسلم إصلاح نفسه، ومدافعة الشح بتقوى الله ﷻ، وتدريب النفس على العطاء.

٤٣٠٣. فيها استحباب ترويض وتربية النفس على الصلح والإحسان والتسامح لأنه من الخير وهذا أفضل مما جُبلت عليه النفس من الشح.

٤٣٠٤. فيها أن الإحسان والتقوى من أعظم ما يدفع به شح النفس.

٤٣٠٥. تفيد مراعاة الإسلام للفطرة والأخلاق الجبِلِّيَّة وتشريعه الآداب لتوجيهها نحو الخير والأفضل فتسمو وترتفع؛ لأن الشح: هو البخل مع الحرص، والمراد: وأحضر الله الأنفس الشح. أي جبل الله النفوس على الشح بما تملكه، فالمرأة لا تكاد تتسامح أو تتنازل عن شيء من حقها، والرجل كذلك لا يكاد يتنازل عن شيء من حقوقه، لأن حرص الإنسان على حقه طبيعة فيه. فعلى الزوجين أن يلاحظا ذلك وأن يخالفا ميولهما وطبعهما من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية بصفاء ومودة. فالجملة الكريمة ترشد الإنسان إلى داء من أدوائه وتأمره بمعالجته حتى ولو أدى ذلك إلى مخالفة ما جبلت عليه نفسه.

٤٣٠٦. تفيد أن الشح والأثرة متأصِّلة في نفوس البشر، حيث إنها تقدم حظها وحقها على حظ غيرها وحقه، وأن علاج ذلك هو النظر والاهتمام بمصالح الناس وعدم الاضرار بأحد، مع التمسك بمبدأ الإحسان والتقوى في جميع ذلك.

٤٣٠٧. تفيد أن على الزوجين أن يحسنا العشرة الزوجية كل واحد منهما من جانبه، وأن يصبر كل واحد منهما على ما يكون من صاحبه من هفوات ومخالفات لا تخلو منها طبيعة الحياة الزوجية.

٤٣٠٨. فيها: الإحسان بجميع صوره، والتقوى من سبل الفلاح، وقد حث عليهما الكتاب والسنة.

٤٣٠٩. تفيد الحث على الإحسان: في عبادة الخالق، وفي معاملة المخلوقين؛ في عبادة الخالق بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وإلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك.

٤٣١٠. تفيد أنه ينبغي أن يدرك الزوج أن هذا الصلح الذي سيدخل فيه مع هذه المرأة ثقيلٌ على نفسها؛ فإن من طبيعة وجبلة المرأة أن تغار وتشح بزوجها ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ وعلى الزوج أن يعلم أنه هو الجانب الأقوى في هذا الصلح، فيجب أن يراعي مشاعرها ويحسن إليها ويتقي الله في شأنها، ولهذا وجّه الله الخطاب إلى الأزواج، فقال: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

٤٣١١. تفيد التهديد والوعيد لكل من يخل بهذا الصلح المعقود بين الطرفين ويفرط فيه، فإن الله عز وجل عالم به وخبير بإخلاله وتفريطه، وسوف يجازي كلا بما هو أهله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

٤٣١٢. تفيد وعدا إلهيا كريما للأزواج المحسنين لمعاملة زوجاتهم مثل غيرهن من الأزواج، المتوقين عن النشوز والإعراض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾. وفي هذا إشارة إلى بيان الأفضل من الصلح، وهو الإحسان في العشرة، واتقاء النشوز والإعراض وإن

تعاضدت الأسباب الداعية إليه، والصبر على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة، وعدم اضطرارهن إلى بذل شيء من حقوقهن.

٤٣١٣. فيها: عموم علم الله ﷻ، وإحاطته بكل شيء.

٤٣١٤. تفيد دقة المناسبة بين خاتمة الآية وموضوعها، حيث ختمت الآية الكريمة بصفة الخبير، وهو علم ما يلطف إدراكه ويدق؛ وذلك لأنه قد يكون بين الزوجين من خفايا الأمور والأحوال كالتي استدعت النشوز والاعراض، وكذلك تلك الأمور الخفية التي قد يتصالحان فيها، وكلها مما لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ ختم الله ﷻ هذه الآية بقوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٢٩].

٤٣١٥. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها؛ لما ذكر ﷻ أن الوقوف على الحق فضلاً عن الإحسان - وإن كانت المرأة واحدة - متعسر، أتبعه أن ذلك عند الجمع أعسر، فقال تعالى معبراً بأداة التأكيد: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ أي توجدوا من أنفسكم طواعية بالغة دائمة﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ أي من غير حيف أصلاً ﴿بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في جميع ما يجب لكل واحدة منهن عليكم من الحقوق ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ أي على فعل ذلك، وهذا مع قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣] كالمحتم للاختصار على واحدة. ولما أخبر ﷻ بأن لا يخلو نكاح العدد عن ميل، سبب عنه قوله: ﴿فَلَا﴾ أي فإن كان لا بد لكم من العدد، أو فإن وقع الميل والزوجة واحدة فلا ﴿تَمِيلُواْ﴾ ولما كان مطلق الميل غير مقدور على تركه فلم يكلف به، بيّن المراد بقوله: ﴿كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ ثم سبب عنه قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أي المرأة ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ أي بين النكاح والعزوبة والزواج والانفراد. ولما كان الميل الكثير مقدوراً على تركه، فكان التقدير: فإن ملتم كل الميل مع إبقاء العصمة فإن الله كان منتقماً حسيباً، عطف عليه قوله: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي بأن توجدوا الإصلاح بالعدل في

القسم والتقوى في ترك الجور على تجدد الأوقات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي محّاء للذنوب بليغ الإكرام فهو جدير بأن يغفر لكم مطلق الميل، ويسبغ عليكم ملابس الإنعام. [نظم الدرر للبقاعي].

٤٣١٦. في الآية النفي ب[لن] يدل على التأبيد الدنيوي، وفيه اعتذار للمعددين؛ ووجهه أن الله لا يؤاخذه بما لا يستطيع فليتحر العدل جهده وقدرته.

٤٣١٧. تفيد دليلاً للقاعدة الشرعية: ما لا يستطاع؛ لا يلزم به العبد. قال الشاعر: إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع.

٤٣١٨. تفيد إعجازاً قرآنياً مستمراً إلى قيام الساعة؛ ولم نسمع عن أحد استطاع العدل بين نسائه في المحبة.

٤٣١٩. فيها إشارة إلى: تمام عدل الله جل ذكره.

٤٣٢٠. تفيد أن العدل مطلوب في كل شؤون حياتنا ومنها الحياة الزوجية..

٤٣٢١. في الآية أن جوانب العدل كثيرة بعضها خارج عن قدرة الإنسان وهي الجوانب القلبية كمقدار المودة والرحمة، وبعضها داخل فيها كالأشياء المادية.

٤٣٢٢. تفيد مراعاة الإسلام أحوال النفس البشرية وميولها الفطرية إلى بعض النساء دون بعض، مع حثها على العدل في كل الأحوال.

٤٣٢٣. تفيد: قاعدة فقهية وهي: ما لا يدرك كله، لا يترك كله، وألفاظها متعددة.

٤٣٢٤. تفيد أن العبد لا ينبغي أن يكلف نفسه ما لا يستطيع أو يشق عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فكأنه قال: لا تكلفوا أنفسكم فوق استطاعتها.

٤٣٢٥. تفيد دقة العبارة القرآنية؛ حيث قال تعالى: ﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ ولم يقل: [فتتركوها] وذلك في إشارة إلى بيان وصول البعل إلى أقصى الغاية من الترك والهجران؛ وهو [ذر] الذي يأتي بمعنى ترك الأمر من غير اهتمام أو قلق بال؛ ولم يستعمل الماضي والمصدر من هذا الفعل.

٤٣٢٦. تفيد أنه ينبغي للداعية أن يستخدم أسلوب الحكمة في دعوته؛ وأن يستعمل بعض الألفاظ والتشبيهات فيما ينفر منه أو يرغب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾.

٤٣٢٧. تفيد أهمية استعطاف الضمائر الحية ببعض الصور والتشبيهات التي تستدعي العطف وتدخل الرأفة والرحمة في قلوب من يسمعها؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ ففي هذه العبارة تصوير لحالة هذه الزوجة التي مال زوجها عنها كلية؛ وكأنها معلقة بين السماء والأرض؛ وهو تصوير وتشبيه بديع يستوجب العطف عليها والرأفة بحالها.

٤٣٢٨. فيها أن المرأة في الإسلام لها حقوق عظيمة؛ فها هو القرآن يدافع عن المرأة ويحذر من جعلها معلقة.

٤٣٢٩. تفيد دقة العبارة القرآنية؛ حيث قال تعالى: ﴿أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يقل: [أن تساووا بين النساء]؛ وذلك لأن المساواة بينهن غير ممكنة وقد لا تكون عادلة في كثير من الأحوال؛ بخلاف العدل فإنه ممكن في جميع الأحوال؛ وفي هذا رد على دعاة المساواة بين الرجل والمرأة؛ فإن كان الله ﷻ لم يأمر الازواج بالمساواة في الجنس الواحد [النساء]؛ فكيف يعقل أن تكون المساواة بين جنسين مختلفين [الذكر والأنثى]؟.

٤٣٣٠. تفيد أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا؛ فهذه الآية تفسير لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣] أي [ألا تعدلوا] العدل المستطاع المذكور في هذه الآية.

٤٣٣١. تفيد دقة العبارة القرآنية؛ حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ ولم يقل: [فلا تميلوا الميل]؛ وذلك في إشارة إلى أن بعض الميل لا حرج فيه؛ لأنه داخل في نفي الاستطاعة.

٤٣٣٢. فيها: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين

الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٣٣٣. تفيد الحث على الإصلاح والصلاح والصلح.

٤٣٣٤. تفيد أثر التقوى في تحقيق العدل والإصلاح.

٤٣٣٥. تفيد أنه ينبغي أن يكون البعل المعدد صاحب عقلية إصلاحية بين زوجاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾؛ وعليه يتحمل الغيرة من زوجاته؛ وألا يزيد الطين بلة؛ بل يصلح ويوفق بينهن عند كل حادثة غيرة؛ ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في هذا المجال.

٤٣٣٦. تفيد دقة المناسبة فبعد أن ذكر الله ﷻ الإصلاح ذكر التقوى؛ وذلك في إشارة إلى أنه ينبغي على البعل المصلح أن يتقي الله تعالى في إصلاحه بين زوجاته؛ فلا يميل إلى واحدة دون الأخرى؛ أو يحابي ويؤازر إحداهن دون الأخرى.

٤٣٣٧. تفيد أن التحري للعدل والإصلاح وعدم تعمد الحيف والظلم: سببٌ في مغفرة الله تعالى.

٤٣٣٨. تفيد اسمين من أسماء الله الحسنى؛ وهما الغفور الرحيم؛ فبمغفرة الله تزول الهموم والكربات؛ وبرحمة الله تنال المأمولات والمرغوبات؛ فاللهم أزل عنا الهموم والكربات؛ وأنلنا المأمولات والمرغوبات يا غفور يا رحيم.

٤٣٣٩. تفيد إثبات صفة المغفرة وصفة الرحمة لله ﷻ أزلاً وأبداً.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٣٠].

٤٣٤٠. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع الآيتين السابقتين، فبعد أن ذكرت الآيتان النشوز والإعراض والزوجة المعلقة، وحثتا على حسن المعاشرة من خلال الإحسان والإصلاح والتقوى، جاءت هذه الآية لتبين العلاج وتوضح جواز الفراق بعد العمل بتلك الخطوات

المذكورة في الآيتين السابقتين، فالقضية كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٤٣٤١. هذه الآيات الكريمة وضعت أحكم الأسس للحياة الزوجية السليمة، وعالجت أمراضها بالعلاج الشافي الحكيم، فقد أمرت الرجال بأن يؤدوا للنساء حقوقهن، وأن يعاشروهن بالمعروف، وأن على الزوجين إذا ما دبَّ بينهما خلاف أن يعالجاه فيما بينهما بالتصالح والتسامح، وإذا اقتضى الأمر أن يتنازل أحدهما للآخر عن جانب من حقوقه فليفعل من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية. وأن الرجل لا يستطيع أن يعدل عدلاً مطلقاً كاملاً بين زوجاته، ولكن هذا لا يمنعه من العدل بينهن بالقدر الذي يستطيعه بدون تقصير أو ميل مع الهوى، فإن الميسور لا يسقط بالمعسور. وأنه إذا استحال الصلح وتنافرت الطباع، وساءت العشرة كان الفراق بينهما أجدى، إذ الفراق مع الإحسان خير من الإمساك مع المعاشرة السيئة التي عز معها الإصلاح والوفاق والتقارب بين القلوب.

٤٣٤٢. في مجيء هذه الآية بعد آيات العمل على الإصلاح، وبذل الجهد، والتقوى، وضبط النفس؛ قطعٌ لاستعجال النفوس وتطلعها للطلاق وهدم الأسرة بغرض تحصيل السعة، ويوجد في الواقع من يردد هذه الآية عند الحديث عن الطلاق بما يرغب فيه.

٤٣٤٣. فيها أن الفرقة تكون بعد تعذر الصلح الذي فيه الخير للزوجين والأولاد. وفي حرف [إن] الذي يأتي غالباً للشك والندرة إشارة إلى أن الفرقة بين الزوجين حقها أن تكون قليلة في المجتمع المسلم.

٤٣٤٤. التعبير بالفعل المضارع الدال على الغيبة﴿يَتَفَرَّقَا﴾ فيه معنى بلاغي رائع وأنه يحمل في الأصل إعراضا عن المتفرقين. ولهذا سبقه التعبير بتاء الخطاب﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ...﴾.

٤٣٤٥. فيها: أهمية الصلح وأنه خيرٌ ومقدمٌ على الافتراق.

٤٣٤٦. فيها أن الإسلامُ لا يُمسِكُ الأزواجَ بالسَّلاسل والحبال، ولا بالقيودِ والأغلال، إنَّما يُمسِكُهم بالمودَّةِ والرَّحمةِ، أو بالواجبِ والتَّجمُّل، فإذا بلَغ الحالُ ألَّا تبلُغَ هذه الوسائلُ كلُّها علاجَ القلوبِ المتنافرة، فإنَّه لا يحكُمُ عليها أن تُقيمَ في سِجنٍ مِن الكراهيَةِ والنُّفرة، أو في رباط ظاهريٍّ وانفصامٍ حقيقيٍّ.

٤٣٤٧. تفيد أن التفريق بين الأزواج قد يكون سبباً من أسباب الخير الكثير والرزق الوفير، وتغير الحال من العسير إلى اليسير.

٤٣٤٨. فيها: التفريق حكمٌ شرعيٌ وقد يكون فيه السعادة في حال عدم الوفاق.

٤٣٤٩. فيها إشارة إلى أنّ إغناء الله كلاًّ إنّما يكون عن الفراق المسبوق بالسعي في الصلح.

٤٣٥٠. فيها سدُّ باب اليأسِ مِن رحمة الله؛ حيث قال: ﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ولم يقُلْ: [يُغنِ كلًّا] فقط، بل قال: ﴿ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ إشارةً إلى أنَّ فضلَ الله واسع.

٤٣٥١. فيها: رحمة الله ﷻ بعباده، وأنَّ المرأة والرَّجُل إذا انكسَرا بالفِراق بينهما، جبرَهما الله ﷻ بالإغناءِ، فيُغني كلًّا مِن سَعتِه.

٤٣٥٢. فيها: سعة رحمة الله وفضله بجبر الخواطر بعد التفريق بالوعد بالغنى.

٤٣٥٣. فيها: قوله تعالى﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ تحمل بلسماً وعلاجاً نافعاً لمشاعر النفوس المتألمة بهذا الفراق. وفيه إشارة إلى أن هذا الوعد يتعلق بالأحوال التي يكون فيها الزوجان على فقر تام من المقاصد الأساسية للنكاح من المودة والرحمة والسكن. أما الفراق الذي يحصل ونفوس الزوجين غنية بهذه المقاصد فهذا نوع من المضارة ولن يتحقق هذا الوعد.

٤٣٥٤. تفيد أهمية التفاؤل وعدم الإحباط في مواجهة مشكلات الحياة، وهو من عناصر النجاح في الحياة﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: الزوج والمرأة: أن تتزوج من هو أصلح لها من الأول، ويتزوج هو من هي أصلح له منها في رزقه وعصمته، فليست الأمور في الحياة لا تقوم إلا بوجه واحد.

٤٣٥٥. في قوله تعالى:﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ إشارة إلى وجوب الاهتمام بالجوانب الإيمانية والمعنوية التي تجلب البركة في كل شيء، إذ لم يجعل المال هو متعلق الغنى.

٤٣٥٦. تفيد الآية الزجر عن المفارقة بما تشير إليه من نقص يحتاج إلى عوض، كما تفيد تسلية بعد وقوع الطلاق، فسبحانه؛ من وقى وعالج في آية واحدة.

٤٣٥٧. فيها سماحة الإسلام ومراعاته لأحوال المسلم إذا تعذر الاستمرار في بقاء الزوجية فأباحت الشريعة الفراق بين الزوجين سواء أكان بالطلاق من جهة الزوج أو الخلع من جهة الزوجة وهذا على خلاف دين النصارى الذي يمنع الطلاق مما جعل الأزواج يلجأون إلى قتل الزوجات، والآن أوربا وأمريكا يعانون من ظاهرة فقدان الزوجات.

٤٣٥٨. فيها: ينطلق مفهوم الغنى لكلا المتفرقين فيشمل استغناء كل منهما عن الآخر؛ فمن المعلوم أن الأزواج الذين تجمع بينهم هذه الرابطة يعتمد أحدهما على الآخر، فالمرأة تعتمد على الرجل في الكسب والمعاش والحماية والقيام بشئون المنزل، والرجل يعتمد على المرأة في القيام على شئون بيتها وتدبير أمور منزلها، فيحمل كلا منهما هماً عظيماً بما ستؤول إليه حال كل منهما خاصة إذا كانا قد قضيا سنين طويلة واعتاد كلا منهما على الآخر، فكان التطمين الرباني بأن كلا منهما سيستغني عن الآخر فيما جرت العادة فيه من الحوائج، على خلاف ما يخشاه كلا منهما..

٤٣٥٩. تفيد أنه إذا انقطع نصيب الإنسان من جهة زوج أو وظيفة أو غيرهما فعليه أن يعلم أن رزقه على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، فلم ينقطع نصيبه من جهة الخالق ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

٤٣٦٠. تفيد: أن الزواج من أسباب الغنى وسعة الرزق. لقوله: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ومن جملة سعته - تبارك وتعالى - أن يعوض الزوج غيرها أصلح له منها، ويرزقها هي غيره أصلح لها منه؛ فإذا فعلا وسّع عليهم الله.

٤٣٦١. تفيد إثبات صفات الغنى والسعة والحكمة لله ﷻ؛ فهو الغني الحميد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

٤٣٦٢. فيها: الجمع بين صفتي السعة لرحمة الله تعالى وحكمته في آخر الآية فيه إشارة للمتفرقين أن الإغناء من سعة رحمة الله مرتبط بحكمته التي يضع بها القدر المناسب للسعة في الزمان المناسب لها، وهذا من رحمة الله تعالى حتى لا يترتب على السعة المطلقة غير المقيدة بحكمة: طغيان أو إسراف بحسب ما تهوى نفوس المتفرقين.

٤٣٦٣. تفيد إثبات الحكمة لله ﷻ، ويتفرع على هذا فائدة عظيمة مسلكية منهجية وهي الرضا بقضاء الله، وشرع الله، ترضى لأنك تعلم أن هذا عن حكمة حتى وإن كان فيه فوات مالك أو ولدك فأعلم أنه لحكمة، وأنت إذا آمنت بهذا فسوف تسهل عليك كل مصيبة، إذا علمت أن ما أصابك من الله تعالى، وأن الله تعالى ذو حكمة عظيمة في ما يقدِّر. [ابن عثيمين رحمه الله تعالى].

٤٣٦٤. تفيد سعة رحمته وفضله جل وعلا، كما تفيد علمه وحكمته وتدبيره الكامل لأمور خلقه.

٤٣٦٥. فيها: الله ﷻ واسع يسع خلقه كلهم بالكافية والإفضال والجود والتدبير، فالله هو الغني الذي وسع رزقه جميع خلقه، فلا تجد أحداً إلا هو يأكل من رزقه، ولا يقدر أن يأكل من غير ما رزقه، ووسعت رحمته كل شيء وغناه كل فقر، وهو الكثير العطاء الذي يسع لما يُسأل، وهو المحيط بكل شيء كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]. فالواسع قد يتضمن من المعنى ما لا يتضمنه الغني حيث يقال: واسع الفضل وواسع الرحمة، وقد عمت رحمته كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ويفضي هذا الاسم إلى الاعتراف بأنه لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه، فهو الكثير مقدوراته ومعلوماته سبحانه. والله الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو

كما أثنى على نفسه، وهو واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم. [شرح أسماء الله تعالى الحسنى للدكتورة حصة الصغير ص ٢٦٨].

٤٣٦٦. فيها تدريب الفرد المسلم على استئناف حياته بعد تجاربه الفاشلة، وأن الأمل في حياة أفضل لم ينقطع وأن في الأمر سعة.

٤٣٦٧. تفيد أهمية التعلق بالله تعالى مسبب الأسباب وعدم الركون للأسباب البشرية في الغنى وغيره، بما يجعل ثقة العبد بربه، وهذه فائدة العقيدة الصحيحة تثبت العبد في أوقات الضعف.

٤٣٦٨. تفيد أنه لا غنى لعبد عن ربه، ومن فقد شيئاً فليجعل عوضه من سعة فضله، فيتضرع له بالدعاء.

٤٣٦٩. تفيد هوان العقول التي تلجأ لغير الله تعالى في أوقات الشدة.

٤٣٧٠. تفيد أن من تأمل في لطائف صنعه تعالى في بناء الزوجية والفراق، وعواقب كثير مما يحدث من بعد الفراق، علم عظيم تدبيره تعالى لعباده وكمال حكمته؛ بما يجعل ثقة العبد بربه دائماً لا تنقطع؛ فيما يقع له مما يحبه أو يكرهه.

٤٣٧١. تفيد أن القرآن يعالج بألفاظه ومعانيه ما يناسب كل حال من أحوال العباد، فلما كان دائما يصحب أمور الطلاق الشح والخوف من المستقبل جاءت الكلمات التي تعالج هذا الجانب من تكرر لفظ الجلالة الجامع لصفات الجلال والإكرام، مع بيان الاغناء ﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ ﴾ والحديث عن سَعَتِهِ، وأنه أزلًا وأبدًا﴿ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ فكل لفظة في الآية تعالج ما يصحب الفراق من أحوال، سبحانه من جعل القرآن شفاء ورحمة.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١].

٤٣٧٢. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها؛ من وجهين: الأول: أنه وعدهم السعة بعد الفرقة. فإن قيل: وكيف يوسع عليهم وقد فاتهم ما فات؟ فيأتي الجواب:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾؛ قال الطبري في تفسيره: "يعني بذلك جل ثناؤه: ولله جميع مُلْك ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله:﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ تنبيهًا منه خلقَه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوَحْشة بفراق سَكنه وزوجته، وتذكيرًا منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذّر عليه أن يغنيَه وكلَّ ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كلَّ ذي وحشة". وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "والمناسبة بين هذه الجملة والتي سبقتها: وهي جملة﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على أن يغني كلّ أحد من سعته. وهذا تمجيد لله تعالى، وتذكير بأنّه ربّ العالمين، وكناية عن عظيم سلطانه واستحقاقه للتقوى. الثاني: أنه يسلي الزوجين، ويشعرهم أنه ما أذن في الفراق بينهم إلا لحكمة بالغة، لأنهم من جملة ملكه؛ وحق المالك أن يتصرف في ملكه ومملوكه كيف شاء، ولا أحد أعدل وأحكم من الله ﷻ؛ فالخير كله إليه، والشر ليس إليه.

٤٣٧٣. تفيد مع ما قبلها أن إغناء الله كلا من سعته إنما يكون بعد تقوى الله ﷿؛ ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة الطلاق بعد أن ذكر الفراق بين الزوجين:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣]، وقال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٤ – ٥].

٤٣٧٤. افتتحت الآية الكريمة بتقرير حقيقة ملكية الكون لله تعالى، واختتمها بالتأكيد على ملكية الكون لله تعالى، وتوسطت الوصية السابقة واللاحقة بالإيمان وتقوى الله بمعنى اتباع أوامره واجتناب نواهيه. والدلالة في ذلك هي وجود الله وربوبيته وألوهيته من الأزل وإلى الأبد فملكيته سبحانه سبقت كينونة الخلق وستتلوا حسابهم؛ فسواء عليهم آمنوا أو كفروا فإن له مافي

السموات وما في الأرض ولن يزيد إيمانهم في ملكه شيئا، ولم ينقص كفرهم من ملكه شيئا، ودلل على ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ والكينونة هنا تعني الدوام التام لغناه عن خلقه آمنوا أو كفروا، وهو المحمود على عطاءه ورحمته بخلقه.

٤٣٧٥. فيها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليل على اختصاص الله ﷻ بملكية ما في السماوات وما في الأرض؛ وجهه: أن من طرائق القصر تقديم ما حقه التأخير.

٤٣٧٦. تفيد الاستغناء بالله ﷻ، وطلب الحاجات منه؛ فإن لله ما في السماوات وما في الأرض.

٤٣٧٧. فيها إشارة إلى: عظم شأن السموات والأرض، وأنها طائعة لله ﷻ.

٤٣٧٨. فيها أن جماع الوصايا الربانية للسابقين واللاحقين هي تقوى الله ﷻ؛ فما أعظمها من وصية!!

٤٣٧٩. تفيد أن تقوى الله ﷻ هي أعظم الوصايا، وهي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، وهي وصية الأنبياء لأقوامهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠٦] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[الشعراء: ١٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧] ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦] وغيرها. وهي وصية نبينا محمد ﷺ لما قيل له: كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: " أوصيكم بتقوى الله ﷻ، والسمع والطاعة... ". وشرعت العبادات لتحقيق التقوى؛ وقد قال الله تعالى في الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

٤٣٨٠. فيها: الوصاية بالتقوى لشمولها على البر الذي هو جماع كل خير.

٤٣٨١. تفيد أن دين الله تعالى واحد وهو الإسلام، وأن الوصايا الجليلة النافعة وصي بها من قبلنا أيضا؛ وفي هذا توجيه إلى الاقتداء بالصالحين من قبلنا، والحرص على العمل بهذه الوصايا ومن أجلها الوصية بتقوى الله ﷻ.

٤٣٨٢. تفيد: أن الوصية: من شأنها أن تكون موجزة قصيرة. وعليه: ففيها هداية دعوية: إلى الدعاة خاصة: "إذا أوصيت فأوجز"، وعليك بجوامع الكلم؛ قيل للنبي ﷺ: أوصني، قال: "لا تغضب". رواه البخاري. قال ابن عاشور: "جُعل الأمر بالتقوى وصيةً: لأنّ الوصية قول فيه أمرٌ بشيء نافع جامع لخير كثير، فلذلك كان الشأن في الوصية إيجاز القول لأنّها يقصد منها وعي السامع، واستحضاره كلمة الوصية في سائر أحواله. والتقوى تجمع الخيرات، لأنّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تكرّر لفظ في القرآن ما تكرّر لفظ التقوى، يعنون غير الأعلام، كاسم الجلالة".

٤٣٨٣. يفيد بيان وذكر وصية الله للذين أوتوا الكتاب من قبل: إلهاباً وحثاً وتشجيعاً لهمم المؤمنين الآخرين للعمل بتقوى الله تعالى لئلا تفضلهم الأمم السابقة من أهل الكتاب في هذا المجال، وذلك لأن للائتساء وبيان القدوات أثراً بالغاً في النفوس. وعلى هذا فإنه ينبغي للدعاة والمصلحين بيان القدوات للمدعوِّين للائتساء والاقتداء بهم.

٤٣٨٤. فيها إشارة إلى توحيد الله وحده لا شريك له، وتعريض بأهل الشرك؛ ووجهه: أنه أخبر أن له ما في السماوات والأرض، ثم أمر بالتقوى – وأعظم ما يتقى به توحيده وإفراده بالعبادة –، فكأنه يقول: إن من يملك الملك أحق أن يفرد بالعبادة، فأين المعبودات من دونه؟، هل لها شيء من هذا الملك والخلق؟!، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

٤٣٨٥. تفيد أن من علامات الكفر والكفرة: عدم تقوى الله تعالى وخوفه وخشيته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٤٣٨٦. تفيد التخويف والتحذير من الكفر؛ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

٤٣٨٧. فيها: التقوى المأمور بها هنا منظور فيها إلى أساسها وهو الإيمان بالله ورسله ولذلك قوبلت بجملة﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾. وبيّن بها عدم حاجته تعالى إلى تقوى الناس، ولكنّها لصلاح أنفسهم، كما قال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر: ٧]. فقوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ كناية عن عدم التضرّر بعصيان من يعصونه، ولذلك جعلها جواباً للشرط، إذ التقدير فإنّه غنيّ عنكم. وتأيّد ذلك القصد بتذييلها بقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ أي غنيّاً عن طاعتكم، محموداً لذاته، سواء حمده الحامدون وأطاعوه، أم كفروا وعصوه.

٤٣٨٨. فيها: طاعة الإنسان وتقواه لربه يعود نفعها على نفسه، أما الله تعالى فإنه الغني عن طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولا كفر الكافرين.

٤٣٨٩. فيها أن الوصية بتقواه ﷻ لحاجتنا له لا لحاجته لنا؛ لكمال غناه عن طاعتنا، وحمده ممن سوانا من الطائعين. ويدل اسمه الحميد على معنى اسمه الشكور في حال إنفراده؛ لما تقدم من الوصية بالتقوى التي تتضمن العمل بامتثال الأوامر واجتناب النواهي قال تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ: ١٣] ولقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٧].

٤٣٩٠. في ختم الآية باسمه الحميد توجيهٌ للمتفرقين لحمد الله تعالى في سائر الأحوال: في حال الاجتماع أو الافتراق، حال السراء أو الضراء؛ وحمده تعالى لكمال سعة رحمته وكمال غناه وحكمته، وسائر أوصاف كمالاته جل في علاه.

٤٣٩١. تفيد أن اقتران بعض الأسماء أو الصفات ببعض يفيد كمالًا أعلى من ذكرها منفردة؛ فكمال الغنى مثلًا مع كمال الحمد يفيد كمالًا أعلى؛ قال السعدي: "له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء

الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه. ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلطفه وهداهم. وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النِّعم الجزال، فهو المحمود على كل حال. وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين {الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر".

٤٣٩٢. تفيد دقة مناسبة خاتمة الآية لموضوعها؛ فبعد التوصية بتقوى الله تعالى، والإعلام بأن لله ما في السموات وما في الأرض، ختمت الآية بقوله تعالى:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ وذلك في إشارة إلى أن من اتقى الله تعالى أغنى الله قلبه وقالبه، وأنطق لسانه بحمده، وجازاه بحمده حمداً منه ﷻ، ومن هنا يظهر للمتأمل والمتدبر سر من أسرار مجيء﴿ حَمِيدًا ﴾ في هذا السياق، على وزن [فعيل] التي تأتي بمعنى فاعل ومفعول، فالله ﷻ [حميد] أي: محمود، فهو جل جلاله محمود على صفاته الكاملة، ومحمود على إنعامه، ومحمود على أفعاله الدائرة بين العدل والإحسان، وهو ﷻ [حميد] أي: حامد، فهو جل جلاله حامد لمن يستحق الحمد والثناء من عباده المتقين، لهذا فهو ﷻ يثني على أنبيائه ورسله والصالحين من عباده.

٤٣٩٣. فيها: فضيلة هذه الأمة حيث إنها عملت بوصية الله فآمنت وصدقت ولم تكفر.

٤٣٩٤. تفيد التحذير من المعاصي؛ صغيرها وكبيرها، بمختلف أشكالها.

قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٢].

٤٣٩٥. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها؛ فلما كان الملك قد لا يمنع الاعتراض على المالك بيّن أن ذلك إنما هو في الملك الناقص وأنه ملكه تام:﴿وَلِلَّهِ﴾ أي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأكد لمثل ما مضى فقال: ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أي هو قائم بمصالح ذلك كله، يستقل بجميع أمره، لا معترض عليه، بل هما وكل من فيهما مظهر العجز عن أمره، معلق مقاليد نفسه وأحواله إليه طوعاً أو كرهاً، فهو وكيل على كل ذلك فاعل به ما يفعل الوكيل من الأخذ والقبض والبسط، ولمثل ذلك كرر الاسم الأعظم فقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه﴿ وَكِيلًا ﴾ أي قائماً بالمصالح قاهراً متفرداً بجميع الأمور، قادراً على جميع المقدور، وقد بان - كما ترى - أن جملة «لله» المكررة ثلاث مرات ذكرت كل مرة دليلاً على شيء غير الذي قبله وكررت، لأن الدليل الواحد إذا كان دالاً على مدلولات كثيرة يحسن أن يستدل به على كل واحد منها. وإعادته مع كل واحد أولى من الاكتفاء بذكره مرة واحدة، لأن عند إعادته يحضر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجل؛ وفي ختم كل جملة بصفة من الصفات الحسنى تنبيه الذهن بها إلى أن هذا الدليل دال على أسرار شريفة ومطالب جليلة لا تنحصر، فيجتهد السامع في التفكر لإظهار الأسرار والاستدلال عل صفات الكمال لأن الغرض الكلي من هذا الكتاب صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله تعالى إلى الاستغراق في معرفته سبحانه، وهذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده، فكان في غاية الحسن والكمال. [نظم الدرر].

٤٣٩٦. فيها: ذكر- سبحانه- في هاتين الآيتين ملكيته لما في السموات وما في الأرض ثلاث مرات، تأكيداً لعظم سلطانه وقدرته وسعة غناه ورحمته، حتى ترسخ في نفوس الناس تقواه وخشيته. قال القرطبي: "فإن قال قائل: ما فائدة هذا التكرار؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه كرر

تأكيداً ليتنبه العباد وينظروا ما في ملكوته وأنه غنى عن العالمين. الجواب الثاني: أنه كرر لفوائد: فأخبر في الأول أن الله- تعالى- يغني كلا من سعته لأن له ما في السموات وما في الأرض فلا تنفد خزائنه. ثم قال: أوصيناكم وأهل الكتاب بالتقوى وإن تكفروا فإنه غني عنكم لأن له ما في السموات والأرض. ثم أعلم في الثالث بحفظ خلقه وتدبيره إياهم بقوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لأن له ما في السموات وما في الأرض".

٤٣٩٧. فيها: افتتاح آيتين متتاليتين بذكر ملكه لما في السموات والأرض، وتكرار ذلك في الآيتين ثلاث مرات يدل على قوة الوثوق والاعتماد عليه في كل شيء، والتوكل عليه والاكتفاء بذلك إلى أعلى درجات اليقين.

٤٣٩٨. يفيد تكرار قوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ إشارة لطيفة إلى أنه لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ؛ وفي تكرار الله الثناء والمدح على نفسه فيه مَصْلَحَة لِلْعِبَادِ، لِأَنَّهم يُثْنُونَ عَلَيْهِ ﷻ فَيُثِيبُهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَنْفَعُهُ مَدْحُهُمْ.

٤٣٩٩. ، وَلَا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَٰلِكَ. ومن مظاهر انتفاع العباد بالثناء على الله ﷻ؛ وخصوصا في هذا السياق؛ أنه يفتح الباب للبعل الناشز المتعالي والمعرض عن زوجته الضعيفة لمعرفة قدر نفسه، وما عليها من الضعف والقلة والذلة والمسكنة بجانب قدرة الله تعالى الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فينزل بهذا الثناء إلى منازل العبودية لله؛ فيرحم ضعف هذه المسكينة ولا يتكبر عليها ولا يجعلها كالمعلقة؛ وسيعلم من خلال تكرار الثناء على الله أن لهذا الكون وما فيه من مخلوقات مالكا سيأخذ لكل ضعيف حقه؛ وسينتقم من كل ظالم وطاغ ومتكبر؛ وما أجمل أن يختصر الكلام في هذا السياق القرآني الرائع بمقولة علي ابن طالب ﵁: "إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك". ومقولة عمر بن عبد العزيز وقد كتب إلى بعض عماله: "أما بعد: فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله

عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شـــيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله ﷻ آخذ للمظلومين من الظالمين".

٤٤٠٠. تفيد أن ما في السموات أعظم مما في الأرض، وأن عالم الغيب أعظم من عالم الشهادة؛ ولذا قدمه في الذكر.

٤٤٠١. فيها دعوة للتوحيد؛ فهو الذي يملك وحده فيســـتحق العبادة وحده؛﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ ﴾ [مريم: ٦٥].

٤٤٠٢. في الآية دعوة إلى امتثال أوامر المالك لكل شـيء؛ فينظر إلى التكاليف الشـرعية على أنها صادرة من صاحب الملك وعليه المسارعة في العمل والتنفيذ.

٤٤٠٣. في الآية تخويف شديد لمن يعبث في ملك لله بغير ما أمر؛ ﴿ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [المائدة: ١٨].

٤٤٠٤. في الآية دعوة إلى المحاســـبة والإعداد للآخرة عند الرجوع إلى المالك؛ ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

٤٤٠٥. فيها: الإظهار في مقام الإضـمار في قوله:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ لتمكين وترسيخ ألوهيته ﷻ العظيمة في قلوب عباده.

٤٤٠٦. فيهـا: التعبير بالماضــــي في قوله:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ لإفادة تحقيق هذا الوعد. كما قال السيوطي في عقود الجمان: ومنه ماض عن مضارع وضع... لكونه محققاً نحو فزع.

٤٤٠٧. فيها: من كان هذا ملكه فكيف يتخذ غيره وكيلا؟!!

٤٤٠٨. تفيد أن كفاية حاجات العباد بيد الله تعالى وحده.

٤٤٠٩. تفيد فطنة من يتوكلون على الله تعالى ويعتمدون عليه وحده.

٤٤١٠. تفيد أن الله ﷻ عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تســـتلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك

التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص. [السعدي].

٤٤١١. فيها: تنكير [وكيل] لإفادة تفخيم وتعظيم هذه الوكالة؛ قال الأخضري في الجوهر المكنون: ونكروا إفراداً أو تكثيرا.... تنويعاً أو تعظيماً أو تحقيرا.

قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٣].

٤٤١٢. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة كمال غناه، وبالغ كفايته، وعظيم قدرته، وأن له ما في السموات وما في الأرض، أشار في هذه الآية إلى أنه لكمال غناه عن طاعة البشر اقتضت مشيئته المبنية على الحكم البالغة عدم إفنائهم وإذهابهم عن وجه الأرض، أي: أن ما أنتم عليه أيها الناس من الكفر والعصيان لا يضر خالقكم بشيء، فهو لكمال غناه عن طاعتكم لم تتعلق مشيئته المبنية على الحكمة بإفنائكم وإذهابكم، - لا لعجزه ﷻ عن ذلك علواً كبيراً -، بل لكمال غناه وعدم حاجته إلى طاعتكم وعبادتكم، فلو أنه أراد أن يطاع فلا يعصى؛ وأن يعبد فلا يكفر؛ لأتى بقوم آخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٤٤١٣. فيها: غاية استخلاف الإنسان في الأرض عمارتها بعبادة الله وإقامة دينه؛ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]. فإذا انصرفوا أو انحرفوا عنها، فسوف يأتي الله بقوم آخرين يحققون هذه الغاية وهذا المقصد.

٤٤١٤. فيها: إثبات المشيئة النافذة لله ﷻ؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٤٤١٥. فيها: التعبير بالفعل المضارع﴿إِن يَشَأْ﴾ يدل على كمال القدرة الإلهية في كل وقت وفي كل زمن.

٤٤١٦. فيها: قدرة الله النافذة بذهاب قوم والإتيان بآخرين.

٤٤١٧. فيها: الوعيد بالإذهاب أتى في أربعة مواضع، وهو إفناء الأحياء منهم وقطع سلالتهم وإخلاء الأرض منهم، ومن هذا التعبير القرآني نهتدي إلى عدة هدايات:

- أن إذهاب الناس وفنائهم من أيسر وأهون الأفعال على الله ﷻ ولا يحول بينه وبين ذلك سوى مشيئته تعالى فكما أنشأ الناس من ذرية آدم فهو القادر حتما على نقيضه.

- أن حصول ذلك الحدث الجلل يعني اضمحلال الخير وانتشار الشر والظلم حتى أن الله يستأصل القلة الصامتة على الظلم الساكتة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من أشنع العار على الناس أن يكونوا ممن غضب الله عليهم فاستأصلهم وأفناهم، فهذا فشل البشرية في تحقيق الاستخلاف ونجاح لإبليس في اضلال بني آدم.

- ينبغي أن يثير هذا الوعيد الخشية والرعب في قلوب الناس لأن افناءهم لا يعني فقط قبضهم واستئصالهم فحسب بل قد يتعدى ذلك إلى إيقاع العذاب الشديد بهم.

٤٤١٨. فيها: إبراز قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيه تخصيص يدل على شدة التهديد للمكلفين. والإشارة في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ يدل على التهديد كذلك لأن فيه تخصيص لما هددهم به وهو يذهبكم.

٤٤١٩. فيها الحث على إحسان العبادة حذراً من أن يبدل بآخر؛ اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

٤٤٢٠. تفيد سعة رحمة الله ﷻ ولطفه بخلقه.

٤٤٢١. فيها كمال قدرة الله ﷻ وشدة بطشه.

٤٤٢٢. فيها أن الكفر والمعاصي سبب لكل زوال، وأن الإيمان والطاعة سبب للإتيان بكل خير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

٤٤٢٣. فيها تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعبأ بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل.

٤٤٢٤. الآية الكريمة تقرير لغناه وقدرته ﷻ وتهديد لمن كفر به وعصاه؛ قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩ – ٢٠].

٤٤٢٥. تفيد أهمية الدمج بين أسلوبي الترغيب والترهيب وخصوصاً في المجالات الدعوية والإصلاحية، فمن الناس من يلين قلبه بالترغيب والتشجيع، ومنهم من يلين قلبه بالترهيب والتحذير.

٤٤٢٦. تفيد أن اتصاف الله تعالى بالقدرة الشاملة الكاملة كان أزلاً ويبقى أبداً؛ لا يعجزه شيء إنه كان عليماً قديراً.

٤٤٢٧. تفيد مع ما بعدها أن من أعظم أسباب ذهاب الأمم وفناء الحضارات الإنسانية هو لهفتهم ونظرتهم الدنيئة إلى ثواب الدنيا ومتاعها الزائل، فكل أمة بَنَت أو أقامت حضارتها على مبادئ وقيم دنيوية فقط، فمعول هدمها وذهابها وزوالها يكمن في تلك المبادئ والقيم؛ ولهذا قال تعالى بعد هذه الآية التي فيها التهديد بالإذهاب والإفناء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، وعلى هذا فإن بناء واستمرار الحضارات الإنسانية إنما يكون بالنظرة العليا والهدف الأسمى وهو الجمع بين ثواب الدنيا والآخرة، وهذا لا يكون ذلك إلا بالتقيد بشرائع الله تعالى المنزلة على رسله، والتي آخرها شريعة النبي محمد ﷺ الناسخة لجميع الشرائع السماوية السابقة. ولعلنا نتخيل الأسلوب القرآني فكأن الآية تمد يمينها لما بعدها وتبقي يسارها تمسك ما قبلها، فنجد فن تحول الخطاب القرآني كيف نقل القارئ من قضية تشريعية أسرية لقضية جمعية كونية وأبقى رابطةً معنوية تصل السياق فسبحان الله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

٤٤٢٨. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فبعد أن ذكرت الآية السابقة التهديد والوعيد بإذهاب وهلاك البشرية؛ جاءت هذه الآية لتشير إلى وجود يوم آخر بعد هذا الهلاك والفناء؛ وهو اليوم الآخر؛ ليحصل ما في الصدور؛ ولتجزى كل نفس بما كسبت. وصدق الشاعر حين قال:

ولـو أنا إذا متنـا تركنـا ... لكانَ المَوْتُ راحَةَ كُلِّ حَيِّ
ولكنـا إذا متنـا بُعثنـا ... ونُسأل بعد ذا عن كل شي

٤٤٢٩. هذه الآية ضابط يضبط بها العبد نواياه في سائر أقواله وأفعاله وأحواله.

٤٤٣٠. تفيد أن مَن كانت همته وإرادته دنيئة غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبا منه ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام. وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٤٣١. هذه الآية هي جوهرة ثمينة في عقد من أربع جواهر من (المثاني المتشابهة) التي تتكامل موضوعياً لتحيط بالموضوع من جهاته الأربع، آية التخيير بين الدنيا والآخرة تقرر في جوهرتها الأولى: بأن اختيار العبد لله تعالى فإنه يتيح له الفوز بالدنيا والآخرة، ولكن اختياره للدنيا دون الآخرة لن ينيله ويمنحه سوى الدنيا. أما في الجوهرة الثانية: فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ – ١٦] وهي مرتبطة موضوعياً ولكنها

تضـيف جمالاً للعقد الرباعي فتقرر هذه الآية أن الكفر لا يؤدي للفقر، فكلما عملت بجد واجتهاد واتبعت الأسباب حصلت على حقك الذي كتبه الله لك وافياً سواءً كنت كافراً أو كنت مؤمناً فدينك لا يحدد رزقك، والمؤمن المتقاعس عن العمل قد يموت جوعاً، والكافر المجتهد سيحصل على الخير الكثير لأن هذا هو القانون الرباني والسنة الثابتة التي لا تتعلق بالدين فلو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. الجوهرة الثالثة تخبرنا بالمآلات: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٨ – ١٩] فالرحمن جل وعلا يقرر لعباده أن الرغبة في الدنيا دون الآخرة يحقق الكسب والمال معجلاً ولكنه من الله وليس بجهد الكادح الغافل، فلما يحق عليه القول وتنتهي العاجلة بما فيها من مكاسب فلن يجد أمامه سوى جهنم يصلاها مذموماً على سوء صنيعه مدحوراً فاقداً قوته وجبروته يقضي حياته الحقيقية الآخرة في ذل وهوان. أما الجوهرة الرابعة فيقول الحق جل جلاله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] أما من رغب في ما عند الله وسعى في ثواب الآخرة فإن الله يؤتيه ما يفوق سعيه ويزيد له بما لم يرجو ويحتسب، أما من أراد خير الدنيا فسيؤتيه بعضاً مما أراد، وهنا التمايز والتفاضل بين المؤمن العامل والكافر العامل، فالأول يؤتيه الله من فضل الدنيا ومن فضل الآخرة وزيادة، والثاني يؤتيه الله بعض فضل الدنيا ولكن ليس له في الآخرة من نصيب. وإن أردنا أن نصل لجامعة ملخصة لمفهوم هذه الآية ومثانيها المتشابهة فإننا نصل لهدايات:

– أن الله يؤتي خلقه من الرزق بغض النظر عن أديانهم وعقائدهم، فالمؤمن الكسول لا يحصل على ما يحصله الكافر الملحد العامل النشيط، فالمسألة سنة ربانية غير متعلقة بالاعتقاد.

– أن الله ﷻ يؤتي كل إنسان ما يريد، فإن عذبه وأودعه في أيدي خزنة جهنم فإن ذلك مراد العبد الكافر إذ كفر بالله واكتفى بمتاع الدنيا القليل غير آبه للنذارة والدعوة والرسالات المتتابعة.

- أن العبد الصـــالح العامل لا يعدم الجزاء في الدنيا بالرزق الطيب المبارك، والثواب في الآخرة بأضعاف ما كان يرجو ويتمنى وبأزيد مما قدم من عمل.

٤٤٣٢. تفيد معنى ما روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أن رســـول الله ﷺ قال: " من كان همه الآخرة جمع الله- تعالى شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ".

٤٤٣٣. تفيد حقارة الدنيا من تسميتها [دنيا].

٤٤٣٤. تفيد الرد على الجبرية؛ حيث أثبت الإرادة للعبد؛ لقوله تعالى:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٤٤٣٥. تفيد أن الثواب والجزاء مترتبان على النية؛ لقوله تعالى:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ﴾ فعلى العبد أن يصحح نيته؛ فلا ينوي بعمل الآخرة إلا الآخرة.

٤٤٣٦. تفيد أن كل ما يريده الإنسان هو فقير فيه إلى مولاه فلا غنى له عنه.

٤٤٣٧. فيها أن طلب الدنيا لا يعارض الدين، فالإسلام جاء بخير الدنيا والآخرة.

٤٤٣٨. تفيد التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة فإنها خير وأبقى.

٤٤٣٩. فيها: قال الراغب وقوله:﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ تبكيت للإنسان حيث اقتصر على أحد السؤالين مع كون المسئول مالكاً للثوابين، وحث على أن يطلب منه – تعالى- ما هو أكمل وأفضـل من مطلوبه. فمن طلب خسيســاً مع أنه يمكنه أن يطلب نفيســاً فهو دنيء الهمة. قال ابن كثير: "فلا يقتصـرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضـــر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسـم السـعادة والشـقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يســتحق هذا، وممن يســتحق هذا؛ ولهذا قال:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾. أهـ، ويؤيده حث النبي ﷺ على علو الهمة في طلب الجنة فيسأل أعلى المنازل

فقد قال رسول الله ﷺ: " إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة واوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفه عرش الرحمن ". رواه البخاري.

٤٤٤٠. تفيد أن من يعطي الثواب والجزاء للعبد في الدنيا والآخرة هو الله تعالى لا غيره؛ وعلى هذا فإن على العبد أن لا يرجو غير الله تعالى في الحصول على شيء من منفعتهما وثوابهما؛ لقوله تعالى:﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ ﴾ أي: عنده لا عند غيره؛ وقد جاء في الحديث: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ".

رواه الترمذي وغيره.

٤٤٤١. تفيد أن الله ﷻ وحده هو من يملك الدنيا والآخرة؛ دل على ذلك الاختصاص والحصر المستفاد من تقديم ما حقه التأخير، ففيها رد على البوصيري في غلوه مخاطبا رسول الله ﷺ في البردة: فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم. قال الحافظ ابن رجب: هذا لم يترك لله شيء.

٤٤٤٢. تفيد إثبات اليوم الآخر؛ وفي هذا إشارة للزوجين بأنه إن لم يسعد أحدهما في نظره بشريكه أو شريكته في هذه الدنيا فلا أقل من أن يرضى بقضاء الله تعالى وقدره؛ وينتظر من الله تعالى حسن ثواب الآخرة؛ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

٤٤٤٣. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ ﴾ والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا؛ فلا يقتصر عليه، وليطلب الثوابين؛ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

٤٤٤٤. تفيد أن الثواب هو أحد المحركات التي تدفع الناس للعمل سواء عمل الدنيا أو الآخرة؛ ولذلك يستفاد من هذه الآية الإكثار من الثواب والترغيب في دعوة الناس للعمل.

٤٤٤٥. تفيد غنى الله ﷻ، وسعة ملكه؛ فإن خزائن الدنيا والآخرة بيده يؤتي منها من يشاء.

٤٤٤٦. فيها: قوله تعالى:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ تذييل قصد به حض الناس على الإخلاص في أقوالهم وأعمالهم. أي: وكان الله تعالى سميعاً لكل ما يجهر به الناس ويسرونه، بصيراً

بأحوالهم الظاهرة والخفية، وسيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب، {﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

٤٤٤٧. فيها: اثبات صفتي السمع والبصر لله سبحانه.

٤٤٤٨. تفيد أن الله ﷻ كان وما زال متصفاً بصفات الكمال ونعوت الجلال أزلاً وأبداً ومنها صفة السمع والبصر.

٤٤٤٩. تفيد مع ما قبلها وما بعدها أن على الحكام والقضاة والمحامين والشهود في القضايا والمشاكل الزوجية والأسرية أن يتقوا الله تعالى، ولا ينظروا إلى حطام الدنيا الفانية التي يكسبونها من مرافعة الزوجة الغنية تجاه الزوج الفقير؛ أو مرافعة الزوج الغني تجاه الزوجة الفقيرة؛ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة؛ وعليهم أن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

٤٤٥٠. تفيد مع ما بعدها أن كل مريد للدنيا وباحث لحطامها وناعق خلف زينتها ومتاعها؛ هو جدير بأن يتبع الهوى؛ ويركب الجور والظلم؛ ويعرض عن الحق ويلوي عنقه عنه وإن كان واضحاً وساطعاً أمامه؛ لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولعله بهذا يظهر للمتأمل والمتدبر سر التناسق الموضوعي والتناسب اللفظي بين آيات القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

٤٤٥١. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فبعد أن ذكر ﷻ ما يقوم به صلاح البيت الصغير [بيت الزوجة والأسرة] ويقيه من الهدم والتفكك؛ انتقل الى ذكر ما يقوم به

صلاح البيت الكبير؛ [المجتمع الإسلامي]؛ ويقيه من التفكك والهدم؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى وجود تلازم وارتباط بين البيت الصغير والبيت الكبير؛ بمعنى أن أي تفكك وخلخلة أو خلل وذبذبة في البيت الصغير قد يتأثر ويؤثر صداه على البيت الكبير؛ فيجب على العقلاء والحكماء إصلاح البيت الصغير أولاً قبل إصلاح البيت الكبير.

٤٤٥٢. تفيد مع ما قبلها: أن سياق الآية يتلو الحديث في مسائل الطلاق والفراق ما بين الزوجين وهو أمر يكتنفه الأخذ والرد والادعاء والإنكار والاقتضاء والشهادة وقول الحق، فناسب خصوص هذه الآية ما تقدم من أحوال بين الزوجين، وهي كذلك قاعدة لازمة في ما سوى ذلك من المعاملات. والناظر في آيات الكتاب المنير إذا استحضر مثاني الآية وسياقاتها يفتح الله له آفاقا موضوعية عديدة ويجلي فهمه عن فرائد ثمينة من روائع الآية وهداياتها الجميلة الماتعة.

٤٤٥٣. هذه الآية واحدة من المثاني المتشابهة: وهما آيتان متشابهتان هذه أولاهما، وكلا الآيتين تنطلقان إلى ذات الهدف وهو تحقيق الشهادة بالحق مع الاختلاف في ظروف الشهادة، ففي الآية الأولى يفتتحها ربنا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ بينما في الآية الثانية تفتتح بصورة مختلفة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [المائدة: ٨] فماهي أوجه البلاغة والإبداع القرآني في هذا الاختلاف البنيوي الطفيف؟ الآية الأولى تدعو المؤمنين للقيام بالقسط والعدل والشهادة لله تعالى وطاعته حتى وإن كانت تلك الشهادة ستلحق الأذى بكم أو بمن تحبون من آباء وأمهات وأقارب، أو ستجلب لكم أو لهم منفعة؛ فلا يجوز الشهادة بالباطل [تلووا] أو الامتناع والإعراض [تعرضوا] عن أدائها بقول الصدق والشهادة بالحق. أما في الموضع الثاني فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] وهنا نجد أن افتتاح الآية بالأمر بالقيام لله قد تقدم على القيام بالقسط والقيام بالشهادة بالقسط والعدل تأخرت، ذلك أن الموضع هنا متعلق ببغضِ طرفٍ

والميل عنه، بينما كانت الآية الأولى متعلقة بحبِّ طرفٍ والميل إليه، فقدم القيام لله (أي القيام لله بفرائضه) ومنها القيام بالشهادة بالقسط برغم البغض والشنآن، وفي الآية الثانية تكون وطأة شهادة الزور أشد، ذلك أنها مؤدية لضرر بريء وإيذائه، وذلك أسوأ من جلب منفعة للنفس أو للقريب أو دفع أذى عن والد أو ولد، فكانت تَقدِمة القيام لله على القيام بالشهادة بالقسط تخويفاً وتنويها بألا يجعل بغضكم لأحد سبيلاً لظلمه وشهادة الزور لمنع منفعة عنه أو جلب مصلحة إليه، فإن كانت شهادة الزور مراعاة لقريب أو غني فعل ذميم ومحرم فإنها أشد حرمة اذا كان دافعها بغض إنسان ورغبة الأضرار به. كما نلحظ أن عجُز الآية الثانية هو مقلوب عجُز الآية الأولى، ففي الآية الأولى قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فقدم العمل الإنساني وأخر العلم الرباني، بينما نجده في الآية الثانية قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فقدم العلم الرباني على العمل الإنساني، وذلك يكرس مفهوم خطورة الحالة الثانية وهي شهادة الزور بسبب البغض والكره، على شهادة الزور بسبب الحب والميل لأن ضرر الحالة الثانية أشد والظلم فيها أوقع، بينما قد لا يحصل بشهادة الزور في الحالة الأولى ظلماً لأحد سوى الظلم للنفس بسبب مخالفة الله بينما الحاصل في الحالة الثانية ظلم في حق الخلق؛ وحقوق الله قائمة على المسامحة بينما حقوق الناس قائمة على المشاحة.

٤٤٥٤. تفيد بيان مكانة الإيمان، وشرف المخاطبين به، فهم أهل لتنفيذ أوامر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٤٤٥٥. يفيد توجيه هذا الخطاب إلى عموم المؤمنين لبيان أهمية وعظم ما تضمنه من أوامر ونواهي، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: "إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

٤٤٥٦. تفيد أن من مقتضيات زيادة الإيمان إقامة القسط والعدل في المجتمع، والبعد عن الظلم والجور في جميع شؤون الحياة.

٤٤٥٧. تفيد أن الإتيان بالشـــهادة على وجهها بلا تزوير ولا امتناع هو واجب ولازم من لوازم الإيمان بالله؛ فالأمر للمؤمنين فإن خالفوه فقد انتفى عنهم الإيمان حال الوقوع في قول الزور وشهادة الزور وكانوا إلى النفاق أقرب.

٤٤٥٨. تفيد: وجوب الإخلاص لله في الحكم بالعدل بين الناس وإظهار الشهادة، وعدم الرياء والتســـميع والمفاخرة بذلك. وعليه: ففيها: بيان الفرق بين حكم أهل الإســـلام، وحكم أهل الكفر وإن عدلوا؛ فالمسلمون يفعلونه تعبدا لله، بخلاف الكفار.

٤٤٥٩. تفيد وجوب إقامة الشـــهادة والعدل فيها وفي أدائها؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. قال الفخر الرازي: وإنما قدم ﷻ الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه: الأول: أن أكثر النـاس من عـادتهم أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فـإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى أن أقبح القبيح إذا صدر عنهم كان في محل المسامحة وأحسن الحسن. وإذا صـدر عن غيرهم كان محل المنازعة. فالله تعالى نبه في هذه الآية على سـوء هذه الطريقة. وذلك أنه – سبحانه – أمرهم بالقيام بالقسط أولاً، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً، تنبيها على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضـايقة الإنسان مع نفسه فوق مضـايقته مع الغير. الثاني: أن القيام بالشهادة عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير، وهو الذى عليه الحق. ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضـرر عن الغير. الثالث: أن القيام بالقسـط فعل، والشـهادة قول والفعل أقوى من القول.

٤٤٦٠. تفيد وجوب الإخلاص في الشـــــهادة، وفي هَذا دَلالَةٌ عَلى أنَّ أخْذَ الأُجْرَةِ عَلى تَأْدِيَةِ الشَّـهادَةِ لا يَجُوزُ؛ لِأنَّهُ لَمْ يُقِمْها لِلَّهِ، وقَدِ اسْتَثْنى أهْلُ الفِقْهِ صُـوَرًا جَوَّزُوا أخْذَ الأُجْرَةِ عَلى تَأْدِيَةِ الشَّهادَةِ، مِنها: إذا طُلِبَ إلى مَوْضِعٍ؛ لِأنَّ الخُرُوجَ غَيْرُ واجِبٍ عَلَيْهِ، ومِنها: إذا كانَ غَيْرُهُ يَشْهَدُ ويَحْصُلُ بِهِ الحَقُّ، فَإنَّ شَهادَتَهُ غَيْرُ لازِمَةٍ.

٤٤٦١. تفيد الأمر بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته. والقسط في حقوق الآدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك. ومن أعظم أنواع القسط، القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب بل على النفس. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٤٦٢. فيها أن العدل والقيام بالقسط عبودية عظيمة لله تعالى، لا يُقدم عليها والد ولا ولد.

٤٤٦٣. تفيد أن القيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به. وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم. [السعدي].

٤٤٦٤. فيها: القيامُ بالقِسطِ من أعظم الأمورِ، وأدلُّ على دِينِ القائم به، وورعِه ومقامِه في الإسلام، فيتعيَّنُ على مَن نصح نفسَه وأراد نجاتَها أن يهتمَّ له غايةَ الاهتمام، وأن يجعَلَه نُصْبَ عينيه، ومحَلَّ إرادتِه، وأن يزيلَ عن نفسه كلَّ مانعٍ وعائق يعُوقُه عن إرادة القِسطِ أو العمل به.

٤٤٦٥. فيها: استخدام صيغة المبالغة في ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ دون قائمين للدلالة على مزيد من الاهتمام بالشهادة وحمل النفس عليها حملاً.

٤٤٦٦. فيها: قوله: ﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ شهادة المرء على نفسه هي إقراره، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء. مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [١٤/١٧٠].

٤٤٦٧. فيها: استخدام كلمة﴿ وَلَوْ ﴾ دون [إن] للدلالة على الاستحالة والبعد؛ أي من أبعد الأمور أن يشهد الإنسان على نفسه.

٤٤٦٨. تفيد أن الوالدين هم أقرب الأقربين؛ لتقديمهم في الآية.

٤٤٦٩. تفيد أن الله ﷻ أوجب العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال.

٤٤٧٠. تفيد وُجُوب العَدْلِ عَلى القُضاةِ والوُلاةِ، وأنْ لا يَعْدِلَ عَنِ القِسْطِ لِأمْرٍ تَمِيلُ إلَيْهِ النُّفُوسُ وشَهَواتُ القُلُوبِ مِن غِنًى أوْ فَقْرٍ أوْ قَرابَةٍ، بَلْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الدَّنِيءُ والشَّرِيفُ والقَرِيبُ والبَعِيد.

٤٤٧١. تفيد أن القرابة والعلاقات تؤثر على الشهادة، والعدل يحتاج إلى مغالبة لهوى وميول النفس.

٤٤٧٢. فيها التحذير من المحاباة والمجاملة ولو كانت لأقرب الناس؛ لأن الله تعالى الخبير بالأعمال مطلع على صغيرها وكبيرها ولا تخفى عليه خافية.

٤٤٧٣. تفيد أن المحبة أو القرب أو احتمال وقوع الضرر للشاهد أو لأحد اقاربه أو والديه، أو احتمال محاباة الأغنياء دون الفقراء في الشهادة أو العكس لا ينبغي أن تكون مانعاً لقول الحق وشهادة الحق لا بالتزوير ولا بالامتناع والإعراض بل ينبغي القيام بالعدل والقسط في كل الأحوال. وأن البغض والشنآن لا يجوِّزُ للمؤمن شهادة الزور أو قول الزور أو الإعراض والامتناع عن قول الحق لمجرد البغض، لأن ذلك يفضي للظلم وهو من أبغض الآثام لله.

٤٤٧٤. تفيد وجوب الشهادة على الوالدين والأقربين، لقوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، وعلى هذا فتقبل شهادة الولد على والديه، واختلف العلماء في قبول وردّ شهادة الولد لوالديه.

٤٤٧٥. تفيد النهي عن المحاباة للغني أو للفقير؛ لقوله تعالى:﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

٤٤٧٦. تفيد أن الله ﷻ هو ولي كل أحد، لقوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن تتدخل العواطف البشرية في إقامة أحكام الله تعالى وتنفيذ شريعته على جميع الخلق [غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم، بعيدهم وقريبهم]، لأن الله ﷻ هو ولي الجميع، وهو الأعلم بمصالحهم.

٤٤٧٧. تفيد ردا على الشيوعية والاشتراكية الذين يقولون: إننا نرحم الفقير، فنأخذ من مال الغني ونعطيه للفقير رحمة به، ووجهه: أن الله تعالى أولى به منكم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾، ولله الحكمة البالغة في جعل الناس طبقات في الغنى والفقر، كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

٤٤٧٨. تفيد رداً على أنظمة الرأسمالية التي تحابي الأغنياء، وتمارس الضغوط على الشعوب الفقيرة؛ لتأخذ فتات عيشهم، فيزداد الغني غِناً، ويزداد الفقير فقراً.

٤٤٧٩. فيها: الأمر بقول الحق ولو كان مراً، والإنصاف ولو كان ثقيلاً.

٤٤٨٠. تفيد: ذم الهوى، وأن اتباعه سبب في الظلم، وعدم الحكم بالقسط [العدل]؛ لقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [ص: ٢٦]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [فهنا يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها، والحق هو العدل، واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم]. جامع الرسائل [٢/٢٠٥ - ٢٠٦].

٤٤٨١. تفيد الأمر بالعدل والقسط وهو الصدق المبين، وضده الكذب والكتمان. قال صاحب المنار: وهذه العبارة - وهي قوله - تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل والعناية به فالأمر بالعدل والقسط مطلقاً يكون بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض تقول: اعدلوا أو أقسطوا. وتقول: كونوا عادلين أو مقسطين. وهذه العبارة أبلغ لأنها أمر بتحصيل الصفة لا بمجرد الإتيان بالقسط الذي يصدق بمرة. وتقول:

أقيموا القسط. وأبلغ منه: كونوا قائمين بالقسط. وأبلغ من هذا وذاك: كونوا قوامين بالقسط. أي: لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى تكون ملكة راسخة في نفوسكم.

٤٤٨٢. تفيد النهي عن اللي وهو تغيير الشهادة، والنهي عن الإعراض وهو كتمانها.

٤٤٨٣. فيها تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

٤٤٨٤. تفيد تحريم كتمان الشهادة؛ يعني إخفاءها سواء كان كتمان أصلها، أو وصفها؛ وسواء كان الحامل لها القرابة، والغنى؛ أو البعد، والفقر.

٤٤٨٥. تفيد التحذير من مخالفة أوامر الله تعالى عموماً؛ وذلك لأن كل عبد علم أن الله خبير بعمله لا بد وأن يحذر ويتجنب ما يعرضه لسخط الله تعالى وعقوبته في جميع الأمور والأحوال.

٤٤٨٦. تفيد سعة علم الله ﷻ، وأنه لا تخفى عليه أعمال العباد.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

٤٤٨٧. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فلَمّا أمَرَ المؤْمِنينَ بِالقِيامِ بِالقِسْطِ والشَّهادَةِ لِلَّهِ؛ بَيَّنَ أنَّهُ لا يَتَّصِفُ بِذَلِكَ إلّا مَن كانَ راسِخَ القَدَمِ في الإيمانِ بِالأشْياءِ المذْكُورَةِ في هَذِهِ الآيَةِ، فَأمَرَ بِها.

٤٤٨٨. تفيد مع ما قبلها أن الشهادة بالحق من لوازم الإيمان وشعبه، فإن شهد المرء شهادة زور فقد أصيب في إيمانه، وأتى كبيرة من الكبائر..

٤٤٨٩. تهدي الآية الكريمة إلى خطاب من ادعى شيئاً حسناً بالعمل بمقتضاه والالتزام بلوازمه.

٤٤٩٠. فيها وجوب تعهد الإيمان وعدم الاغترار بوجود أصله. قال الشيخ السعدي: [اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء: ٤٧]. وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات. ويقتضي أيضا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإن ذلك من الإيمان المأمور به. كذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة. ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٤٤٩١. تفيد أن الإيمان يزيد وينقص لذا أمر بتعاهده.

٤٤٩٢. تفيد وجوب الثبات على الإيمان.

٤٤٩٣. تفيد وجوب تكميل الإيمان.

٤٤٩٤. تفيد وجوب الإيمان بكل ما ذكر، ولا يجوز الإيمان بالبعض، والكفر بالبعض الآخر.

٤٤٩٥. تفيد أنه لا يصح الإيمان المبعض بمعنى أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

٤٤٩٦. تفيد أن المؤمن لا ينبغي عليه أن يأمن الفتنة ويركن الى نفسه ويصيبه الغرور بإيمانه، وليعلم أن القلب إنما سمي بذلك لتقلبه وتبدل أحواله فعليه الالتجاء دوما إلى الله تعالى سائلا الثبات.

٤٤٩٧. تفيد أن تجديد الإيمان وتفقده من آن لآخر والانقطاع مع النفس لمراجعة هذا الإيمان وتثبيته أمر مطلوب وخاصة أولئك الذين تأخذهم صوارف الدنيا عن مواطن الطاعات ويبتعدون عن محثات الإيمان كسماع القرآن وتدبره.

٤٤٩٨. تفيد عظم مكانة النبي ﷺ؛ لقوله:﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٤٤٩٩. تفيد أن القرآن الكريم منزل من عند الله ﷻ.

٤٥٠٠. تفيد أن القرآن منزل على الرسول الكريم محمد ﷺ.

٤٥٠١. فيها إثبات أن الكتب السابقة قبل القرآن من عند الله تعالى.

٤٥٠٢. تفيد وجوب الإيمان بالكتب المنزلة سابقاً.

٤٥٠٣. تفيد أهمية الكتب التي أنزلها الله ﷻ في حياة الأمم؛ لهدايتهم وسعادتهم والحكم بينهم، وفي ضمن ذلك فضل تعلم كتب الله ﷻ واستخراج هداياتها وتعليمها.

٤٥٠٤. تفيد بيان فضيلة القرآن الكريم ومكانته بين كتب الله تعالى المنزلة، حيث أفرد في الذكر وقدم في الترتيب.

٤٥٠٥. يفيد عدم ذكر كتاب منزل بعد القرآن في قوله تعالى:﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ولم يقل أيضا: ﴿ومن بعد﴾ وذلك للإشارة إلى أن القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية، وأن المنزل عليه وهو محمد ﷺ خاتم النبيين، وفي هذا رد على الفرقة القاديانية، وغلامهم: ميرزا غلام أحمد، الذي ادعى الرسالة، وأن الله ﷻ أنزل عليه كتابا سماه " الكتاب المبين".

٤٥٠٦. فيها إثبات علو الله تعالى وأنه في السماء.

٤٥٠٧. فيها ذكر خمسة من أركان الإيمان. مع التحذير من الكفر بها، وخطورة ذلك.

٤٥٠٨. الآية تبين بعض ما يكفر به الإنسان فواحدة مما ذكره تكفي ليخرج عن الملة؛ فليس معنى العطف أن لا يكفر إلا إذا نقضها جميعها.

٤٥٠٩. تفيد أن من كفر بالله فقد كفر بهذا كله، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه.

٤٥١٠. تفيد أن الضلال يتفاوت قوة وشدة، وأن بعضه أشد من بعض؛ قال القاسمي رحمه الله تعالى: ((قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي: خرج عن الهدى وبعد عن القصد كل البعد. أما الكفر بالله فظاهر. وأما بالملائكة فلأنهم المقربون إليه. وأما بالكتب فلأنها الهادية إليه. وأما بالرسل فلأنهم الداعون إليه. وأما باليوم الآخر فلأن فيه نفع إقامته وضرر تركه. فإذا أنكر لزم إنكار النفع الحقيقيّ والضرر الحقيقيّ فهو الضلال البعيد. ثم الكفر بالملائكة كفر بمظاهر باطنة. وبالكتب كفر بمظاهر صفة كلامه. وبالرسل كفر بأتم مظاهره. وباليوم الآخر كفر بدوام ربوبيته وعدله. ثم الكفر بالملائكة يدعو إلى الإيمان بالشياطين. وبكتب الله إلى الإيمان بكتب الكفرة. وبالرسل إلى تقليد الآباء، وباليوم الآخر إلى الاجتراء على القبائح. وكل ذلك ضلال بعيد. أفاده المهايميّ)).

٤٥١١. تفيد التحذير من الكفر بجميع أنواعه وأشكاله وصوره.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلَۢا ﴾ [النساء: ١٣٧].

٤٥١٢. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فلما كان تفقّد الإيمان ومراقبته وتوكيد ميثاق المؤمن مع الله وسيلة الاعتصام بحبل الله الوثيق فإن إهمال ذلك يفضي إلى النفاق ومن ثم الكفر بالله، فإن تكرر الأمر فالعبد في خطر من انطباع الكفر في قلبه وازدياده رسوخاً.

٤٥١٣. فيها: حرف التوكيد في أول الآية يشير الى أهمية الخبر.. ويزيد من توثيقه.. مع أن أخبار الله تعالى كلها صدق.. وفي ذلك إشارة أخرى إلى أن القرآن يراعي طريقة الناس في الخطاب والأسلوب.. ويؤيده قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] ويدخل فيه اللغة والاسلوب.

٤٥١٤. تفيد التخويف الشديد من تقلب الإنسان بين الكفر والإيمان.

٤٥١٥. فيها خطورة التهاون بالدين أو قصد التشكيك فيه.

٤٥١٦. فيها: إفرادهم بالذكر يدل على أن كفرهم أفحش وخيانتهم أعظم وعقوبتهم في القيامة أشد.

٤٥١٧. فيها دليل أنه تقبل توبة المرتد إذا تاب، لأنه أثبت لهم الإيمان بعد الكفر.

٤٥١٨. فيها: إذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى: أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

٤٥١٩. تفيد أن الإِيمَان إِذْعَانٌ مُطْلَقٌ، وَعَمَل مُسْتَمِرٌّ بِالحَقِ، فَالمتَرَدِّدُونَ المضْطَرِبُونَ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ. والكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق، واتصل الشارد بالركب، وذاقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة، إنما يفترون على الفطرة، عن معرفة، ويلجون في الغواية عن عمد. ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد.. فعدل ألا يغفر الله لهم؛ وعدل ألا يهديهم سبيلاً؛ لأنهم هم الذين أضاعوا السبيل بعد ما عرفوه وسلكوه. وهم الذين اختاروا السيئة والعمى، بعد ما هدوا إلى المثابة والنور.

٤٥٢٠. فيها: أن الكفار يتفاوتون في الكفر؛ وإن كانوا في أصله سواء؛ فالكافر الذمي ليس كالكافر الحربي؛ وإن كانا كافرين.

٤٥٢١. فيها إشارة إلى أن الكفر دركات كما أن الإيمان درجات.. وأنه يزيد وينقص كالإيمان..

٤٥٢٢. فيها أن تكرار الكفر يقسي القلب، وفي كل مرة يزداد التصاقاً بالقلب حتى أنه ليتمكن من المنافق حتى يكون أشد عداء لدين الله وضرراً على المؤمنين من الكافر الأصلي.

٤٥٢٣. في هذه الآية رد على أهل القدر، فإن الله تعالى بين أنه لا يهدي الكافرين طريق خير ليعلم العبد أنه إنما ينال الهدى بإرادة الله تعالى، ويحرم الهدى بإرادة الله تعالى أيضا.

٤٥٢٤. تفيد أن هداية العباد بيد الله تعالى، ومنها هداية الدلالة الى الحق، وشـــرح الصــــدر للإيمان، ولا يتحقق شـرح الصـدر إن رفض العبد هداية الدلالة فلا تتحقق له هداية الانشـراح لأنه هو من بادر الله بالعصيان وابتدأ الكفر فكان ضلالهُ أصلاً بيده وبإرادته.

٤٥٢٥. فيها تأكيد وتعضيد لقول النبي ﷺ: " القلوب بين أصبعين من أصـابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.." ولكنها أضافت للحديث معنىً جديداً.. وهو أن التقليب للقلوب بما كسبت.. لا جبراً وقسراً من الله ﷻ.. ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] وهذا يؤكد على أهمية أخذ النصوص في الموضوع الواحد من القرآن والسنة معاً.. فهما من مشكاة واحدة..

٤٥٢٦. فيها تأكيد على حاجة المســـلم إلى الدعاء بالثبات على الدين؛ وكان يكثر ﷺ من دعاء: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" وهو المعصـوم. وكان من دعاء الراسـخين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

٤٥٢٧. تفيد أن للمغفرة شروط وموانع؛ ومنها الإصرار على الكفر والازدياد منه إلى الموت.

٤٥٢٨. تفيد ذم الشـخصية المتذبذبة والمترددة والضعيفة التي لا تثبت على المبادئ كشـخصية المنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

٤٥٢٩. تفيد إثبات المغفرة لله ﷻ.

٤٥٣٠. دل حرف الواو بين ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ على المغايرة.. ويلمح ذلك إلى أن المغفرة يمكن أن تكون محض فضل من الله تعالى..

٤٥٣١. فيها: تعدي الفعل [يهدي] إلى الســـبيل دون حرف: يشـــير إلى حرمانهم من جميع مراتب الهداية.. فلا هم يهتدون للسبيل ولا إلي السبيل ولا السبيل.. وذلك أتم وأبلغ في الاخبار عن بعدهم عن الهداية.. والهداية المنفية هي هداية التوفيق.. لا هداية البيان..

٤٥٣٢. تفيد أن الهداية بيد الله ﷻ؛ يهدي من يشـاء ويعافي فضـلا، ويضـل من يشـاء ويخذل ويبتلي عدلا.

٤٥٣٣. دلت الآية على أن الهداية منحة ربانية يعطيها لمن يشـــاء من عباده.. ولما نُفيَت هنا عن أصحاب وصف معين.. دلت بمفهوم المخالفة أن المستحقين لهذه المنة هم ضد من وصفوا في الآية.. وهذا يعني أن الثبات على الإيمان من أهم أســـباب المزيد من الهداية.. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٤٥٣٤. فيها رد على القدرية وعلى الجبرية.. لإثبات فعل الكفر والإيمان لأصـــحابهما.. ولأن الله توعدهم بعدم المغفرة..

٤٥٣٥. تدل على أن الاستهزاء بالدين أعظم درجات الكفر وأقوى مراتبه.

٤٥٣٦. تفيد أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

٤٥٣٧. تفيد دقة التناسـب وروعة التناسـق مع ما قبلها، وذلك أنه لما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضربا من التهكم والسخرية بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم بالمسلمين، فقال على طريقة التهكم والسـخرية: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ والأصل في التبشير أن يكون بما يسر، ولكنه خرج هنا مخرج التهكم بهم.

٤٥٣٨. تفيد دقة التناســـب وروعة التناســـق مع ما قبلها؛ فلما ترددوا وتذبذبوا بين الكفر والإيمان حتى ازدادوا كفرا فحرموا من الغفران والهداية فقد حق القول عليهم بوقوع العذاب الأليم وصنفوا قبل ذلك بأنهم منافقين. كما ترتبط بالآيات التالية التي تبين وتفصل صور النفاق التي آلت بهم لما توعدهم به في الآية الســـابقة وتقرر بأن ولاية أهل الكفر ومظاهرتهم على المؤمنين ومجالسـة المسـتهزئين بكلام الله وخوضـهم فيه بالباطل وغيرها من الأفعال المشـينة هي ما جعل مصيرهم إلى ما تقدم وسيأتي ذلك إن شاء الله في ما يلي.

٤٥٣٩. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها؛ فبعد أن أمر ﷻ بإصلاح المجتمع الصغير والكبير بالإصلاح والعدل والقسط، انتقل إلى بيان شأن المنافقين الذين يفسدون هذه المجتمعات، ويثيرون عليها البلبلة والمكائد والخيانات، ولهذا لا تجد مجتمعات تنعم بالإصلاح والعدالة إلا وللمنافقين اليد الطولي والرغبة الجامحة لزعزعته وإفساده، سواء كان هذا المجتمع [المجتمع الزوجي الأسري]، أو [المجتمع العام].

٤٥٤٠. فيها: يستأنف السياق القرآني التشويق والتهيئة لمعرفة جرم أولئك المنافقين فيقفز للنتيجة قبل تفصيل السبب فيقرر مصيرهم وهو العذاب الأليم.

٤٥٤١. تفيد أنه ينبغي مصارحة المنافقين وتبشيرهم بالعذاب الأليم ليرتدعوا عن نفاقهم، وهو نوع من جهادهم، لتطهير المجتمع الإسلامي من شرهم ونفاقهم.

٤٥٤٢. فيها تقوية للحديث المختلف في صحته: "حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار ".

٤٥٤٣. فيها: المنافق مستحق للعذاب الأليم إن لم يتب ويعود.

٤٥٤٤. تفيد ذم النفاق واستحقاق أهله العذاب الأليم جزاءً وفاقا.

٤٥٤٥. تفيد أن عذاب الله ﷻ أليم شديد على القلوب والأبدان والأرواح.

٤٥٤٦. تفيد التخويف والتحذير من عذاب الله ﷻ فإنه عذاب أليم لا طاقة لأحد به.

٤٥٤٧. الجملة الاسمية ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا﴾ تفيد ثبوت هذا العذاب في حقهم وهذا يدل على عدم فناء النار.

٤٥٤٨. تقديم ما حقه التأخير﴿ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا ﴾ يشير إلى نوع عذاب يختص بهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

٤٥٤٩. تنكير العذاب ووصفه من باب التفخيم والتعظيم له ليذهب العقل فيه كل مذهب.

٤٥٥٠. لفت نظر المعاند إلى مآله وما ينتظره من أنفع أنواع العلاج له ولغيره.

٤٥٥١. حذف متعلق العذاب يشير إلى أن هذا العذاب عام في الدنيا والآخرة.

٤٥٥٢. فيها أسباب البشارة لهم بالعذاب الأليم، فقد جعلوا من أهل الكفر أولياء وأعرضوا عن أهل الإيمان، ومن علامات ذلك الوشاية بالمؤمنين لدى أهل الكفر ومعاونتهم ومظاهرتهم على قتل المسلمين واستباحة أموالهم وأنفسهم وكل ذلك سعيا في الحصول على العزة والمنعة والحماية من وقوع المكروه عليهم.

٤٥٥٣. الآية بأسلوبها الفريد تصور حالة الضياع والتيه التي وصل إليها المنافقون في بحثهم عن العزة في غير مظانها.

٤٥٥٤. في قوله:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا من علامات النفاق.

٤٥٥٥. فيها: أولياء جمع ولي، والولي يأتي بمعنى الناصر وبمعنى المنصور فهذا يفيد أن نصر الكافرين أو طلب النصرة منهم من أعظم الجرائم وأشد الآثام.

٤٥٥٦. تفيد تحريم الاستعانة أو التقوّي بالكفار لأنه لا يكون بغير مقابل.

٤٥٥٧. شرط الولاء هو الإيمان فمن لم يتحقق فيه هذا الشرط لا يجوز موالاته.

٤٥٥٨. تفيد استمرار المنافقين في هذه الصفة الذميمة ذات العواقب الوخيمة؛ لأن فعلهم جاء بصيغة المضارع «يتخذون، يبتغون»؛ وهذا هو واقع المنافقين والعلمانيين والليبراليين ونحوهم إلى يومنا هذا: موالاة الكفار والتعزز بهم؛ قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

٤٥٥٩. فيها: الفعل [يتخذ] أشار إلى القصد والتعمد.. والتضعيف زاد من معنى التكلف.. وفيه دحض لادعاء بعض المنافقين أنها علاقات إنسانية بعيدة عن مجال الدين..

٤٥٦٠. فيها؛ التحذير من التولي في جميع أمورهم كالمحبة والنصرة والمساعدة والمداهنة وغيرها.

٤٥٦١. فيها: قوله:﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تدل على أن هناك بونا شاسعا بين المؤمن والمنافق.

٤٥٦٢. تفيد بيان أن المنافقين دائما ما يشعرون بالضعف والهوان في المجتمعات المؤمنة، فيطلبون الاعتزاز بغيرهم من الكفار.

٤٥٦٣. تبين الآية قوة الارتباط والعلاقة بين المنافقين والكافرين فهم إلى الكافرين أقرب منهم إلى المؤمنين.

٤٥٦٤. فيها: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا كما يظنه من يوالي الكفار والمنافقين.

٤٥٦٥. فيها؛ أن من ابتغى العزة من دون الله فهو ذليل. ولذلك أتى الاستفهام الإنكاري بقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

٤٥٦٦. تفيد أهمية استخدام أدوات الاستفهام لتقرير بعض الحقائق؛ وتحليل بعض الوقائع التي تصدر من بعض الخلائق.

٤٥٦٧. في الآية بيان فاضح لخسة المنافقين في كونهم يريدون أن تكون العزة عند الكافرين وحدهم وليس عند غيرهم﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي أيريدون العزة فقط عند الكافرين. والحصر أفاده تقديم الظرف ﴿عِندَهُمُ﴾.

٤٥٦٨. فيها: الفعل [يبتغون] دل على الرغبة أكثر من أشباهه من الأفعال.. ويشير ذلك الى السعي الجاد للحصول على العزة.. وهذا ما يشهد به الواقع.!!!

٤٥٦٩. تفيد بيان ذلة من يبتغى العزة من دون الله؛ لقوله تعالى:﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ والاستفهام ههنا للإنكار.

٤٥٧٠. تصور الآية الحالة النفسية للمنافقين لذا يسعون دائما إلى التقوّي والتعزز بغيرهم وهذا يشير إلى هلع وجبن في داخل قلوبهم وأنهم يتوقعون دائما المكاره والمخاوف.

٤٥٧١. تبين الآية الانتكاسة الفطرية لأهل النفاق لذا يسعى أحدهم إلى حتفه بظفره فهم يسعون إلى ما ظاهره عزة لهم وفي الحقيقة ذل وصغار وهذا يبين عمى قلوبهم وضعف نفوسهم.

٤٥٧٢. فيها: من رام العزة فليعلق قلبه بالله ﷻ. قال ابن كثير: والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جانب الله تعالى والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

٤٥٧٣. تفيد إثبات العزة لله ﷻ؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

٤٥٧٤. في تقديم الجار والمجرور في جملة خبر إن ﴿ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ يدل على حصر جميع أنواع العزة وأنها لله جميعها.

٤٥٧٥. الآية فيها بيان للطريق الوحيد الذي يجب أن يسلكه المؤمنون والمستضعفون والمظلومون في الأرض لرفع الظلم عنهم والتقوِّي على من ظلمهم وهو أن يلجأوا لمن بيده العزة جميعا.

٤٥٧٦. تفيد أن كل الأمور في ملك الله تعالى؛ وبعض هذه الأمور إنما هي وديعة عند بعض الناس؛ وعلى العاقل أن يطلبها من صاحبها ومالكها الحقيقي؛ وهو الله ﷻ؛ لا ممن هي عنده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ ولم يقل: [فإن العزة عند الله جميعا]. وعلى هذا فإن كل من يبتغي شيئا عند أحد فعليه أن يطلبه قبل ذلك من الله تعالى؛ فإنه هو مالك ذلك الشيء ومالك صاحبها الذي عنده.

٤٥٧٧. تفيد أن طلب العزة من عند البشر فيه إذلال وتحميل للنفس ما لا تحتمل؛ بخلاف طلبها من الله تعالى؛ ولهذا عبر ﷻ في طلب المنافقين العزة من عند أوليائهم الكافرين بالابتغاء؛ ولم يقل: [أيطلبون عندهم العزة]؛ ولهذا فإن طلب الحوائج من المخلوق فيه إذلال للنفس وإتعاب لها أمام مخلوق مثلها؛ بخلاف الطلب من الله تعالى.

٤٥٧٨. تفيد خطر المنافقين على الإسلام والمسلمين ولذلك كثر التحذير منهم في القرآن الكريم؛ ﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

٤٥٧٩. في الآية تحذير لحكام المسلمين اليوم الذين يلهثون وراء الغرب والشرق للتقوِّي بهم والاعتزاز بقوتهم.

٤٥٨٠. فيها النهي عن الاستعانة بالكفار والمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

٤٥٨١. تفيد أصلا لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر في مكان آخر، والتنبيه عليه والاعتماد على المعنى؛ فإن المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٤٥٨٢. تفيد مع الآية الأخرى في سورة الأنعام أن مدار الإعراض عن الخائضين فيما لا يرضي الله تعالى هو العلم بخوضهم، ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية كما في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ...﴾ وتارة بالسماع كما في هذه السورة: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾.

٤٥٨٣. تفيد أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان بها الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم. وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده. [السعدي].

٤٥٨٤. الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها، لأن أول الشر سماع الشر، ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن في الدفاع عن الحق الذي آمن به. ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه إما أن ينبري للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقوة تدمغ الباطل وأهله وتفضح كل معتد

أثيم.. وإما أن يقاطع المجالس التي لا يحترم فيها دين الله. أما السكوت عن ذلك باسم التغاضي أو التسامح أو المرونة. أو بغير ذلك من الأسماء، فهذا أول مراتب النفاق الذي يؤدي إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

٤٥٨٥. تفيد إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٤٥٨٦. تفيد إثبات علو الله تعالى؛ لأنه إذا كان القرآن وهو كلام الله منزلا من عنده؛ دل ذلك على أن المتكلم به عال.

٤٥٨٧. فيها: أضاف ﷻ الآيات إليه، لتهويل أمرها، والتشنيع على من كفر أو استهزأ بها.

٤٥٨٨. فيها: وجوب ترك المكان الذي يعصى فيه الله؛ إلا أن يغير ويزيل المعصية؛ وإلا كان شريكا في درجة الإثم.

٤٥٨٩. فيها النهي المغلظ عن مجالسة المستهزئين والشاتمين لله تعالى وآياته.

٤٥٩٠. تفيد أن من حضر مجلسا يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.

٤٥٩١. فيها أن مجرد الجلوس في مجالس الطعن في آيات الله أو الاستماع إليها يعدّ مشاركةً في الفعل ويصنف من يرتكب هذه المشاركة أنه إما من الكافرين أو المنافقين، ونفى بالتالي عن المؤمنين الجلوس في تلك المجالس.

٤٥٩٢. يفيد ظاهر الآية أنه لا يجب الإنكار على الكافر والمستهزئ بآيات الله تعالى؛ لأنه إنما نهى عن القعود معهم ولم يأمر بالإنكار عليهم، ولكن النصوص الأخرى من الكتاب والسنة أوضحت ذلك، ودلت دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤٥٩٣. تفيد أن الاستهزاء بالدين وأهله من نواقض الإسلام وعلامات الردة والنفاق كما في الآية الأخرى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾

[التوبة: ٦٥ – ٦٦].

٤٥٩٤. تتضمن النهي عن مجالسة أهل النفاق – حال إثارتهم شبهات اعتقادية – والتحذير من تلقف أقوالهم وتناقلها وإشاعتها إلا على سبيل ردها وإنكارها وبيان ضلالها وانحرافها، ومن أهل العلم المتخصصين.

٤٥٩٥. فيها اعتزال مواطن الفتن وإثارة الشبهات، والبعد عنها سلامة للدين؛ لأن الشُّبَه خطّافة والقلوب ضعيفة، وفي أحاديث ذكر الدجال، قال رسول الله ﷺ: " من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشبهات ".

٤٥٩٦. تفيد أن آيات الله تعالى تقابل بالتعظيم والشكر لا بالاستهزاء والكفر.

٤٥٩٧. فيها ملء مجالسنا بتعظيم آيات الله وشعائره وشريعته.

٤٥٩٨. تُقرّر الآية مسألة الاستماع وحرمتها، وهذا ينسحب على ما ينتشر اليوم من مقاطع صوتية أو مرئية يتناول فيها الملحدون والمنافقون آيات الله بالطعن والتكذيب فلا يجوز الاستماع إليها ومتابعتها لئلا تشمله هذه الآية.

٤٥٩٩. تفيد أن القعود معهم قعودان، قعود مؤانسة ومجاملة، وهذا الذي يتجه إليه النهي صراحة، والقعود الثاني قعود دعوة ومصابرة وبيان للحجج والبراهين بالتي هي أحسن لقوله ﷺ: " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا.." فيحملهم ذلك على الخوض في حديث غيره، وهذه أقل الدرجات، وأعلاها أن يتركوا الخوض في الباطل استجابة لدعوة الدعاة بتحول مجالسهم إلى مجالس إيمان وصلاح. والله أعلم.

٤٦٠٠. تفيد أن الأحكام تدور مع عللها وجودا وعدما؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾.

٤٦٠١. تفيد التحذير من مجالسة أصحاب السوء وأهل الأهواء والبدع والضلالات؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ ﴾ وصدق الشاعر حين قال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه.... فكل قرين بالمقارن يقتدي

٤٦٠٢. تفيد أن الراضي بالمعصية كالفاعل لها. فعن العرس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: " إذا عُمِلتِ الخطيئةُ في الأرضِ؛ كان من شـهِدَها فكرِهَها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيَها كان كمن شهِدَها " صححه الألباني في صحيح الجامع ٦٨٩.

٤٦٠٣. تفيد بدلالة المفهوم تحريم التعاون على الإثم والعدوان؛ لقوله تعالى:﴿ فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ ﴾، فإنه إذا حرم القعود مع فاعل المنكر، فتحريم الإعانة من باب أولى، مثل: تهيئة المكان لهم، واستقبالهم وصب القهوة والشاي لهم.

٤٦٠٤. تفيد أن الجلوس مع الكفار والمنافقين لا بأس به طالما لم يكن حديثهم كفر بآيات الله واستهزاءً بها، ويجب الانقطاع والمفارقة لهم حال وقوع ذلك منهم ويجوز العودة للجلوس معهم بعد توقفهم عن هذا الطعن.

٤٦٠٥. فيها عدم اليأس من دعوة المخالفين ونصيحتهم وعدم الانقطاع عن ذلك إلا حين يكفر بآيات الله ويستهزأ بها، فتتم مفارقتهم وعند انتهائهم يعود المؤمن لدعوتهم والسعي في هدايتهم. وينبغي عدم الخلط بين المناظرة والجدال بالتي هي أحسن وبين الجلوس في مجالس الاستهزاء والكفر بآيات الله، فالأصل هو المناظرة وجدال الكفار والمنافقين بالتي هي أحسن، فإن تجاوزوا الأدب في الحديث فأصبح الحوار استهزاءً وكفراً بآيات الله وجبت مفارقتهم حتى يعلموا بأن النقاش والحوار لا تمنعه شريعة الاسلام بل هو لب الدعوة إلا أن الاستهزاء والسباب وسقط الحديث مما يترفع المؤمن عن سماعه.

٤٦٠٦. فيها الغيرة على حرمات الله والغضب لأجله يعد من شعب وعلامات الإيمان في حين تمييع الدين والرضا بالفجور في حق الله وآياته هو شعبة وعلامة من علامات النفاق.

٤٦٠٧. تفيد من باب أولى أن المشارك لفاعل المنكر كفاعل المنكر؛ لقوله تعالى:﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ قال القرطبي: فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يتجنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر. قال الله تعالى:﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾

فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء. وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم. فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي أن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي حتى يهكلوا جميعا. وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة.

٤٦٠٨. تفيد: أن المجالِس للمنكر ولا ينكره يكون من أهله.

٤٦٠٩. تفيد بدلالة قياس العكس؛ أن جليس أهل الصلاح وأهل الخير هو منهم وفيهم، ووجهه: أن من أثم بجلوسه مع العصاة وفاعلي المنكر أجر بجلوسه مع الطائعين وفاعلي المعروف، وجاء في الحديث: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ".

٤٦١٠. تفيد الآية خطر النفاق وإن تظاهر أهله بالإسلام فهم مع الكافرين في الأهداف والمصير.

٤٦١١. تفيد أن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب مجالسته والاستماع إليه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

٤٦١٢. تفيد أن جهنم يجتمع فيها صنفان من الخلق، وهم: المنافقون والكافرون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

٤٦١٣. تفيد التخويف من النار، وأن من اسمائها «جهنم» وهو اسم يخلع القلوب خوفا لما له من دلالات على صفة هذه النار وبُعد قعرها وشدة ما فيها.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٤٦١٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فهذه الآية استطراد لما قبلها في تعداد كبائر ما أتاه المنافقون من الذنوب، فبعد أن وصفهم بالتردد بين الكفر والإيمان حتى ازدادوا كفرا وبشرهم بالعذاب الأليم لاتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وكذلك استهزائهم وكفرهم بآيات الله في مجالسهم أتت هذه الآية تستأنف صورا أخرى من صور نفاقهم وكذبهم.

٤٦١٥. تفيد بيان شدة عداوة المنافقين وسوء مكرهم وكيدهم للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ ﴾.

٤٦١٦. فيها إقحام – المنافقين – أنفسهم في جملة المؤمنين عند انتصارهم سعياً في الحصول على المغانم، أما إذا كان النصر حليف أهل الكفر ادخلوا أنفسهم في جملة أهل الكفر مدعين بأنهم حموهم من المؤمنين وساهموا في انتصارهم فينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾[النساء: ١٤٣] الذي سيرد فيما يلي من الآيات.

٤٦١٧. في الآية أن المنافقين لا يسلكون طريقا واضحا وإنما دينهم الخداع.

٤٦١٨. الآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه المنافقون من تلون وتقلب وهرولة وراء شهوات الدنيا في أي مكان كانت.

٤٦١٩. تفيد ذم هذه الخصلة الظاهرة في المنافقين وهي محاولة الجمع بين النقيضين والتقرب إلى الكفار والمسلمين والأكل على كل الموائد.

٤٦٢٠. عبر عن النصر في جانب المؤمنين بأنه فتح، وعن انتصار الكافرين بأنه نصيب، لتعظيم شأن المسلمين وللتهوين من شأن الكافرين. ولأن انتصار المسلمين يترتب عليه فتح الطريق أمام الحق لكي يدركه الناس، ويدخلوا في دين الله أفواجا، ولأن الفتح من الله يكون معه الدوام وحسن العاقبة بخلاف انتصار الكافرين فهو أمر طارئ وليس بدائم. قال صاحب الانتصاف: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن، فإن الذي يتفق للمسلمين فيه: استئصال لشأفة الكفار

واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤوها. وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا. فالتفريق بينهما أيضا مطابق للواقع والاستفهام.

٤٦٢١. تفيد أن المنافق يعامل بالظاهر، ويعطى من الفيء مثل ما يعطى المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ما دمنا كنا معكم فأعطونا حقنا من الفيء.

٤٦٢٢. فيها رد على المنافقين فيما أمّلوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

٤٦٢٣. أن سلوك المنافقين في ركوب موجة النجاح والتبرؤ من حالة الهزيمة لا تقتصر على المعارك والملاحم والقتال، بل تتعدى ذلك إلى كل نجاح يصيبه المؤمنون، فنرى أهل النفاق في كل زمان ومكان يلتصقون بالمنجزات ويحاولون نسبة جزء من النجاح لأنفسهم وينسبون جهدهم إلى المنتصر ويتناقضون بين الأعداء وينضمون إلى من يرون مصلحتهم معه.

٤٦٢٤. فيها جواز وقوع المداولة في النصر بين المؤمنين وبين أعدائهم، وأن إيمانهم مجردا لا يكفي لانتصارهم بدون أسباب النصر كالإعداد والتخطيط والقوة ومن ثم يحصل التأييد الرباني إذا أفرغ المسلمون جهدهم لقتال عدوهم وخلت صفوفهم من أهل النفاق قدر الإمكان.

٤٦٢٥. فيها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٦٢٦. تفيد أن المنافقين يعملون في الخفاء ويتربصون ويجتهدون في الإفساد والإضرار بالمسلمين ولذلك خطرهم أعظم؛ ففيها الحث على رصد أفعالهم وتتبع مخططاتهم لإفشالها، وعدم الثقة بهم والركون إليهم.

٤٦٢٧. تفيد أن النصـــر والتمكين والفتح من الله ﷻ وحده فليطلب ذلك منه ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقد قال تعالى للمنافقين خصوصا: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

٤٦٢٨. تفيد أن الله ﷻ يحكم بين العباد يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وهو الحكم العدل لا معقب لحكمه.

٤٦٢٩. تفيد إثبات يوم القيامة، والتنبيه على الاســتعداد له بالعمل الصــالح والحجة البالغة لما يسأل عنه يومئذ.

٤٦٣٠. تفيد إثبات الجزاء والحكم بين الخلائق في الآخرة.

٤٦٣١. تفيد أنه لا حكم لأحد في الآخرة إلا لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾

٤٦٣٢. فيها بيان عدل الله يوم القيامة، فلم يقل [فالله يعذبهم بما فعلوا وكذبوا ونافقوا] بل قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فكان ذلك عدل الله بايقاف الخصوم وإجراء الاستشـهاد والاســتجواب والمحاججة والحكم على المجرم وتبرئة البريء وإشـــهاد الأمم يوم القيامة، فهذا من كمال تفضـل الله على خلقه وتمام عدله حتى بأعدائه؛ ليدفع المتهم عن نفسـه. وفي ذلك دلالة على وجوب عدم إجراء العقاب قبل المحاكمة حتى ولو كان الحاكم أو القاضـــي متيقنا من جرم المجرم ومثبتا عليه ذنبه فيجب اتباع أصـول التقاضـي والتحاكم بشـرع الله ومنح المتهم الفرصـة الكاملة ليقدم دفوعه وحجته. ثم أن الله يطمئن عباده المؤمنين أن تلك المحاكمة لن ينتج عنها ظلم للمؤمنين أو تفضـيل لحجة المنافق الكاذبة فيصـير حق المؤمن مسـتباحا ويكون للمنافقين مخرجا ينجيهم ويدين المؤمنين.

٤٦٣٣. فيها رعاية الله للمؤمنين وعنايته بهم في الدنيا والآخرة، فمن اكتوى بجرائم أهل النفاق في الدنيا إما بوشـــاية كاذبة أو بعمالة لأهل الكفر فليعلم أن الله تعالى قد تكفل بالحكم العدل ولن يكون لأهل النفاق في الآخرة سبيلا على أهل الإيمان. قال السعدي: قوله: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ

﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: تسلطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفعٍ لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان. حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله الحمد أوّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. قال القرطبي: إن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. ويدل عليه قوله ﷺ في حديث ثوبان: "حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا " وذلك أن "حتى" غاية؛ فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض، وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين؛ فغلظت شوكة الكافرين واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقلّه؛ فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه.

٤٦٣٤. تفيد إثبات الجعل لله ﷻ، والجعل إما جعل كوني أو جعل شرعي.

٤٦٣٥. تفيد المنع من بيع العبد المسلم من الكافر؛ قال ابن كثير: وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم من الكافر لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

٤٦٣٦. فيها تثبيت للمؤمنين، لأنّ مثيل هذه الأخبار عن دخائل الأعداء وتألّبهم: من عدوّ مجاهر بكفره. وعدو مصانع مظهر للأخوّة، وبيان هذه الأفعال الشيطانية البالغة أقصى المكر والحيلة يثير مخاوف في نفوس المسلمين وقد يُخيِّل لهم مَهاوي الخيبة في مستقبلهم. فكان من شأن التلطّف بهم أن يعقّب ذلك التحذير بالشدّ على العضد، والوعد بحسن العاقبة، فوَعدهم

الله بأن لا يجعل للكافرين، وإن تألّبت عصـــاباتهم. واختلفت مناحي كفرهم، ســبيلاً على المؤمنين.

٤٦٣٧. يفيد نفي أن يكون للكفار على المؤمنين سـبيل يوم القيامة فقط، للإشـارة إلى أنه في غير يوم القيامة فإن المؤمنين والكفار كلهم تحت العدالة الإلهية، وتمضـي على جميعهم سـنة الله تعالى في النصر والهزيمة، فمن استحق النصر بأن أخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية نُصر، ومن استحق الهزيمة بأن فرط في أسباب النصر هُزم.

٤٦٣٨. تفيد إثبات الأفعال لله ﷻ فهو يفعل ما يشاء.

٤٦٣٩. تفيد عظم منزلة المؤمنين عند ربهم ﷻ؛ فإن الله تعالى لا يجعل للكافرين عليهم سبيلا.

٤٦٤٠. فيها إخبار الله بما يخفيه أهل النفاق من عمل سوء يظنون أنهم استخفوا به والله مخرج ما كانوا يخفون.

٤٦٤١. فيها فرصـة ومهلة لأهل النفاق ليعودوا عن جرمهم وتغشـاهم الرهبة والخوف من الله الذي أظهر فظائعهم وخياناتهم لأهل الإيمان وكشف سوء فعالهم، فمجرد إظهار الله لأفعالهم في قرآن يتلى كان ينبغي أن يدفعهم الى النكوص عن سبيل النفاق والعودة لأهل الإيمان ولكن فيه إقامة الحجة الغليظة عليهم بهذه الصورة تجعل من عذابهم مضاعفاً.

٤٦٤٢. فيها إرشاد المؤمنين لمعرفة عدوهم وتحليل سلوكه في مواطن الشدة والبأس، وتوكيد على أن هذه الفئة الخائنة حاضرة في كل زمان ومكان، فإن كانت في وقت اقدس الأزمنة وخير الخلق ونزل فيهم قرآن يتلى وهم يعلمون أنه فيهم وبقي فيهم النفاق والعداء لأهل الإيمان فكيف ببقية الأزمان؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

٤٦٤٣. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فبعد أن ذكر ﷻ خداع المنافقين لعباد الله المؤمنين، ذكر خداعهم له ﷻ؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن المنافق يتدرج ويترقى في المعاصي والسيئات، وأن أعماله السيئة تفضي به إلى سيئات أعظم منها.

٤٦٤٤. تفيد مع ما قبلها أن أعظم فتوحات الله للمؤمن تكمن في صلاته، فمن صلحت صلاته صلح سائر عمله.

٤٦٤٥. تفيد مع ما قبلها أن الفتوحات والانتصارات الإلهية تكون من نصيب من يقومون في صلاتهم خير قيام ويندفعون إليها بقوة ونشاط، ويكثرون من ذكر الله تعالى في داخلها وخارجها؛ وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤٦٤٦. فيها: صفات المنافقين في القرآن فضيحة لهم في الدنيا قبل الآخرة، وهي تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين، وأولياءه المتقين، على عدم الاغترار بهم.

٤٦٤٧. تفيد جهل المنافقين بالله تعالى وعظمته في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمۡ ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وجَرَت عَلَيْهِمْ أحكامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ.

٤٦٤٨. فيها الجزاء من جنس العمل، فكل ما يعمله المرء من خير أو شر فإن مُقَابِلَهُ من الجزاء حاصل وواقع عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولو تتبعنا ما ورد من آثار من أحوال القيامة لوجدنا أن أحوالهم تتغير تبعاً لأعمالهم، ولذلك أخر الله المنافقين وضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣] فكما كان ظاهرهم الرحمة وباطنهم النفاق؛ جعل باطن السور مما يلي المؤمنين رحمة، وظاهره مما يلي المنافقين عذاب مقابلة بفعلهم في الدنيا.

٤٦٤٩. فيها: عبر – سبحانه – عن خداعه لهم بصيغة اسم الفاعل، للدلالة على الغلب والقهر. لأن الله – تعالى – كاشف أمرهم، ومزيل مغبة خداعهم، ومحاسبهم حسابا عسيرا على ما ارتكبوه من جنايات وسيئات.

٤٦٥٠. تفيد أن القيام ركن في الصلاة مع القدرة لقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾.

٤٦٥١. يفيد تخصيص ركن القيام بالذكر دون سائر أركان الصلاة؛ ولم يقل مثلا: [ركعوا أو سجدوا كسالى] وذلك إشارة إلى أنه أول ركن من أركان الصلاة؛ وانه أبرز وأظهر ركن يتبين فيه الكسلان والنشيط في الصلاة.

٤٦٥٢. فيها: القيام للصلاة بكسل هو إحدى علامات النفاق، فهم لا يقومون إليها سعياً في إجابة داعي الحق، بل مراءاة ونفاقاً، وحتى يقال فلان أدى الصلاة، ولكن كسلهم في القيام إليها دليل على نفاقهم قال تعالى في سورة الماعون: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ [الماعون: ٤ – ٧]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية: وهذا وعيد شديد لمن ينقر في صلاته، فلا يتم ركوعه وسجوده بالاعتدال والطمأنينة. مجموع الفتاوى [٥٣٧/٢٢]. وقال ابن كثير: هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها. وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها. وهذه صفة ظواهرهم. ثم ذكر – سبحانه – صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في وقت الغلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا " وروى الحافظ أبو يعلى عن عبد الله قال: من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة. استهان بها ربه ﷻ.

٤٦٥٣. بين الله تعالى في هذه الآية صلاة المنافقين، وبينها رسوله محمد ﷺ؛ فمن صلى كصلاتهم وذكر كذكرهم لحق بهم في عدم القبول، وخرج من مقتضى قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢]. اللهم إلا أن يكون له عذر فيقتصر على الفرض حسب ما علمه النبي ﷺ للأعرابي حين رآه أخل بالصلاة فقال له: " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها ". رواه الأئمة. وقال ﷺ: " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ". وقال: " لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود ". [القرطبي].

٤٦٥٤. دلت هذه الآية على أن الرياء يدخل الفرض والنفل؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فعم. وقال قوم: إنما يدخل النفل خاصة؛ لأن الفرض واجب على جميع الناس والنفل عرضة لذلك. وقيل بالعكس؛ لأنه لو لم يأت بالنوافل لم يؤاخذ بها. [القرطبي].

٤٦٥٥. فيها وجوب المسارعة لإجابة الأذان وإتيان الصلاة تقوى لله وسعياً لمواطن العبادة والطاعة.

٤٦٥٦. تفيد أهمية الصلاة وأنها تحقن بها الدماء ويحكم بها على الشخص بالإسلام. ولعله لذلك كان المنافقون يحرصون على إظهارها وشهودها.

٤٦٥٧. تفيد ذم الكسل والتهاون بالصلاة وتحث على النشاط والإقبال على الصلاة بهمة وحيوية ورغبة.

٤٦٥٨. تفيد كراهية المنافق للصلاة وحب المؤمن لها، لأن الإنسان إذا كره شيئا لم ينشط إليه. وأما المؤمن فقد صفا لله تعالى قلبه، وصفت له محبته، فهو لا يرجو بالقرب منه غيره، ولا يطلب بإقباله عليه سواه، قد امتلأ قلبه لله –وحده– تعظيمًا وإخلاصًا، كما امتلأ له شوقًا، وحبًّا.. فتراه لا تأنس جوارحه إلا بلقياه.. كما لا يطرب قلبه إلا بذكره، ونجواه، قد أخلص لله – دون

التفات إلى الناس–صلاته، فعمر بها ظاهره، ولم يقطع بربه – مع كثرة الشواغل– صِلته، بل عمر بذكره إياه باطنه.

٤٦٥٩. تفيد جهل المنافقين بأعظم شعائر الدين وهي الصلاة فكيف بغيرها فهَذِهِ صِفَتهم فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا، وَهِيَ الصَّلَاةُ. إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا قَامُوا وَهُمْ كُسَالَى عَنْهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا إِيمَانَ لَهُمْ بِهَا وَلَا خَشْيَةَ، وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَ فكيف بغيرها.

٤٦٦٠. تفيد أن الصلاة مؤشر من مؤشرات الإيمان أو النفاق ومن ضيعها فهو لسواها أضيع، ومن حافظ عليها فهو لما بعدها أحرص، ومن هنا كانت المحافظة عليها في مقدمة صفات المؤمنين.

٤٦٦١. تفيد أن الكسل في الصلاة مؤذن بقلّة اكتراث المصلّي بها وزهده في فعلها، فلذلك كان من شيم المنافقين. ومن أجل ذلك حذّرت الشريعة من تجاوز حدّ النشاط في العبادة خشية السآمة، ففي الحديث " عليكم من الأعمال بما تطيقون فإنّ الله لا يَمَلُّ حتّى تَمَلّوا ". ونهى عن الصلاة والإنسان يريد حاجته، وعن الصلاة عند حضور الطعام، كلّ ذلك ليكون إقبال المؤمن على الصلاة بَشَرهٍ وعزم، لأنّ النفس إذا تطرّقتها السآمة من الشيء دبّت إليها كراهيته دبيباً حتّى تتمكّن منها الكراهِية، ولا خطَر على النفس مثلُ أن تكره الخير. [ابن عاشور].

٤٦٦٢. تفيد ذم الرياء وهو من الشرك الأصغر، ومن صفات المنافقين.

٤٦٦٣. يفيد ذكر عبارة [الناس] في سياق التحذير من المراءة؛ للإشارة وللفت انتباه المرائي إلى أن من يرائي بعمله هم أناس مثله، لا ينفعون ولا يضرون، وإنما الذي ينفع ويضر هو الله سبحانه وتعالى، فلماذا أيها المرائي ترائي بعملك الناس الذين لا ينفعوك ولا يضروك؟ ولماذا أيها المرائي تهتم برضا الناس الذي هو غاية لا تدرك، وتترك رضا الله الذي هو الغاية التي يتنافس عليها المتنافسون، وإليها يعمل العاملون.

٤٦٦٤. تفيد أن الرياء في الأعمال سببه خلل في الاعتقاد ناتج من اهتمام بالخلق دون الخالق.

٤٦٦٥. فيها: قلة جريان ذكر الله على ألسنتهم، ولعلهم لا يذكرون الله إلا حين يراهم الناس إيهاماً لهم بأنهم من المؤمنين وهم غير ما يظن بهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: إنما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة، ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله تعالى لكان كثيرا، وقال قتادة: إنما قل ذكر المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله، وكل ما قبل الله فهو كثير.

٤٦٦٦. تفيد أن المنافق قليل الذكر في صلاته أيْ: فِي صَلَاتِهِمْ لَا يخشعُون فِيهَا وَلَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعَرِضُونَ.

٤٦٦٧. فيها: كثرة ذكر الله تعالى أمان من النفاق.

٤٦٦٨. تفيد الحث على كثرة الذكر ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقد قال رسول الله ﷺ: " سبق المفردون. قالوا: ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرت ". رواه مسلم.

٤٦٦٩. في الآية حث على كثرة الصلاة والذكر، والنشاط في العبادة. عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى، وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾.

٤٦٧٠. فيها وجوب استمرار المؤمن على الذكر في كل وقت وحين وهذا يتسق مع وصف الله لهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١] وأن الذكر في معظمه عبادة خفية بين العبد وربه لذلك فإن سجل المنافقين يخلو منها، بينما يتميز بها المؤمن وكل ما ازداد إيمانه كان أعظم ذكراً لله.

٤٦٧١. تفيد الآية بِمَفْهُومِ المخالَفَةِ أَنَّ صَلاةَ المؤْمِنِينَ المخْلِصِينَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وهَذَا المفْهُومُ صَرَّحَ بِهِ تَعَالى فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢] وقَوْلِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩] وقَوْلِهِ: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦

﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٧] إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ.

٤٦٧٢. تفيد أن من عَلاماتِ النِّفاقِ اسْتِغْراقُ الأوْقاتِ بِحَدِيثِ الدُّنْيا، وقِلَّةُ ذِكْرِهِ تَعالى بِتَحْمِيدٍ أوْ تَهْلِيلٍ أوْ تَسْبِيحٍ، كما أنَّ مِن صِفاتِ المؤْمِنِينَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعالى كَثِيرًا.. هذا على توظيف كل المعاني المحتملة في الآية. لأن في تَسْمِيَةِ ذِكْرِهِمْ بِالقَلِيلِ ثَلاثَةُ أقْوالٍ:

أحدُها: أنَّهُ سُمِّيَ قَلِيلًا، لِأنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، قالَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه، وقَتادَةُ.

والثّانِي: لِأنَّهُ رِياءٌ، ولَوْ كانَ لِلَّهِ، لَكانَ كَثِيرًا، قالَهُ ابْنُ عَبّاسٍ، والحَسَنُ.

والثّالِثُ: أنَّهُ قَلِيلٌ في نَفْسِهِ، لِأنَّهم يَقْتَصِرُونَ عَلى ما يَظْهَرُ، دُونَ ما يَخْفى مِنَ القِراءَةِ والتَّسْبِيحِ، ذَكَرَهُ الماوَرْدِيُّ.

٤٦٧٣. فيها ربط كبير بين الصلاة وبين الذكر، وبيان التلازم بينهما. وما شرعت الصلاة إلا لإقامة ذكر الله تعالى.

٤٦٧٤. فيها أن قلة ذكر الله تعالى من صفات المنافقين، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: " تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان، قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا ".

٤٦٧٥. تفيد أن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته.

٤٦٧٦. تفيد مع ما بعدها أن الإكثار من ذكر الله تعالى ثبات للعبد ووقاية له من الذبذبات التي تعصف في حياته.

قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

٤٦٧٧. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ إذ إنها في سياق تحقير المنافقين وتنفير الفريقين من المؤمنين والكفار من صحبتهم؛ لينبذهم الفريقان.

٤٦٧٨. تفيد أنَّ مِن شأن هؤلاء المنافقين التردد والحَيْرة والاضطراب، لا يستقرون على حال، فلا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين. لأنّ الذي يقصد من فعله إرضاء الناس لا يلبث أن يصير مذبذباً، إذ يجد في الناس أصنافاً متبايَنة المقاصد والشهوات.

٤٦٧٩. تفيد أن الإيمان طمأنينة وسكينة وراحة، والنفاق والشك حيرة واضطراب وتعاسة.

٤٦٨٠. في الآية أن الإنسان إذا فقد سبب الثبات في المبادئ وهو الإيمان لا يمكن أن يثبت على شيء من الأمور بل يظل متذبذبا.

٤٦٨١. في الآية أن الإيمان سبب الثبات على الحق كما أن النفاق سبب التذبذب.

٤٦٨٢. تفيد ضلال المنافقين وكفرهم.

٤٦٨٣. تفيد أن المنافقين مترددون بين المؤمنين والمشركين. لا مخلصين للإيمان ولا مصرحين بالكفر. وفى صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين — أي المترددة بين قطيعين – تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى ". وزاد الطبراني: لا تدري أيهما تتبع. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك. أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ ارجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر: هلم إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ والذي مكث الكافر.

٤٦٨٤. تفيد أن هذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهرا وباطنا، والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين وليختر أيهما أولى به، والله المستعان.

٤٦٨٥. في الآية أن الهداية والإضلال بيد الله وحده فلتطلب الهداية منه وحده لا شريك له.

٤٦٨٦. في الآية التخويف الشديد من الله ﷻ من أن نزيغ عن دينه؛ لأنه الهادي لمن يشاء ويضل من يشاء.

٤٦٨٧. تفيد أن من يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق، بسبب إيثاره الغواية على الهداية. فلن تجد له سبيلا يوصله إلى الصراط المستقيم. ففيها أن الهداية والضلال بيد الله سبحانه وحده ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٩٧].

٤٦٨٨. فيها: رد على القدرية، لقوله:﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾.

٤٦٨٩. تفيد ضرورة اللجوء إلى الله تعالى بسؤاله طلب الهداية والثبات على دينه.

٤٦٩٠. تفيد أن الله تعالى يعلم كل شيء، وأنه سبحانه يعلم من يستحق الهداية تفضلا وكرما منه، ومن يستحق الضلالة عدلا منه.

٤٦٩١. تفيد دقة مناسبة خاتمة الآية لفاتحتها؛ فبعد أن قال ﷻ في فاتحتها:﴿ مُّذَبْذَبِينَ ﴾ قال في خاتمتها:﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن من أبرز علامات إضلال الله تعالى للعبد حصول الذبذبة والحيرة والتردد في دينه ومعتقده؛ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ".

قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤].

٤٦٩٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فإن اتخاذ الكافرين من أخص أفعال المنافقين، وسبب من أعظم أسباب التذبذب.

٤٦٩٣. هذه آية جامعة للتحذير من موالاة الكافرين. فالتحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لإن المنافقين تظاهروا بالإيمان ووالوا الكافرين تحذير من الاستشعار بشعار النفاق، وتحذير من موالاة المنافقين الذين هم أولياء الكافرين، وتشهير بنفاق المنافقين،

وتسجيل عليهم أن لا يقولوا: كنّا نجهل أنّ الله لا يحبّ موالاة الكافرين. [ابن عاشور]. وليس حصر منع الولاية للكافرين في المقاتلين فقط بدليل عموم النهي عن اتخاذ عموم الكافرين أولياء من دون المؤمنين في العديد من الآيات. ومنها هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله عن إمام الحنفاء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ومن معه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وفرق بين البر والتعامل بالقسط وبين الولاية.

٤٦٩٤. فيها: من نقص وضعف الإيمان والتوكل على الله الاعتماد على الكفار لقوتهم وتوليهم من دون المؤمنين.

٤٦٩٥. في هذا النهى - أيضاً - توبيخ للمنافقين الذين ما زال الحديث متصلا عن قبائحهم ورذائلهم، وتحذير من مسالكهم الخبيثة حيث كانوا يتركون ولاية المؤمنين وينضمون إلى صفوف الكافرين من اليهود وغيرهم ويقولون - كما حكى القرآن عنهم -: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

٤٦٩٦. تفيد أن أوضح أدلة النفاق؛ وأظهر علامات المنافقين موالاة الكافرين.

٤٦٩٧. تفيد تحريم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٤٦٩٨. فيها أن تولي الكافرين سبيل لهلاك المؤمنين.

٤٦٩٩. فيها: أنه لا ولايتان؛ فإما ولاية الكفار أو ولاية المؤمنين.

٤٧٠٠. تفيد بدلالة المفهوم وجوب اتخاذ المؤمنين أولياء من دون الكفار.

٤٧٠١. فيها: علامة إيمان العبد ألا يوالي إلا من يحبه مولاه.

٤٧٠٢. فيها: أنت في أمان من عذاب الله تعالى ما استقمت على أمره.

٤٧٠٣. فيها: إشارة إلى كمال عدل الله ﷻ، وأنه لا يعاقب إلا بذنب.

٤٧٠٤. فيها: إشارة إلى خطر المعاصي.

٤٧٠٥. فيها: الاستفهام الإنكاري في﴿ أَتُرِيدُونَ ﴾ يوضح خطورة تولي الكفار دون المؤمنين، فمن مقتضيات الإيمان تولي المؤمنين لا الكفار.

٤٧٠٦. تفيد إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله:﴿ أَتُرِيدُونَ ﴾، ففيها رد على الجبرية.

٤٧٠٧. فيها: توجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال، أتجعلون. للمبالغة في التهويل من أمره؛ ببيان أنه مما لا ينبغي أن تصدر عن العاقل إرادته، فضلا عن صدوره في نفسه.

٤٧٠٨. فيها دليل على كمال عدل الله ﷻ، وأن الله لا يُعَذِّب أحدا قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانا مبينا.

٤٧٠٩. تفيد أن لله سلطانا وحجة على من خالف أوامره؛ لقوله تعالى:﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ ولهذا أرسل ﷻ الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع؛ قال تعالى في آية أخرى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥].

٤٧١٠. فيها أن سلطانه سبحانه وحجته ظاهرة لمن خالف أمره.

٤٧١١. فيها: عن ابن عباس قوله:﴿ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ قال: كل سلطان في القرآن حجة. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والسدي والنضر بن عربي.

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥].

٤٧١٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فإنهم لما اتخذوا الكافرين أولياء من أجل العزة والعلو، عاملهم بنقيض قصدهم فجعلهم في الدرك الأسفل في عذاب الهون والهوان - جهنم -.

٤٧١٣. فيها: الانتقال من النهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يؤذن بأنّ الذين اتّخذوا الكافرين أولياء معدودون من المنافقين، فإنّ لانتقالات جمل الكلام معاني لا يفيدها الكلام لما تدلّ عليه من ترتيب الخواطر في الفكر. [ابن عاشور].

٤٧١٤. فيها مع الآيات السابقة أنّ الله ﷻ لا يظلم أحداً، وأنّ المنافقين استحقوا هذا الجزاء نظير أعمالهم.

٤٧١٥. فيها: استخدام الأسلوب الخبري لإفادة تحقق هذا الوعيد وكأنه قد فرغ منه وانتهى.

٤٧١٦. جمعت الآية في الإفادة للإيضاح وقوة البيان بين العلة والحكم فالعلة هي نفاقهم والحكم كونهم في الدرك الأسفل من النار.

٤٧١٧. فيها: حين شارك المنافقون الكفار الكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة؛ استحقوا شر أنواع العذاب. [السعدي].

٤٧١٨. في الآية أن الإنسان كلما جمع مع الكفر ذنوب أخرى استحق العقوبة على جميعها وعلى قدر شدة هذه الذنوب ومقتها عند الله تتحدد دركته وشدة عذابه؛ فالمنافق قد جمع مع الكفر المخادعة لله ورسوله والمؤمنين والطعن في الدين من الداخل وتفريق صفوف المسلمين باسم الإسلام وغيرها؛ فالنفاق وراء كل بلية على المسلمين من الداخل ولذلك استحق المنافق الدرك الأسفل من النار بعدل الله فيه.

٤٧١٩. تفيد مصير أسفل الناس روحًا، وأخسهم نفسًا، وأسوأ العباد كفرًا.

٤٧٢٠. تفيد أنّ جهنم طبقات بعضها أسفل بعض.

٤٧٢١. في الآية دلالة واضحة على أن تفاوت أهل النار في الدركات يتبعه تفاوت فى شدة العذاب ومستوى الإحساس به.

٤٧٢٢. فيها: إثبات عذاب النار، وإثبات أن المنافق مآله للنار.

٤٧٢٣. تفيد إثبات النار، وشدة عذابها وأنها دركات، ولا تدل الآية على أنه لا يوجد غير المنافقين في الدرك الأسفل بل أثبتت أنهم في الدرك الأسفل وقد يكون هناك من هو معهم ولذلك ذكر كثير من المفسرين: الذين كفروا من أصحاب المائدة لقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا

عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وآل فرعون لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

٤٧٢٤. في الآية التحذير الشديد من النار، والدعوة إلى صدق الإيمان.

٤٧٢٥. فيها من التحذير والزجر للمؤمنين أن يصبحوا منافقين ما تنخلع له القلوب.

٤٧٢٦. فيها أنّ المنافقين لا أعوان لهم ولا أنصار يمنعونهم من عذاب الله يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾.

٤٧٢٧. فيها: من اعتز بالكفار يرتجي منهم النصر والمعونة، فلن يجد له يوم القيامة نصيرًا.

٤٧٢٨. تفيد الآية أن أهل الإيمان يتناصرون ويشفع بعضهم لبعض كما جاء في الحديث عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا خلص المؤمنون من النار يوم القيامة وأمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة له من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار قال: يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال: فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النار صورهم فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته إلى كعبيه فيخرجونهم فيقولون: ربنا أخرجنا من أمرتنا ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول من كان في قلبه مثقال ذرة قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠] قال: فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير قال: ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين قال: فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين ناس لم يعملوا لله خيرا قط قد احترقوا حتى صاروا حمما قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم عتقاء الله قال: فيقال لهم: ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو

رأيتم من شيء فهو لكم عندي أفضل من هذا قال: فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك قال: فيقول: رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبدا ".

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٤٦].

٤٧٢٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق الوعيد الشديد للمنافقين؛ جاء في هذه الآية استثناء من آمن من المنافقين واصطلح حاله، وأخلص دينه لله، والبشرى: أن من أصبحت هذه حاله فإنه مع المؤمنين..

٤٧٣٠. في الآية تأكيد على رحمة الله بعباده ولطفه بهم..

٤٧٣١. فيها أن التوبة والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص له من أعظم سمات المؤمنين الموجبة للأجر العظيم.

٤٧٣٢. فيها: اشترط – سبحانه – في إزالة العقاب عن المنافقين أموراً أربعة:

أولها: التوبة.

وثانيها: إصلاح العمل. فالتوبة عبارة عن ترك القبيح، وإصلاح العمل عبارة عن الإقدام على الحسن.

وثالثها: الاعتصام بالله. وهو أن يكون غرضه من التوبة وإصلاح العمل طلب مرضاة الله.

ورابعها: الإخلاص: بأن يكون طلب مرضاة الله خالصا وأن لا يمتزج به غرض آخر.

٤٧٣٣. تفيد الحث على التوبة من جميع الذنوب ولو كانت كفرا؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٤٧٣٤. فيها ترغيب بالتوبة واصلاح ما بينك وبين الله، وسلوك سبيل المؤمنين.

٤٧٣٥. تفيد أن الإصلاح بعد التوبة يدل على صدق التائب في توبته، ولذلك ورد الأمر بالإصلاح بعد التوبة في عدد من الآيات.

٤٧٣٦. تفيد أنه لا بد لمن أفسد أن يصلح ما أفسده؛ ولا تكفي التوبة المجردة؛ ولهذا فإن المبتدع لا تقبل توبته إلا بعد أن يعلن الرجوع عن إفساده ويدعو إلى الإصلاح.

٤٧٣٧. يفيد تقديم شرط الاصلاح -الذي يشتمل على حقوق العباد- بعد ذكر التوبة، على شرط الاعتصام والاخلاص- الخاصين لله تعالى-؛ إشارة لطيفة ودقيقة إلى أنه إذا اجتمع حق الله وحق العباد، قدم حق العباد، وذلك لأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحة.

٤٧٣٨. لما كان الترغيب لهم بأن يتركوا النفاق ويتوبوا منه، ناسب أن يأمرهم بالإخلاص وترك الرياء..

٤٧٣٩. تفيد الحث على إخلاص الدين لله رب العالمين.

٤٧٤٠. فيها: تأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله:﴿ وَأَصۡلَحُواْ﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما. [السعدي].

٤٧٤١. تفيد الحث على الاعتصام بالله ﷻ؛﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

٤٧٤٢. تفيد فضل التوبة وأثرها في صلاح الإنسان مهما بلغ من السوء.

٤٧٤٣. تفيد أن توبة المنافق مقبولة وكذا الزنديق والمبتدع على القول الراجح؛ ولكن لن يكونوا مع المؤمنين حتى يتصفوا بالصفات الأربعة المذكورة في الآية.

٤٧٤٤. في مجيء اسم الإشارة [أولئك] تكريم لهم، وللتنبيه على أنهم مستحقون لما سيذكر بعده.

٤٧٤٥. فيها إشارة إلى عظم جرم النفاق فإنه في حال التوبة منه لم يقل "فأولئك من المؤمنين" بل قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾.

٤٧٤٦. فيها مما يدل على عظم جرم النفاق فأنه لم يكتف بطلب مطلق التوبة حتى أضاف إلى ذلك طلب ما يبطل مادة النفاق من أصوله وهي:

- الإصلاح مقابل ما عرف عنهم من الإفساد مع ادعاء الإصلاح.

-الاعتصام بالله. لما عرف عنهم من الاعتصام وطلب العزة من إخوانهم الذين كفروا وموالاتهم لهم.

-اخلاص الدين لله وهذا هو الذي يقلع مادة التذبذب والرياء واتباع الأهواء المتضاربة والإلتفات للمخلوقين.

٤٧٤٧. فيها: المقصود بالمعية في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ التشريف والتكريم بصحبة الأخيار والتعبير "بسوف" لتأكيد وقوع الأمر المبشر به في المستقبل، وليس لمجرد التسويف الزماني. أي: وسوف يؤت الله المؤمنين ما وعدهم به إيتاء لا شك في حصوله ووقوعه. ونكر - سبحانه - الأجر ووصفه بالعظم، للتنويه بشأنه. ولإِفادة أنه أجر لا يكتنه كنهه.

٤٧٤٨. في الآية دلالة على أن النفاق كفر لأنه عندما يتوب سيكون مع المؤمنين أي قبل التوبة لم يكن منهم.

٤٧٤٩. في لفظ [مع] إيماء إلى فضيلة من آمن من أوّل الأمر ولم يَصِم نفسه بالنفاق لأنّ [مع] تدخل على المتبوع وهو الأفضل.

٤٧٥٠. تحمل الآية إرشادات عملية تفصيلية للمنافقين الذين نهضت ضمائرهم ولامتهم أنفسهم وفطرتهم السليمة وغلبت عقولهم على افئدتهم حتى يتخلصوا مما هم فيه من جرم، وليعلموا أنه جل جلاله قد جعل لهم مما هم فيه سبيلا.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾

[النساء: ١٤٧].

٤٧٥١. تفيد دقة المناسبة مع ما قبلها، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى المنافقين التائبين وما أنعم به عليهم من التوفيق والقبول لتوبتهم وإدخالهم في جملة المؤمنين الفائزين المأجورين، ولما كانت تلك نعما إلهية عظيمة جليلة، ذكر في هذه الآية أن هذا التوفيق والإنعام يقتضي شكرهم لله تعالى واستمرارهم على الإيمان الحق الخالص له سبحانه وتعالى.

٤٧٥٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ إذ يستأنف بيان سبب هذه الرحمة الواسعة وهذه الفرصة السانحة لكل خائن ومنافق لكي يتراجع عن نفاقه وخيانته، وأن الله لا يناله من عذابكم منفعة، ولا يناله من طاعتكم فائدة، ولا من تركها ضرر وفاقة.

٤٧٥٣. تفيد مع ما قبلها أن في تقديم الشكر على الإيمان إشارة لطيفة إلى أن التائب الشاكر على نعمة الهداية والقبول لتوبته، يزداد قوة وصلابة في الإيمان، واستمرارا عليه؛ وفي هذا مصداق لقول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧] ولهذا فمن وفقه الله للتوبة والقبول، وشكر الله تعالى على ذلك، أورثه الله تعالى مزيد إيمان في قلبه؛ فإن الله عز وجل يثيب الشاكرين بمزيد فضل وإنعام، وليس في الوجود نعمة ربانية أعلى وأكمل وأفضل من زيادة الإيمان بالله تعالى في قلب العبد. وهنا تظهر للمتأمل والمتدبر دقة التناسب وروعة التناسق في الآيات والكلمات والجمل القرآنية.

٤٧٥٤. فيها مع ما قبلها أن التوبة والإصلاح والاعتصام بالله وإخلاص الدين لله من أنواع الشكر لله. والإيمان بالله يقترن بهذه الأعمال الصالحة لحصول القبول.

٤٧٥٥. فيها كمال غنى الله تعالى، وأن الشكر والإيمان هما سبيل النجاة من عذاب الله.

٤٧٥٦. فيها: المراد بالاستفهام هنا النفي والإنكار على أبلغ وجه وآكده، والجملة الكريمة استئنافية مسوقة لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم ومعاصيهم لا لشيء آخر.

٤٧٥٧. تفيد إثبات الأفعال لله سبحانه وتعالى ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

٤٧٥٨. تفيد أن أفعال الله تعالى معللة بالحكم والمصالح التي يحبها الله ويرضاها وفي القيام بها سعادة العبد ونجاته. [ابن القيم].

٤٧٥٩. يفيد التعبير في هذا السياق ب[إن] المفيدة للشك والقلة غالبا في قوله تعالى: ﴿ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ إشارة لطيفة إلى قلة الشاكرين المقدرين لنعم الله تعالى؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وبالتالي يفيد السياق إشارة إلى أن من يعذبهم الله أكثر ممن يرحمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في الصحيح: " أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ".

٤٧٦٠. في الآية أن الإيمان والشكر يصرفان العذاب عن المؤمنين. قال قتادة: إن الله جل ثناؤه لا يعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا. ذكره ابن جرير الطبري بإسناده.

٤٧٦١. فيها: قدم الشكر على الإيمان، لأن الشكر سبب في الإيمان، إذ الإنسان عندما يرى نعم الله، ويتفكر فيها ويقدرها حق قدرها، يسوقه ذلك إلى الإيمان الحق، فالشكر يؤدى إلى الإيمان والإيمان متى رسخ واستقر في القلب ارتفع بصاحبه إلى أسمى ألوان الشكر وأعظمها. فعطف الإيمان على الشكر من باب عطف المسبب على السبب.

٤٧٦٢. تفيد فضل الشكر؛ والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه. ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢].

٤٧٦٣. تفيد أن الشكر: ضد الكفر، والكفر ستر النعمة، والشكر: إظهارها.

٤٧٦٤. فيها: سمى – سبحانه – ثواب الطائعين شكراً منه، للتنويه بشأن الطاعة، وللتشريف للمطيع، ولتعليم عباده أن يشكروا للمحسنين إحسانهم. فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول:

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم … لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب … هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه ضائع … إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا … فبفضله والحمد للرحمن

٤٧٦٥. فيها: قوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما سبق من الله – سبحانه – لا يعذب عباده الشاكرين المؤمنين.

٤٧٦٦. خُتِمت الآية المباركة ب﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ بما يتناسب مع ما جاء فيها من شرط:﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ فيتحقق العلم بالشكر والإيمان من العباد باسمه العليم، وأما اسمه الشاكر ليقابل شكر الشاكرين بشكر رب العالمين ليزيدهم من فضله. وقدم سبحانه شكره على علمه تقديم حض وحث على شكر المنعم بالإيمان، وما سواه من النعم العظيمة.

٤٧٦٧. تفيد إثبات هذين الاسمين لله سبحانه وتعالى وهما الشاكر والعليم.

٤٧٦٨. فيها أن الآيات الكريمة التي بدأت بقوله تعالى:﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ قد كشفت عن حقيقة النفاق والمنافقين في المجتمع الإسلامي، وأماطت اللثام عن طباعهم المعوجة، وأخلاقهم القبيحة، ومسالكهم الخبيثة، وهممهم الساقطة، ومصيرهم الأليم. وذلك لكي يحذرهم المؤمنون، ويتنبهوا إلى مكرهم وسوء صنيعهم. ثم نرى الآيات الكريمة خلال ذلك تفتح باب التوبة للتائبين من المنافقين وغيرهم وتعدهم إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله بالأجر العظيم. وأخيرا تجئ تلك اللفتة العجيبة المؤثرة العميقة. أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع الذي توعد الله به المنافقين، وبعد ذكر الأجر العظيم الذي وعد الله به المؤمنين. أخيرا بعد كل ذلك تجئ الآية

الكريمة التي تنفى بأبلغ أسلوب أن يكون هناك عذاب من الله لعباده الشاكرين المؤمنين، لأنه – سبحانه – وهو الغنى الحميد، قد اقتضت حكمته وعدالته أن لا يعذب إلا من يستحق العذاب، وأنه – سبحانه – سيجازى الشاكرين المؤمنين بأكثر مما يستحقون من خير عميم، ونعيم مقيم، وما أحكم قوله – تعالى –:﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ إنها الآية الكريمة التي تحض الناس على أن يقبلوا على ربهم بقلب سليم فيعبدوه حق العبادة، ويطيعوه حق الطاعة لينالوا ثوابه وجزاءه الحسن؛﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

٤٧٦٩. من هدايات السلف الصالح: قال مكحول: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه؛ فالأربع اللاتي له: فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله تعالى:﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ ﴾ وقال الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال تعالى:﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث؛ قال الله تعالى:﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى:﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ ﴾ [يونس: ٢٣].

قال تعالى:﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٨].

٤٧٧٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن ذكر الله ﷻ توبة المنافقين؛ نهى عن الجهر والاشاعة عن أفعالهم وأعمالهم السابقة في حال نفاقهم؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ والتوبة تجُبُّ ما قبلها؛ الا إذا وقع منهم ظلم لأحد بعينه؛ فإن من شروط توبتهم أن يصلحوا ما أفسدوا بظلمهم؛ كما تقدم في الآيات السابقة؛ وللمظلوم حق بأن يجهر بمظلمتهم ويرفع أمرهم للجهات المختصة لإنصافه منهم واسترداد حقوقه.

٤٧٧١. تفيد دقة المناسـبة مع ما قبلها؛ فلما كان السـياق من الآيات السـابقات متعلق بالظواهر والسرائر، والقول والعمل، والإخلاص والنفاق، ولما كان أيضاً متعلق بالتوبة وما يتبعها من إصلاح واعتصام وإيمان صادق، فيتصل السياق ليخبرنا تعالى أنه يبغض الجهر بالسوء من القول؛ ولذلك حالتان: الحالة العامة: وهي ضـرورة كتمان السـوء من القول على عمومه لما فيه من إشـاعة الغيبة والنميمة بين الناس، وأن الكتمان لوقائع السـوء بعمومها أمر مطلوب ما لم ينطوِ على ظلم لأحد، فإن كان في الجهر ظلم حقٍّ؛ فللمظلوم أن يجهر به سـعياً لإحقاق الحق واسترداد مظلمته. الحالة الخاصة: المتصلة بالسياق؛ وهي متعلقة بأهل النفاق وأحوالهم في المجتمع المسلم، فمن جهة لا يجوز لمن علم حال التائبين منهم أن يشيع أمرهم ويفضحهم بين المسلمين وبما تسـبب به نفاقهم من أذى على شـخصـه أو على عموم المسـلمين إلا إن كان فعلهم قد صـب ظلماً على مسـلمٍ بعينه، ومن جهة أخرى فلا يجوز توزيع تهمة النفاق على آحاد الناس حتى لو كانت كل مؤشرات الأفعال تدل على النفاق لأن الجهر بالسوء يجعل المجتمع المسلم في اضطراب وشك وريبة، وقد يعتدي بعض الجهلاء والدهماء على النفس والمال فتحدث الفوضى.

٤٧٧٢. تفيد دقة التناسـب وروعة التناسـق مع موضـوعات الآيات الكريمة السـابقة فبعد أن ذكرت تلك الآيات ما يقوم به أركان المجتمع الصـغير والكبير من الإصـلاح والقسـط والعدل؛ أشـارت هذه الآية إلى جواز أن يرفع المظلوم – سـواء كان من المجتمع الصـغير والكبير– صـوته عاليا ليسمعه أهل الإصلاح والقسط والعدل لينصفوه ممن ظلمه.

٤٧٧٣. تفيد مع ما قبلها من قوله تعالى:﴿إِن شَكَرْتُمْ ﴾ إشارة لطيفة إلى أنه ﷻ يحب الشكر وإعلانه، ويكره السوء وإعلانه.

٤٧٧٤. تفيد رقي وسمو وحسن تعاليم الشريعة الإسلامية، حيث تدعو أتباعها –أفراد وجماعات–، إلى عدم الجهر بالسـوء والمعايب والفضـائح إلا في حدود ضـيقة جدا، ولهذا فإن من علامات

المجتمعات الراقية عدم انتشار مثل هذه التصرفات الرعناء بين أفرادها، وفي هذا الصدد حرم الله ﷻ الغيبة، وجعلها من كبائر الذنوب، سواء تعلقت الغيبة بأفراد أو جماعات، وصدق الشاعر حين قال:

إذا رُمتَ أنْ تَحيا سَليماً مِن الأذى ... وَدينُكَ مَوفورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنٌ
لِسانُكَ لا تَذكُرْ بِهِ عَورَةَ امرئٍ ... فَكُلُّكَ عَوراتٌ ولِلنّاسِ ألسُنُ
وعَيناكَ إنْ أبدَتْ إليكَ مَعايِباً ... فَدَعها وَقُلْ يا عَينُ للنّاسِ أعيُنُ
وعاشِرْ بِمَعروفٍ وسامِحْ مَن اعتَدى ... ودَافع ولكن بالتي هِيَ أحسَنُ

٤٧٧٥. تفيد إثبات صفة المحبة لله تعالى.

٤٧٧٦. فيها: قوله:﴿ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ يشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله. ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

٤٧٧٧. تفيد أن قول السوء بدون مقتض يبغضه الله سواء أكان هذا القول سرا أو جهرا إلا أنه – سبحانه – خص الجهر بالذكر لأنه أشد فحشا، ولأنه أكثر جلبا للعداوة بين الناس، وأشد تأثيرا في إشاعة الجرائم في المجتمع، فإن كثرة سماع الناس للكلام السيئ وللقول الماجن، يغري الكثير منهم بترديد ما سمعوه، وبحكايته في أول الأمر بشيء من الحياء، ثم لا يلبث هذا الحياء أن يزول بسبب إلف الناس للكثير من الألفاظ النابئة، والأقوال السيئة. وأنت تقرأ القرآن فتراه في عشرات الآيات يأمر أتباعه بالمداومة على النطق بالكلام الطيب حتى تنتشر بينهم المحبة والمودة. ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والخلاصة أن الإسلام يحب لأتباعه أن يلتزموا النطق بالكلمة الطيبة، ويكره لهم أن يجهروا بالسوء من القول إلا في حالة وقوع ظلم عليهم، ففي هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه.

٤٧٧٨. تفيد أن ارتكاب الظلم من أقبح وأشنع السوء، ولهذا رخصت الشريعة الإسلامية للمظلوم بأن يجهر بالقول ويظهر سوءات الظالم من أجل ألا يقع أحد آخر في مصيدة هذا الظالم، ويسلم المجتمع من شره.

٤٧٧٩. يفيد إجازة الشريعة الإسلامية للمظلوم الجهر بالسوء من القول، إشارة لطيفة إلى أن نفسية الإنسان المظلوم المقهور في حاجة إلى متنفس من هذا الظلم والقهر الواقع عليه، وقد يضفي الجهر بالقول للمظلوم راحة نفسية مما يضيق ويجيش في صدره من هذا القهر والظلم، وفي هذا دلالة واضحة على أن الشريعة الإسلامية راعت المشاعر النفسية فلم تكبت النفوس المقهورة المظلومة، بل وسعت لها المجال بتشريع ما يدخل عليها السرور ويشفي لها الصدور من دون تعد أو تجاوز للحدود والأعراف.

٤٧٨٠. تفيد أن حديث المظلوم عن ظلم الظالم له أمام الآخرين تظلما أو تحذيرا لا إثم عليه، ولا يعد من الغيبة المحرمة وخصوصا إذا كان الظالم لا يقبل النصيحة.

٤٧٨١. فيها يجوز للمظلوم أن يخبر عن ظلم الظالم وأن يدعو عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، قال الحسن: دعاؤه عليه أن يقول: اللهم أعني عليه اللهم استخرج حقي منه، وقيل: إن شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه.

٤٧٨٢. تفيد النهي عن الدعاء بالشر على الغير، لقول بعض المفسرين أنها في معنى ذلك؛ قال الطبري: لا يحب الله تعالى أن يجْهر أحدُنا بالدعاء على أحد، وذلك عندهم هو "الجهر بالسوء إلا من ظلم"، يقول: إلا من ظلم فيدعو على ظالمه، فإن الله جل ثناؤه لا يكره له ذلك، لأنه قد رخص له في ذلك.

٤٧٨٣. استدل من أوجب الضيافة بهذه الآية؛ قالوا: لأن الظلم ممنوع منه فدل على وجوبها؛ وهو قول الليث بن سعد. والجمهور على أنها من مكارم الأخلاق. [القرطبي].

٤٧٨٤. فيها حث على الصبر وأنه مما يحبه الله تعالى، والاستثناء للإباحة والرخصة.. أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: " لا يحب الله أن يدعوَ أحدٌ على أحد، إلا أن يكون مظلومًا، فإنه قد أرخَص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله:﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ وإن صبر فهو خير له". وذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة للاستثناء المنقطع وعدَّ منها الاستثناء في هذه الآية، فقال رحمه الله: المثال الرابع عشر: قوله تعالى:﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ ﴾ المشهور ظلم مبني للمفعول، وعلى هذا ففي الاستثناء قولان: أحدهما: أنه منقطع أي: لكن من ظلم فإنه إذا شكا ظالمه وجهر بظلمه له لم يكن آثما، وتقدير الدخول في الأول على هذا القول ظاهر فإن مضمون "لا يحب كذا" أنه يبغضه ويبغض فاعله إلا من ظلم فإن جهره وشكايته لظالمه حلال له كما قال النبي ﷺ: "لَيُّ الواجِدِ يحل عِرضَه وعقوبَتَه" فعرضه شكاية صاحب الحق له، وقوله: ظلمني ومطلني ومنعني حقي، وعقوبته: ضرب الإمام له حتى يؤدي ما عليه في أصحّ القولين في مذهب أحمد وهو مذهب مالك. وقيل: هو حبسه. وقيل: هو استثناء متصل والجهر بالسوء هو جهره بالدعاء أن يكشف الله عنه ويأخذ له حقه أو يشكوا ذلك إلى الإمام ليأخذ له بحقه. وعلى هذا التقدير فيجوز فيه الرفع بدلا من أحد المدلول عليه بالجهر أي لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء إلا المظلوم، ويجوز فيه النصب بدلا من الجهر والمعنى: إلا جهر من ظلم. وقرئ من ظلم بالفتح وعلى هذه القراءة فمنقطع ليس إلا أي لكن الظالم يجهر بالسوء من القول".

٤٧٨٥. فيها أن الله سميع عليم لمن ظلم؛ فإن رفع شكواه بما وقع عليه من سوء فليعلم أن الله يعلم السر وأخفى، وفيها أن من أوقع السوء والظلم فليحذر مما يصيبه الله به سواء جهر المظلوم بما وقع عليه أو أسره.

٤٧٨٦. تفيد أن الله تعالى كان ولا يزال متصفا بصفاته لقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾، قال الطحاوي: ما زال بصفاته قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري.

٤٧٨٧. مناسبة ختامها بقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ لأن من الناس مَن يجهر بالسوء مدعيا وقوع الظلم عليه، فحذره سبحانه بأنه "سميع عليم"؛ يسمع قوله، ويعلم حاله على الحقيقة؛ وإن لحن في الحجة وزخرف في القول.

قال تعالى:﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

٤٧٨٨. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فحين قرر تعالى بغضه للجهر بالسوء؛ قرر هنا حبه للخير الظاهر وللعفو عند القدرة.

٤٧٨٩. اشتركت هذه الآية مع سابقتها في مفردة السوء والسوء هو كل فعل مؤذٍ يفعله عبد في آخر، كالظلم والاعتداء والوشاية وأكل المال بغير حق ونحو ذلك من أعمال السوء بحق المسلمين وهذه من الحقوق القائمة على المشاحّة، في حين كان الذنب هو التقصير أو الاعتداء فيما بين العبد وبين ربه وهي قائمة على المسامحة ففي الوقت الذي يملك فيه المظلوم حقه في الجهر بما وقع عليه من سوء ليأخذ حقه ممن ظلمه فإنه تعالى يقرر أن الأحب إليه هو العفو حتى مع حصول القدرة على إيقاع العقوبة.

٤٧٩٠. فيها مع ما قبلها: قد يظهر من المنافق التائب أعمال سوء أدت لظلم أحد أفراد المجتمع المسلم، فحين يتبين للمظلوم توبة الظالم ورجوعه عما كان عليه من نفاق فإن مما يستحب تجاه هذا التائب هو العفو تاليفاً لقلبه وإصلاحاً لحاله وابتغاء لما عند الله من أجر

العفو والصفح، فإن أبى إلا أن يجهر بما وقع عليه من سوء وآثر القصاص والعقوبة فله في ذلك الحق ولا يجوز لأحد إرغامه على العفو.

٤٧٩١. من المناسبة هنا أنه ﷻ نَدَب إلى العفو، ومهّد له بأنَّ المؤمن: إمَّا أن يُظهر الخير، وإمَّا أن يُخفيه، وكذلك مع الإساءة: إما أن يظهرها في حال الانتصاف من المسيء، وإما أن يعفو ويصفح، والعفوُ أفضلُ؛ فإن من صفاته تعالى العفو عن عباده مع قدرته عليهم.

٤٧٩٢. اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق وخُلق مع الخَلق. والذي يتعلق بالخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم. فقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم. وقوله:﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر. [الوسيط في التفسير].

٤٧٩٣. فيها: قوله تعالى:﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ هذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.﴿ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته. وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقُّه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية. لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك؛ بأن أحالنا على معرفة أسمائه وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص. [السعدي رحمه الله تعالى].

٤٧٩٤. الآية الكريمة تدعو الناس إلى الإكثار من فعل الخير سواء أكان سرا أو جهرا، كما تدعو إلى العفو عن المسيئين إليهم.

٤٧٩٥. تفيد فضل إظهار الخير. خصوصا إذا كان في ذلك مصلحة كالاقتداء وغيره، وأن هذا لا ينافي الإخلاص.

٤٧٩٦. فيها أن إظهار الخير وإخفاؤه كلاهما عمل صالح.

٤٧٩٧. في الآية دلالة على رقابة الله التامة وإحصاء كل خير وشر يصدر من الإنسان مهما صغر.

٤٧٩٨. في الآية إيجاز؛ في ذكر كل شيء صالح بكونه خير وكل شيء غير صالح بأنه سوء.

٤٧٩٩. فيها الإشارة إلى إظهار الخير والاهتمام به إن كان سيترتب عليه خير آخر ويظهر هذا من تقديم إبدائه فالخير الظاهر الذي يجعل الغير يلتفت إليه ويحرص عليه خير من خير خفي لا يتجاوز نفعه النفس أو الدائرة الصغيرة.

٤٨٠٠. فيها الإشارة إلى تنوع طرق الخيرات وكثرتها فالعاقل من ضرب بسهم في جميع أنواعها كالصديق رضي الله عنه.

٤٨٠١. الجملة الفعلية تبدوا، وتخفوا، وتعفوا دالة على تجدد هذه الأفعال واستمرارها المستفاد من الفعل المضارع، وكل ما فعلها الإنسان جاءه العفو من الله.

٤٨٠٢. التنكير في قوله: ﴿ خَيْرًا، سُوٓءٍ ﴾ دال على التقليل؛ ليدل عليه وعلى كل ما هو أعلى منه من عمل الخير أو غيره.

٤٨٠٣. التنكير في ﴿ خَيْرًا ﴾ للتقليل أو الوحدة ففيه دلالة على الحرص على الخير وإن قلَّ أو كان واحدا فإن ثمرته خير عظيم من رب كريم.

٤٨٠٤. فيها اعتبار العفو بمنزلة الخير.. وهو وإن كان داخلا في عموم الخير إلا إن تخصيصه بالذكر فيه مزيد تنويه وفضل..

٤٨٠٥. فيها الإشارة إلى كرم الله جل وعلا ولطفه بعباده عند اقتراف الزلات.

٤٨٠٦. فيها بيان أن الجزاء من جنس العمل فمن عفى عنه إخوانه فإن الله جل وعلا سيعفو عنه.

٤٨٠٧. فيها: يكرس ربنا جل جلاله قيمة العفو عند القدرة؛ فلا أقدر منه تعالى على عقوبة أعدائه ولكنه دائما ما يعفو برغم قدرته؛ ولا شك أن العفو مع القدرة أعلى درجات العفو وأرقاها، وهي أعلى من أن تعفو وأنت مسلوب القدرة على تحقيق العقوبة.

٤٨٠٨. فيها إشارة إلى أنه ينبغي التعلق والتخلق بصفات الله تعالى فالله جل وعلا عفو يحب العفو فينبغي على المسلم أن يكون كذلك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥١].

٤٨٠٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فهنا يتحول الخطاب الإلهي إلى الحديث عن أهل الكتاب بطوائفهم وأديانهم المختلفة وهم أبرز حلفاء المنافقين الذين يوالونهم من دون المؤمنين والذين سبق ذكرهم في السياق، وبذلك يبرز لنا موضع اتصال السياق وترابطه ببعضه البعض.

٤٨١٠. تفيد أن الأنبياء هم سلسلة متصلة في سياق هداية الله لخلقه وحمل أمانة الوحي إلى البشرية، وأن الكفر بأي منهم حربٌ على الله وكفر به لا يعذر صاحبه أبداً.

٤٨١١. فيها: وجه كونهم كافرين – حتى بما زعموا الإيمان به– أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به. فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها.

٤٨١٢. تفيد أن كثيرا من الناس ينساقون وراء أهوائهم، دون حجة أو برهان من الله تعالى، حيث يحملهم الهوى بأن يؤمنوا ببعض الرسل دون البعض.

٤٨١٣. تفيد مكانة الإيمان بالرسل وأنه من أركان الإيمان العظيمة، وأن من أعظم الكفر والضلال التفريق بين رسل الله والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم.

٤٨١٤. يفيد التعبير بالإرادة في قوله تعالى:﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ دون أن يقول: [ويفرقون بين الله ورسله] وذلك للإشعار بأن التفريق بين الله ورسله أمر صعب المنال، وأنهم لم يبلغوا ما أرادوا من ذلك، ولا زالوا يحاولونه.

٤٨١٥. تفيد الرد على الجبرية؛ لأنه اثبت لهم إرادة واختيار في قوله:﴿ وَيُرِيدُونَ ﴾.

٤٨١٦. تفيد أن الكفر ببعض الرسل كفر بالجميع؛ لقوله تعالى:﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾.

٤٨١٧. تفيد رداً على دعاة التقارب بين الأديان الذين يريدون أن يتخذوا من مسلك التقارب سبيلا للنجاة من المشاكل والمصائب التي تعصف بهم؛ ولكن أنَّى لهم ذلك؛ لقوله تعالى:﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

٤٨١٨. تفيد محبة الرسل والأنبياء واتباعهم لما لهم من شرف ومكانة عند الله ﷻ.

٤٨١٩. تفيد كفر اليهود والنصارى، فإنهم إن زعموا الإيمان بالرسل جميعا فكفرهم بمحمد ﷺ كفر بالجميع، ولذا قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده لا يسمع بي في هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار ". رواه مسلم.

٤٨٢٠. تفيد إثبات وجود النار الآن لقوله:﴿ وَأَعۡتَدۡنَا ﴾ ففيها رد على المعتزلة.

٤٨٢١. فيها: وصف العذاب بالعذاب المهين يقابل سعي الكافرين والمنافقين في الدنيا للعزة بتولي بعضهم بعضاً فيكون عذابهم نقيض ما يسعون إليه فتكون نتيجة جرمهم عكس ما كانوا يشتهون.

٤٨٢٢. تفيد التخويف من عذاب الله ﷻ وأنه مع شـدته وايلامه معه الإهانة والتوبيخ المؤلم للنفوس، فجمع بين تعذيب الأبدان والقلوب والأرواح والنفوس.

٤٨٢٣. الإظهار في موضع الاضمار يدل على أن الكفر هو أعظم أسباب العذاب المهين.

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١٥٢].

٤٨٢٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلَمّا بَيّنَ ﷻ ما أعَدَّ لَهُمْ؛ بَيّنَ ما أعَدَّ لِأضْـدادِهِمْ مِن أهْلِ طاعَتِهِ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أيْ: الَّذِي لَهُ الكَمالُ والجَمالُ؛ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ ولَمّا جَمَعُوهم في الإيمانِ ضِـدَّ ما فَعَلَ أهْلُ الكُفْرانِ؛ صَـرَّحَ بِما أفْهَمَهُ؛ فَقالَ: ﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ﴾ أيْ: في اعْتِقادِهِمْ؛ ﴿بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أيْ: لَمْ يَجْعَلُوا أحَدًا مِنهم عَلى صِفَةِ الفُرْقَةِ البَلِيغَةِ مِن صاحِبِهِ؛ بِأنْ كَفَرُوا بِبَعْضٍ؛ وآمَنُوا بِبَعْضٍ - كَما فَعَلَ الأشْقِياءُ -؛ والتَّفْرِقَةُ تَقْتَضِي شَيْئَيْنِ فَصاعِدًا؛ و"أحَدٍ"؛ عامٌّ في الواحِدِ؛ المُذَكَّرِ؛ والمُؤَنَّثِ؛ وتَثْنِيَتِهِما؛ وجَمْعِهِما؛ فَلِذَلِكَ صَحَّ التَّعْبِيرُ بِهِ؛ بِمَعْنى: بَيْنَ اثْنَيْنِ؛ أوْ جَماعَةٍ؛ وكَأنَّهُ اخْتِيرَ لِلْمُبالَغَةِ بِأنْ لَوْ أنَّ الواحِدَ يُمْكِنُ فِيهِ التَّفْرِقَةُ؛ فَكانَ الإيمانُ بِالبَعْضِ دُونَ البَعْضِ كُفْرًا؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أيْ: العالُو الرُّتْبَةِ؛ في رُتَبِ السَّـعادَةِ. ولَمّا كانَ المُرادُ تَأْكِيدَ وعْدِهِمْ؛ وكانَ المُشاهَدُ فِيهِ غالِبًا التَّأخُّرَ؛ قالَ: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ﴾ أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ؛ بِوَعْدٍ لا خُلْفَ فِيهِ؛ وإنْ تَأخَّرَ؛ فالمُرادُ تَحْقِيقُهُ؛ لا تَحْقِيقُ تَأخُّرِهِ؛ ولَكِنَّهُ أتى بِالأداةِ الَّتِي هي أكْثَرُ حُرُوفًا؛ وأشَـدُّ تَنْفِيسًـا؛ لِأنَّ هَذا السِّياقَ لِأهْلِ الإيمانِ المُجَرَّدِ؛ الشّـامِلِ؛ لِمَن لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ؛ ولِذا أضـافَ الأُجُورَ إلَيْهِمْ؛ وخَتَمَ بِالمَغْفِرَةِ؛ لِئَلّا يَحْصُـلَ لَهم يَأْسٌ؛ وإنْ طالَ المَدى؛ ﴿أُجُورَهُمۡۚ﴾ أيْ: كامِلَةً بِحَسَـبِ نِيّاتِهِمْ؛ وأعْمالِهِمْ. ولَمّا كانَ الإنْسـانُ مَحَلَّ النُّقْصـانِ قالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أيْ: الَّذِي لا يَبْلُغُ الواصِفُونَ كُنْهَ ما لَهُ مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ ﴿غَفُورٗا﴾ لِما يُرِيدُ مِنَ الزَّلّاتِ؛ ﴿رَّحِيمٗا﴾ أيْ: بِمَن يُرِيدُ إسْعادَهُ بِالجَنّاتِ. [نظم الدرر للبقاعي].

٤٨٢٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ إذ يستأنف تبارك اسمه التفريق بين فئتين أولهما الكافرين ومن معهم من المنافقين ويقرر سـبب كفرهم برفضـهم بعض أنبياء الله والتفريق بينهم، ثم يعطف عليها هذه الآية التي تبين بأن المؤمنين بالله ورسـله جميعا بلا تفريق ولا اسـتثناء لأحد منهم - وهم أتباع محمد ﷺ - فسـوف يؤتيهم أجورهم وفق أعمالهم، ذلك أن فئة الكافرين لا ينتفعون بعمل فقد حبطت أعمالهم بكفرهم، أما المؤمنون فيتفاوتون في الأجور، فاجتيازهم لحافة الفصل

بين الإيمان والكفر بالتسليم بكافة الأنبياء بعد الايمان بالله تعالى فيأتي التفاضل بينهم في قدر كل منهم وقدر عمله وميزان حسناته وسيئاته.

٤٨٢٦. تفيد أن القرآن الكريم مثاني؛ إذا ذكر شيئا ذكر ضده.

٤٨٢٧. أتى باسم الإشارة هنا تعظيما لهم، وجاءت بصيغة البعيد لعلو منزلتهم.

٤٨٢٨. تفيد وجوب الإيمان بالله وأنه أصل الإيمان لتقديمه.

٤٨٢٩. فيها: التعبير بسوف لتأكيد الأجر الذي وعدهم الله به، وللدلالة على أنه كائن لا محاولة وإن تراخى. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد قابلت بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين؛ ليقلع الناس عن الكفر والمعاصي، ويستجيبوا لأوامر الله لينالوا رضاه.

٤٨٣٠. فيها: إشارة إلى: خطر السيئات، وإن وجد الأجر والحسنات؛ ووجهه: أنه تعالى ذكره لم يكتف بقوله:﴿ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ ﴾ فالأجر مضمون، وليس الشأن في ذات الأجر فحسب، إنما الشأن في مغفرة ما سلف؛ ولذا قال:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يغفر لهم ويرحمهم. وليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجى كيف نجى [لكثرة الهالكين].

٤٨٣١. سمى الله تعالى ثواب الأعمال أجوراً تكرما وفضلا منه ﷻ.

٤٨٣٢. تفيد أن أجر الأمة مضاعف بإيمانهم بجميع الرسل.

٤٨٣٣. تفيد إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى وهما الغفور والرحيم. وترشد إلى التوسل بهما في الدعاء لقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

٤٨٣٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلَمّا أخْبَرَ [تَعالى] بِما عَلى المفَرِّقِينَ بَيْنَ اللهِ ورُسُلِهِ؛ وما لِأضْدادِهِمْ؛ أتْبَعَهُ بَعْضَ ما أرادُوا بِهِ الفُرْقَةَ؛ وذَلِكَ أنَّ كَعْبَ بْنَ الأشْرَفِ؛ وفِنْحاصَ بْنَ عازُورا؛ مِنَ اليَهُودِ؛ قالا كَذِبًا: إنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَأْتِنا بِكِتابٍ جُمْلَةً مِنَ السَّماءِ؛ نُعايِنُهُ حِينَ يَنْزِلُ؛ كَما أتى مُوسى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - بِكِتابِهِ كَذَلِكَ؛ فَأنْزَلَ اللهُ [تعالى] - مُوَبِّخًا لَهم على هَذا الكَذِبِ؛ مُشِيرًا إلى كَذِبِهِمْ فِيهِ؛ مُوهِيًا لِسُؤالِهِمْ؛ مُحَذِّرًا مِن غَوائِلِهِ؛ مُبَيِّنًا لِكُفْرِهِمْ بِاللهِ ورُسُلِهِ -: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ ولَمّا كانَتْ هَذِهِ مِن أعْظَمِ شُبَهِهِمُ الَّتِي أضَلُّوا بِها مَن أرادَ اللهَ؛ وذَلِكَ أنَّهم رَأوْا أنَّ هَذا الكِتابَ المبِينَ أعْظَمُ المعْجِزاتِ؛ وأنَّ العَرَبَ لَمْ يُمْكِنْهُمُ الطَّعْنُ فِيهِ؛ عَلى وجْهٍ يُمْكِنُ قَبُولُهُ؛ فَوَجَّهُوا مَكايِدَهم نَحْوَهُ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ؛ ونَحْوِها؛ زَيَّفَها - سُبْحانَهُ وتَعالى - أتَمَّ تَزْيِيفٍ؛ وفَضَحَهم بِسَبَبِها غايَةَ الفَضِيحَةِ؛ وزادَ - سُبْحانَهُ - في تَبْكِيتِهِمْ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارَةً إلى أنَّ العالِمَ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَكُونَ أبْعَدَ النّاسِ مِنَ التَّمْوِيهِ؛ فَضْلًا عَنِ الكَذِبِ الصَّرِيحِ؛ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أيْ: خاصًّا بِهِمْ؛ بِإثْباتِ أسْمائِهِمْ؛ ﴿كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وما أوْهَمُوا بِهِ في قَوْلِهِمْ هَذا؛ مِن أنَّ مُوسى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - أتى بِالتَّوْراةِ جُمْلَةً كِذْبَةٌ تَلَقَّفَها مِنهم مَن أرادَ اللهُ [تعالى] مِن أهْلِ الإسْلامِ؛ ظَنًّا مِنهم أنَّ اللهَ - تَبارَكَ وتَعالى - أقَرَّهم عَلَيْها؛ ولَيْسَ كَذَلِكَ - كَما يُفْهِمُهُ السِّياقُ كُلُّهُ؛ ويَأْتِي ما هو كالصَّرِيحِ فِيهِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣] الآيَةَ؛ كَما سَيَأْتِي بَيانُهُ؛ واليَهُودُ الآنَ مُعْتَرِفُونَ بِأنَّها لَمْ تَنْزِلْ جُمْلَةً؛ وقالَ الكَلْبِيُّ في قِصَّةِ البَقَرَةِ الَّتِي ذَبَحُوها لِأجْلِ القَتِيلِ الَّذِي تَدارَؤُوا فِيهِ: وذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ القَسامَةِ في التَّوْراةِ. ولَمّا كانَ هَذا مِمّا يَسْتَعْظِمُهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ أشارَ إلى ذَلِكَ؛ مُبَيِّنًا - تَسْلِيَةً لَهُ ﷺ أنَّ عادَتَهُمُ التَّعَنُّتُ؛ ودَيْدَنَهُمُ الكُفْرُ؛ وأنَّهم أغْرَقُ النّاسِ في غِلَظِ الأكْبادِ؛ وجَلافَةِ الطِّباعِ؛ وأنَّ أوائِلَهم تَعَنَّتُوا عَلى مَن يَدَّعُونَ الإيمانَ بِهِ الآنَ؛ وأنَّهم عَلى شَرِيعَتِهِ؛ وأحَبُّ شَيْءٍ فِيهِ ما أراهم مِن تِلْكَ الآياتِ العِظامِ؛ الَّتِي مِنها اسْتِنْقاذُهم مِنَ العُبُودِيَّةِ؛ بَلْ مِنَ الذَّبْحِ؛ وأنَّ ذَلِكَ تَكَرَّرَ مِنهُمْ؛ مَعَ ما يُشاهِدُونَهُ مِنَ القَوارِعِ؛ والعَفْوِ؛ فَقالَ: ﴿فَقَدْ﴾ أيْ: إنْ تَسْتَعْظِمْ ذَلِكَ؛ فَقَدْ ﴿سَأَلُوا۟﴾ أيْ: آباؤُهُمْ؛ أيْ: وهم عَلى نَهْجِهِمْ في التَّعَنُّتِ؛ فَهم شُرَكاؤُهُمْ؛

﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ لِغَيْرِ داعٍ؛ سِوى التَّعَنُّتِ؛ ﴿ أَكۡبَرَ ﴾ أيْ: أعْظَمَ؛ ﴿ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أيْ: الأمْرَ العَظِيمَ الَّذِي واجَهُوكَ بِهِ؛ بَعْدَ ما أظْهَرْتُ مِنَ المعْجِزاتِ ما أوْجَبْنا عَلى كُلِّ مَن عَلِمَها الإيمانَ بِكَ؛ والتَّأْدِيبَ مَعَكَ؛ ثُمَّ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ ﴾ أيْ: المِلكَ الأعْلى؛ الَّذِي لا شَبِيهَ لَهُ؛ وتَقْصُرُ العُقُولُ عَنِ الإحاطَةِ بِعَظَمَتِهِ؛ ﴿ جَهۡرَةٗ ﴾ أيْ: عَيانًا؛ مِن غَيْرِ سِتْرٍ؛ ولا حِجابٍ...

٤٨٣٥. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فبعد أن ذكر الله ﷻ تفريق الكفار بين الله ورسله المستلزم للتفريق بين جميع الرسل؛ أشار في هذه الآية إلى تفريق الكفار بين كتب الله تعالى؛ لأن سؤالهم النبي ﷺ بإنزال كتاب آخر لهم غير القرآن الكريم يشعر بأنهم يفرقون بين كتب الله تعالى المنزلة لهداية البشرية جميعا؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

٤٨٣٦. تفيد مع ما قبلها بطلان استدلال المعتزلة على استحالة رؤية الله تعالى وامتناعها على الإطلاق، ووضوح فساد مذهبهم وبطلانه يغني عن الرد عليهم، وقد أرعد وأبرق الزمخشري في استدلاله بهذه الآية على فاسد مذهبه، وادعى على مجيزي الرؤية بما هو به أحقّ.

٤٨٣٧. التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ﴾ فيها دلالة على تكرار أسئلتهم وتجددها المرة تلو الأخرى.

٤٨٣٨. عبر بالمضارع في قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ﴾ لقصد استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال، حتى لكأن السامع يراهم، وللدلالة على تكرار أسئلتهم وتجددها المرة تلو الأخرى بدون حياء أو خجل.

٤٨٣٩. فيها: أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم. ومضاهين لهم في التعنت. أي: أن حاضر هؤلاء اليهود الذين يعيشون معك يا محمد كماضي آبائهم الأقدمين، وأخلاق الأبناء صورة من

أخلاق الآباء، وجميعهم لا يبغون من سؤالهم الاهتداء إلى الحق وإنما يبغون إعنات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والإساءة إليهم.

٤٨٤٠. تفيد سفاهة عقول أهل الكتاب حيث علموا بإنزال كتاب سماوي هو [القرآن الكريم]، فسألوا عن إنزال كتاب سماوي آخر عنادا واستكبارا، ولو أنهم أرادوا الإيمان والهداية لآمنوا واهتدوا بالقرآن الكريم، وهو كتاب سماوي منزل من عند الله.

٤٨٤١. تفيد أن من الجهل والقبح والدناءة بمكان؛ أن تكون متصفا بوصف معظم مبجل، وتسأل ما يناقض هذا الوصف ويخرمه؛ فهؤلاء أهل الكتاب لم يكتفوا بكتابهم الدال على صدق النبي محمد ﷺ، بل سألوه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء ليعلموا صدقه، فيا له من جهل وقبح ودناءة؛ ولهذا لم يقل ﷻ: [يسألك اليهود والنصارى] بل أشار ﷻ إلى ما يبين جهلهم ودناءتهم من خلال وصفهم بأهل الكتاب؛ وذلك للدلالة على أنه لا ينبغي أن يصدر هذا السؤال من أشخاص موصوفين بأنهم أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤٨٤٢. يفيد إسناد السؤال إلى جميعهم مع أن السؤال صادر من بعضهم؛ وذلك في قوله تعالى:﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وذلك للإشارة إلى جواز أن ينسب الفعل الذي وصل إلى مرحلة [الظاهرة] إلى جميع القوم، سواء ممن صدر منهم أو ممن رضوا به ولم يعترضوا عليه.

٤٨٤٣. في الآية إشارة إلى أن سؤالهم إنما هو على سبيل التعجيز لا الاستدلال والاهتداء بدليل قوله تعالى:﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

٤٨٤٤. تفيد تسلية النبي ﷺ والدفاع عنه؛ وبيان ذلك: أن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ بعد ذلك السؤال الذي سيلحقه منه هم وغم وحرج في قلبه إن لم يفعله:﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: لا يكن في صدرك حرج ولا تعجب من سؤالهم؛ فإن ذلك شنشنة قديمة لأسلافهم مع رسولهم.

٤٨٤٥. تفيد أن بني إسرائيل آذوا النبي ﷺ كما آذوا من قبله موسى عليه السلام؛ لقوله:﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

٤٨٤٦. فيها تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى وسوء أدب.

٤٨٤٧. تفيد عظم ما لاقاه الأنبياء والمرسلون - عليهم الصلاة والسلام - من أذى وصدود وتكذيب مما فيه تسلية ومواساة للنبي ﷺ، وتصبير له على من ردّ دعوته.

٤٨٤٨. تفيد فضل مَن آمن بالنبي ﷺ وصدَّقة بلا تردّد وطلب بينات.

٤٨٤٩. فيها التسلية لمن ابتلي بشيء من البلاء بذكر ما حصل لمن ابتلي بأشد مما وقع له..

٤٨٥٠. تفيد النهي عن اسئلة التعنت والتعجيز والاقتراح؛ فإنها من أسباب الهلاك، كما قال النبي ﷺ: "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على انبيائهم". رواه مسلم.

٤٨٥١. تفيد أهمية النظر في التاريخ، والاعتبار به، والاستدلال ببعض الحالات على أحوال سابقة ولاحقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ ويشهد لهذا ما قاله النبي ﷺ لأصحابه عندما قالوا له: "اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّهَا السُّنَنُ" اللَّهُ أَكْبَرُ، قُلْتُمْ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ".

٤٨٥٢. في الآية دليل لأهل السنة على أن الله تعالى لا يرى في الدنيا كما قال ﷺ: " إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا ".

٤٨٥٣. تفيد أن سؤال العبد أن يرى الله جهرة من أكبر العدوان والظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ ولا يعارض هذا سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه، في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وذلك لأن هناك فرقا بين قوله عليه السلام، وقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فعبارة﴿جَهۡرَةٗ﴾ لها إشارات لطيفة إلى أنهم سألوا ذلك تحديا وعنادا واستكبارا؛ لا شوقا ومحبة كما سأل موسى عليه السلام.

٤٨٥٤. تفيد مثالا لنوع التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حيث قال ابن عباس رضي الله عنه: إنهم إذا رأوا الله فقد رأوه، إنما قالوا جهرة: أرنا الله.

٤٨٥٥. يفيد تعبيرهم في سياق طلب الرؤية بـ﴿ جَهۡرَةٗ ﴾ الذي هو من قبيل المسموعات، دون أن يقولوا [أرنا الله عيانا] الذي هو من قبيل المرئيات والمبصرات، إشارة إلى أنهم سألوا موسى عليه السلام رؤية الله عيانا وسماع كلامه جهرة، فأقام جهرة مقام طلب سماع الكلام، وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء المتعنتين المعاندين طلبوا لأنفسهم في الدنيا منزلة أعظم من منزلة موسى عليه السلام كليم الرحمن، ولهذا عوقبوا بعذابي الرجفة والصاعقة.

٤٨٥٦. تفيد بيان تعلق بني إسرائيل وحبهم للماديات والمحسوسات.

٤٨٥٧. تفيد أن بني إسرائيل سألوا رؤية الله عز وجل عيانا بيانا في الدنيا.

٤٨٥٨. تفيد أنَّ الذَّنب كلَّما عظُم كان أسرعَ للعقوبة؛ لقوله: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ﴾ والفاء تدلُّ على الترتيب والتعقيب؛ ولهذا أخذتْهم الصَّاعقةُ في الحال، فماتوا جميعًا.

٤٨٥٩. تفيد بيان عظيم قدرة الله تعالى؛ حيث أهلك هؤلاء المتعنتين المعاندين جميعا مرة أخرى بالصاعقة؛ وهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

٤٨٦٠. تفيد خطورة التلفظ بالأقوال الكفرية، وأن منها ما يستجلب العذاب العاجل من الله تعالى؛ لما تفيده الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ﴾.

٤٨٦١. تفيد إثبات الأسباب وأن لها أثرا في حصول المسببات؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب ظلمهم.

٤٨٦٢. تفيد أن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فأخذه سبحانه وتعالى هؤلاء المتعنتين بالصاعقة ليس مجرد مشيئة منه فحسب، بل لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوقعوها في الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ﴾.

٤٨٦٣. تفيد أن الصاعقة من أنواع العذاب والإهلاك الذي عذب الله تعالى به بعض الناس، والصاعقة – كما يقول ابن جرير –: كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل، صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفة.

٤٨٦٤. فيها: الظلم هو المحكي في سورة البقرة من امتناعهم من تصديق موسى إلى أن يروا الله جهرة، وليس الظلم لمجرّد طلب الرؤية؛ لأنّ موسى قد سأل مثل سؤالهم مرّة أخرى: حكاه الله عنه بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٤٨٦٥. في الآية ان من أسباب نزول عذاب الله الظلم.

٤٨٦٦. فيها: قوله:﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ للتراخي الرتبي؛ لأن اتخاذهم العجل إلهاً أعظم جرما مما حكاه الله عنهم من جرائم قبل ذلك.

٤٨٦٧. تفيد أن حذف ما يعلم من السياق جائز، فاتخاذهم العجل يقصد به اتخاذه معبودا من دون الله تعالى.

٤٨٦٨. تفيد خطر الافتتان بالأصنام والأوثان فهؤلاء مع ما رأوا من البينات فتنوا بالعجل وعبدوه؛ ولذلك قال إبراهيم عليه السلام:﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ – ٣٦] قال إبراهيم النخعي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم.

٤٨٦٩. تفيد بيان افتتان بعض البشر بجنس البقر فهؤلاء عبدوا عجلا جسدا له خوار، وبقيت عبادة البقر إلى زماننا هذا كما في الهند مثلا، "إنها السنن".

٤٨٧٠. تفيد بيان عظيم سفه بني إسرائيل وقوة عنادهم وشديد استكبارهم، فبعد كل هذه الآيات البينات من الله تعالى، اتخذوا العجل إلها من دون الله تعالى.

٤٨٧١. فيها: قوله:﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ بيان لفرط ضلالهم وانطماس بصيرتهم، لأنهم لم يعبدوا العجل عن جهالة، وإنما عبدوه من بعد ما وصلت إلى أسماعهم وعقولهم الدلائل الواضحة وعلى وحدانية الله، وعلى أن عبادة العجل لا يقدم عليها إنسان فيه شيء من التعقل وحسن الإدراك.

٤٨٧٢. تفيد أن المذنب عن علم أشد وأعظم من المذنب بغير علم؛ بل إن المذنب بغير علم لا أثر لذنبه مطلقا على القول الراجح؛ لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾.

٤٨٧٣. تفيد أن الإنسان مهما كان عالما لا يأمن الوقوع في الكفر والإشراك بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

٤٨٧٤. تفيد أن العبد يعذر بالجهل، ولا يعذر بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

٤٨٧٥. في الآية أن حجج الأنبياء واضحة بينة والكفر هو الجحود بها مع علمهم ويقينهم بصدقها.

٤٨٧٦. تفيد أنَّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو حُجَّة ظاهرة لا تَخفى إلَّا على مَن أعْمَى اللهُ قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

٤٨٧٧. فيها عظيم عفو الله تعالى فمع هذه المطالب غير اللائقة بالله تعالى التي تدل على أنهم ما قدروا الله حق قدره وعلى اتخاذهم العجل من بعد ما جاءتهم البينات قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ يعني إن تابوا وأنابوا.

٤٨٧٨. فيها: اسم الإشارة في قوله: ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ يعود إلى اتخاذ العجل معبودا من دون الله. والجملة الكريمة حض لليهود المعاصرين للعهد النبوي على الدخول في الإسلام فإنهم متى فعلوا ذلك غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم كما غفر لآبائهم بعد أن تابوا من عبادة العجل.

٤٨٧٩. فيها إثبات صفة العفو لله تعالى.

٤٨٨٠. تفيد بيانا لعدم تقنيط العبد المذنب عن رحمة الله وعفوه مهما عظم جرمه، فهؤلاء اتخذوا العجل إلها من دون الله، فعفى الله عنهم.

٤٨٨١. تفيد فضيلة موسى عليه السلام وما أعطاه الله عز وجل من السلطان المبين.

٤٨٨٢. فيها: تسمية الحجة سلطانا؛ وسميت سلطانا لأن من جاء بها قاهر بالحجة، وهي قاهرة للقلوب، بأن تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلها.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ١٥٤].

٤٨٨٣. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فبعد أن ذكر ﷻ سؤال أهل الكتاب النبي ﷺ عن إنزال كتاب من السماء، وبّخهم وذمّهم ﷻ بذكر ما فعله أسلافهم وأجدادهم من الاستهانة والاستهتار والمخالفة لأوامر الله تعالى الواضحة البينة، وذلك في إشارة واضحة وقوية إلى أنهم قوم لا يستحقون هذا الكتاب الذي طلبوا إنزاله، فهم ليسوا بأولياء الله ولا بأحبائه، بل هم قوم متعنتون ومعاندون وجاحدون لنعم الله تعالى أباً عن جد؛ فأنى لهم الزيادة من فضل الله تعالى.

٤٨٨٤. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق فبعد أن ذكر ﷻ إتيان موسى عليه السلام السلطان المبين، والحجة الواضحة، ومن أبرزها وأفضلها التوراة؛ أشار في هذه الآية الكريمة إلى ما كان عليه أولئك القوم من صلف وعناد ومكابرة، حيث أخذ منهم الميثاق فلم يعملوا بالتوراة حتى رفع الله تعالى فوقهم الجبل أو الطور كأنه ظلة فوق رؤوسهم، وجاء هذا الأمر واضحا وبيّناً في سورتي البقرة والأعراف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

٤٨٨٥. تفيد مع ما قبلها عتو بني إسرائيل وسوء أخلاقهم مع أنبياء الله وكتبه، حيث لم يأخذوا كتاب الله المنزل على موسى عليه السلام مأخذ الجد والعزيمة إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، فهل يريدون أن يكرروا فعلتهم تلك مع خير الخلق وأفضل الرسل عليه الصلاة والسلام إن استجاب الله سؤالهم وأنزل عليهم كتابا من السماء.

٤٨٨٦. تفيد مع ما قبلها أن المقصود من إنزال الكتب السماوية هو العمل بمقتضاها لا مجرد تلبية للتحدي والافتخار بها على الناس، ولا حتى تلاوتها وترتيلها باللسان دون العمل بمقتضاها، فإن كل ذلك نبذ لها.

٤٨٨٧. تفيد مع ما قبلها وجوب أخذ أحكام الشريعة بقوة وحزم وجد، لا بضعف ولين ومداهنة، فهي عهود ومواثيق بين العباد وخالقهم.

٤٨٨٨. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن ذكر ﷻ إتيانه موسى السلطان المبين ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ ذكر صورة من صور هذا السلطان؛ فقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾.

٤٨٨٩. تدل الآية على تشديد العقوبات والتفصيل في بنود العهد على المتفلتين والمتساهلين في تطبيق الشرع لأن من طبائعهم البحث عن التأويلات الفاسدة التي قد تكون محتملة من بعض بنود العهد للأخذ بها وجعلها حجة على ترك المحكمات.

٤٨٩٠. تفيد عظيم قدرة الله ﷻ في رفع هذا الجبل فوقهم وهم ينظرون.

٤٨٩١. تفيد أن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالماديات، فرفع الله فوقهم الطور؛ ليلفتهم بالمادة إلى قدرته وقوته سبحانه.

٤٨٩٢. تفيد أن اليهود لا يرعوون ولا ينقادون في مواثيقهم إلا بقوة قاهرة، وقدرة قادرة، وتهديد أكيد، وخطاب شديد، ويا ليت قومنا يعلمون.

٤٨٩٣. تفيد إثبات القول لله ﷷ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾.

٤٨٩٤. فيها أنه ينبغي التواضع والخضوع لله تعالى لا سيما في مقام التمكين والنصر؛ لقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ وهذا ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله مكة فاتحاً فقد دخل مطأطئ رأسه تواضعا لله ﷷ.

٤٨٩٥. تفيد أن ساعات النصر والتمكين لابد وأن يظهر فيها العبد خضوعه لله تعالى، وإظهار ذلك بأعظم ما يستطيع وهو السجود لا البطر ولا العبث ولا التطبيل والتزمير والأهازيج والأغاني والمهرجانات الراقصة.

٤٨٩٦. تفيد أن الواجب على من مكنه الله في أرض ونصره على أهلها ألا يتجبر أو يتعالى؛ أو يظلم أحدا من أهلها، أو يعثو في الأرض فسادا، بل عليه أن يكثر من شكر الله والتواضع له وسؤال المغفرة إن صدر عنه ما يشوب هذا التمكين.

٤٨٩٧. فيها بيانُ عِظَم الذنوب الجماعية التي تآمروا على إتيانها والعصيان الذي أقدم عليه بنو إسرائيل، وسعة حلم الله عليهم وغفرانه لذنوبهم برغم عظمها وسوءها.

٤٨٩٨. تفيد أن التحليل والتحريم من اختصاص المشرع ﷺ؛ فهو الذي يحرم الحرام ويحلل الحلال؛ ويحرم الحلال في زمن، ويبيحه في زمن آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

٤٨٩٩. يفيد التعبير بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ دون قوله: [لا تعتدوا] إشارة لطيفة إلى أن الشيء الممنوع مرغوب وتسرع إليه النفس وتعدوا في تجاوزه.

٤٩٠٠. فيها: أضاف - سبحانه - الأخذ إلى ذاته الكريمة تقوية لأمر هذا الميثاق، وتنويها بشأنه وإشعاراً بوجوب الوفاء به؛ لأن ما أخذه الله على عباده من مواثيق من واجبهم أن يفوا بها إذ هو ﷻ وحده سيجازيهم على نكثهم ونقضهم لعهودهم.

٤٩٠١. فيها: وصف ﷻ الميثاق الذي أخذه عليهم بالغلظ أي: بالشدة والقوة؛ لأنه كان قويا في معناه وفي موضعه وفي كل ما اشتمل عليه من أوامر ونواه وأحكام، ولأن نفوسهم كانت منغمسة في الجحود والعناد فكان من المناسب لها تأكيد العهد وتوثيقه لعلها ترعوي عن ضلالها وفسوقها عن أمر الله.

٤٩٠٢. تفيد كثرة المواثيق التي أخذت على بني إسرائيل، وكثرة نقضهم لها حتى صار من أظهر صفاتهم السيئة عبر الدهور والأزمان ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

٤٩٠٣. تفيد مع ما بعدها أن اليهود أهل عدوان ومكر وخديعة واحتيال؛ حيث اعتدوا في السبت واحتالوا على الله؛ بعد أن حرم عليهم الصيد في ذلك اليوم؛ إذن، فماذا يرتجى من أهل المكر والخديعة والعدوان والاحتيال على الله؟!

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

٤٩٠٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما سبق ذكر الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على يهود، جاء في هذه الآية بيان ما وقع عليهم من الخزي والعذاب بسبب نقضهم ميثاقهم مع خالقهم سبحانه.

٤٩٠٥. تفيد مع ما قبلها أن الله ﷻ لا يعذب أحدا إلا بعد أن يقيم عليه الحجة، ويأخذ عليه المواثيق والعهود ثم إذا نقض العبد هذه العهود والمواثيق عذبه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾.

٤٩٠٦. فيها: الفاء في قوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ للتفريع على ما تقدم من قوله: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ والباء للسببية، و[ما] هنا مزيدة لتأكيد نقضهم للميثاق. والجار والمجرور متعلق بمحذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل مذهب في التهويل والتشنيع على هؤلاء الناقضين لعهودهم مع الله – تعالى – فيكون المعنى: فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم وبسبب كفرهم بآياتنا، وبسبب قتلهم لأنبيائنا، وبسبب أقوالهم الكاذبة. بسبب كل ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من أنواع العقوبات الشديدة، وأنزلنا بهم ما أنزلنا من ظلم ومهانة وصغار ومسخ... الخ.

٤٩٠٧. تفيد إثبات الأسباب الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ والباء للسببية.

٤٩٠٨. فيها: عطف – سبحانه – كفرهم بآياته على نقضهم للميثاق الذي أخذه عليهم مع أن ذلك الكفر من ثمرات النقض، للإشعار بأن النقض في ذاته إثم عظيم والكفر في ذاته إثم عظيم – أيضا – من غير التفات إلى أن له سبباً أو ليس له سبب.

٤٩٠٩. تفيد أن نقض المواثيق والعهود الإلهية تؤدي إلى الكفر بآيات الله؛ والكفر بآيات الله يؤدي إلى الكفر والتعدي على حملة تلك الآيات وهم الأنبياء، وقد يصل التعدي إلى قتلهم

واستباحة دمائهم، وفي هذا إشارة إلى إن الذنوب والمعاصي تجر بعضها بعضا، فيتدرج المذنب من الذنب الصغير إلى الكبير، ومن الكبير إلى الأكبر، نسأل الله العافية؛ وهنا يظهر للمتأمل والمتدبر دقة التناسب وروعة التناسق بين جمل الآيات القرآنية.

٤٩١٠. فيها تأكيد على عظم شأن العهود والمواثيق، وضرورة الالتزام بها..

٤٩١١. تفيد أن نقض المواثيق والعهود سبب لحلول العذاب واللعنة على صاحبها.

٤٩١٢. تفيد أن آيات الله تعالى يجب أن تقابل بالقبول والشكر لا بالجحود والكفر.

٤٩١٣. تفيد أن الكفر بآيات الله سبب لحلول العذاب واللعنة والغضب على صاحبها.

٤٩١٤. تفيد إثبات الآيات لله تعالى -الكونية والشرعية-.

٤٩١٥. فيها: لا تستهن بالذنب تفعله بل أحسن محاسبة نفسك.

٤٩١٦. تفيد أن الله لا يظلم عباده بل من عصى واستكبر هو من يظلم نفسه.

٤٩١٧. فيها: من أشنع صور العقاب لمن أعرض ونقض العهد مع الله، أن يستغني الله عنه ويتركه لنفسه.

٤٩١٨. تفيد عظم جرم هؤلاء اليهود لأن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق، فذكر هذا القيد لبيان أنهم يقتلون الأنبياء وهم يعلمون صدقهم ونبوتهم، وسيأتي قولهم: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

٤٩١٩. تفيد عظم جرم هؤلاء اليهود؛ فلا شك أن قتل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يدل على شناعة جريمة من قتلهم وعلى توغله في الجحود والعناد والفجور إلى درجة تعجز العبارات عن وصفها، لأنه بقتله للدعاة إلى الحق، لا يريد للحق أن يظهر ولا للفضيلة أن تنتشر، ولا للخير أن يسود، وإنما يريد أن تكون الأباطيل والرذائل والشرور هي السائدة في الأرض. وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ ليس قيدا؛ لأن قتل النبيين لا يكون بحق أبداً، وإنما المراد من قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ بيان أن هؤلاء القاتلين قد بلغوا النهاية في الظلم والفجور والتعدي. لأنهم قد قتلوا

أنبياء الله بدون أي مسوغ يسوغ ذلك، وبدون أية شبهة تحملهم على ارتكاب ما ارتكبوا، وإنما فعلوا ما فعلوا لمجرد إرضاء أحقادهم وشهواتهم وأهوائهم...

٤٩٢٠. يفيد التنديد والوعيد بأهل الكبائر من الذنوب؛ كناقضي المواثيق، والكافرين بآيات الله، وقاتلي النفس المحرمة؛ لا سيما نفوس الأنبياء ومن يقوم مقامهم من أهل العلم الآمرين بالقسط والعدل.

٤٩٢١. تفيد أن الأنبياء لا يملكون من أمر موتهم وحياتهم شيئا؛ إلا ما شاء الله، ولو أنهم علموا الغيب واستطاعوا التصرف في أمور الكون؛ لما أوقعوا أنفسهم في الهلاك والقتل على يد هؤلاء المجرمين اليهود، وفي هذا رد على من يدعون تصرف الأنبياء والصالحين في بعض أمور الكون والتي هي من اختصاص الله تعالى؛ وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فغيرهم من باب أولى.

٤٩٢٢. تفيد أن الداعية إلى الله مهما علت منزلته عند الله فهو معرض للابتلاء والامتحان، وقد يصل هذا الابتلاء إلى حد القتل وإزهاق روحه في سبيل الله.

٤٩٢٣. تفيد أن قتل نبي واحد كقتل جميع الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ ومعلوم أنهم لم يقتلوا جميع الأنبياء؛ بل قتلوا بعضا منهم؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢].

٤٩٢٤. تفيد أن قتل الأنبياء والرسل على يد هؤلاء المجرمين اليهود ليس خذلانا لهم؛ بل كرامة عند ربهم، ورفعة في درجاتهم، وزيادة في منازلهم، فإن كان ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى؛ فقتله أصحاب القرية بعد نصحه إياهم، قال هذه المقولة: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ – ٢٧]، فكيف بأنبياء الله تعالى ورسله.

٤٩٢٥. تفيد أن القلب هو ملك الأعضاء فإذا طبع عليه فقد هلك الإنسان.

٤٩٢٦. فيها: ليس الطبع ظلم من الرب للعبد بل هو جناية العبد على نفسه.

٤٩٢٧. تفيد خطر الذنوب والمعاصي، وأثرها الوخيم على القلب.

٤٩٢٨. تفيد بيان ذم اليهود لأنفسهم وشهادتهم على أن قلوبهم لا تقبل الحق، وأنها تشابهت في الغلف، فلا يدخلها خير ولا يخرج منها خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفٌۚ﴾.

٤٩٢٩. تفيد أن الكذوب قد يصدق من حيث يدري أو لا يدري، فهؤلاء اليهود المفترون أصابوا عين الصدق، وكبد الحقيقة، عندما نطقت ألسنتهم بأن قلوبهم غلف.

٤٩٣٠. فيها تنبيه على ضرورة الاتعاظ وأخذ العبرة من الأمم السابقة وما حل بهم..

٤٩٣١. في الآية: إشارة إلى سلوك تربوي، وذلك ببيان المربي لأسباب العقاب قبل أن يوقعه على من هم تحت يده.. ففي بيان أسباب العقاب تحذير وتأديب للآخرين، حيث إنهم يحذرون من الوقوع في تلك الأسباب الجالبة لذلك العقاب.

٤٩٣٢. فيها كمال عدل الله تعالى حيث ذكر سبب طبعه على قلوب هؤلاء وهو اختيارهم الكفر ورفضهم الإيمان.

٤٩٣٣. تفيد قلة من آمن من اليهود؛ وقد قال رسول الله ﷺ: "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن اليهود". متفق عليه.

قال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٦ – ١٥٧].

٤٩٣٤. تفيد مع ما قبلها أن الطبع على القلوب يستدعي مزيدا من الكفر والذنوب والمعاصي.

٤٩٣٥. تفيد مع ما قبلها أن من أسئلة المتعنتين ما يستدعي في إجابتهم ذكر فضائحهم ومخازيهم بل وفتح الباب واسعا على تاريخهم السيء؛ وإسماعهم ما يسوءهم في الإجابة؛ ولهذا فإنهم عندما سألوا إنزال كتاب من السماء؛ سرد الله عليهم تاريخهم السيء والمظلم تجاه

الرسالات السماوية وأنبياء الله ورسله؛ ومن أجل هذا نهى الله ﷻ المؤمنين من كثرة الأسئلة البعيدة عن مهمة الرسول الكريم ﷺ؛ فقال تعالى في السورة التي بعد هذه السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١]. كما أن في تفصيل ذلك اثبات لبعض منهم على صدق نبوة محمد ﷺ وأنه لو لم يكن موحى من الله لما تمكن من معرفة مخازيهم بهذا التفصيل، أما البعض الآخر فيعلمون أنه الحق من ربكم فتقوم الحجة بذلك على من لم يتبين الحق. قال العلامة السعدي رحمه الله: "والذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدا أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يُجعل هذا معها. وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به ليكتفي بذلك شرهم وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ".

٤٩٣٦. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى قتلهم الأنبياء بغير حق؛ ذكر في هذه الآية ما يفيد دليلا على ذلك من خلال ذكر تباهيهم وتفاخرهم بصنيعهم بقتل المسيح عيسى ابن مريم رسول الله؛ ومعلوم أن هذا التباهي والتفاخر لا يمكن أن يصدر الا من قتلة متسلسلون؛ سفاحون متمرسون في قتل الأنبياء.

٤٩٣٧. تفيد مع ما قبلها بإشارة لطيفة إلى أهمية أن يقرن المدعي في دعواه ما يفيد دليلا وحجة قاطعة على صحة دعواه؛ اما اعترافا صريحا من المدعى عليه أو بينة ظاهرة على دعواه.

٤٩٣٨. تفيد قمة الوضوح في جانب التناسق الموضوعي بين موضوعات هذه السورة وسورتي آل عمران والمائدة؛ القبلية والبعدية؛ ففي سورة آل عمران تحدثت الآيات في هذا الموضوع من

بعض الجوانب؛ فقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٤ – ٥٥] وجاءت هذه السورة بعد ذلك لتوضح بعض الجوانب الأخرى في هذا الموضوع من خلال هذه الآيات. ثم تبعتهما سورة المائدة لتوضح هي الأخرى بعض الجوانب في هذا الموضوع أيضا كما في قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ١١٧] وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن قصة المسيح عليه السلام. وفي هذا دلالة واضحة على دقة الترتيب؛ وروعة التناسق الموضوعي بين السور والآيات والجمل والكلمات القرآنية.

٤٩٣٩. تفيد أن الكفر سبب للشر والفساد والغضب واللعن والطرد من رحمة الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي: لعناهم وغضبنا عليهم.

٤٩٤٠. تفيد أن تعدد ذكر الكفر في هذه الآيات المتعددة يحمل دلالة بتعدد صور الكفر الذي ارتكبوه.

٤٩٤١. تفيد أن القول باللسان لا يقل خطورة عن الفعل ففي ذلك اثبات لوقوع الكثير من الناس في النار حصائد ألسنتهم.

٤٩٤٢. فيها: من ديدن اليهود الكذب والبهتان.

٤٩٤٣. تفيد أن اليهود قذفوا السيدة مريم عليها السلام ببهتان عظيم.

٤٩٤٤. تفيد فضيلة مريم عليها السلام؛ حيث دافع الله تعالى عنها، ورد عنها البهتان. فهي من خير النساء.

٤٩٤٥. فيها: قذف النساء والرجال بالزنا هو من أعظم البهتان وأسوأ الآثام فكيف إذا كان هذا القذف يطال أطهر نساء العالمين ووالدة أحد أعظم خمسة أنبياء من أولي العزم من الرسل.

٤٩٤٦. تفيد بيان صفة من صفات الحق جل جلاله، فهو سبحانه وتعالى [حيي]؛ حيث لا يصرح بالعبارات الخادشة للحياء، حتى ولو كان حكاية أو نقلا عمن نزع منهم الحياء، بل يكتفي

بعبارات دالة ومفهمة للمقصود والمراد؛ ففي هذه الآية الكريمة اكتفى ﷻ بقوله: ﴿ بُهۡتَـٰنًا عَظِيمًا ﴾ لدلالة هذه العبارة على ما قاله هؤلاء المفترون؛ وفي هذا إشارة لطيفة وإرشاد إلهي عظيم إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يعف لسانه عن مثل هذه العبارات الخادشة للحياء؛ حتى ولو كان حاكيا أو ناقلا عن غيره، وأرجو أن يتأمل المتأمل والمتدبر كيف أعرض الحيي ﷻ عن ذكر قولهم ههنا صراحة، وذكر قولهم الذي بعده صراحة:﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ ﴾ [النساء: ١٥٧].

٤٩٤٧. تفيد وجود تشابه كبير بين اليهود والشيعة الروافض؛ فاليهود بهتوا أم رسول الله المسيح عيسى عليهما السلام، والشيعة الروافض بهتوا زوجة رسول الله محمد ﷺ ورضي الله عنها وعن أبيها، وكلتا السيدتين برأهما الله ﷻ في كتابه الكريم.

٤٩٤٨. تفيد أن من قذف السيدة مريم عليها السلام بعد تبرئة الله لها في كتابه، وشهادته لها بأنها أحصنت فرجها، فهو كافر؛ لا لمجرد القذف؛ بل لأنه كذب وأنكر تبرئة الله ﷻ إياها، وكذلك من قذف السيدة عائشة رضي الله عنها بعد إنزال الله براءتها من فوق سبع سماوات، فهو كافر من وجهين: الوجه الأول: تكذيب خبر الله تعالى الوارد في سورة النور. الوجه الثاني: تدنيس فراش النبي ﷺ، والطعن في ذاته الشريفة الطيبة الطاهرة.

٤٩٤٩. تفيد أن رمي وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات بهتان عظيم، وإفك مبين؛ وقد أوجب الله في كتابه الكريم على من قذفهن -ولم يأت بأربعة شهداء- حد الجلد، ثمانين جلدة.

٤٩٥٠. فيها: الإسلام يسعى إلى حماية الأعراض والأنساب فحد حد القذف.

٤٩٥١. تفيد نفي عقيدة النصارى بألوهية المسيح عليه السلام لذا نجد تسميته القرآنية المسيح عيسى ابن مريم، ونفي عقيدة اليهود بتكذيبه وقتله صلبا.

٤٩٥٢. تفيد أن اليهود أقروا وشهدوا على أنفسهم بقتل المسيح عليه السلام؛ لقوله تعالى:﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لهذا فهم يتحملون كافة إثم قتله حكما، وإن لم يحصل القتل حقيقة وواقعا.

٤٩٥٣. فيها: إذا اشتهر الإنسان بلقب فلا مانع من تقديمه على الاسم وإن كان الأصل تقديم الاسم ولكن لشهرته يقدم كالمسيح.

٤٩٥٤. تفيد جواز نسبة الرجل إلى أمه.

٤٩٥٥. تفيد إثبات رسالة المسيح عليه السلام فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو من أولي العزم من الرسل.

٤٩٥٦. فيها: الفخر بعمل السوء هو من أعظم السوء حتى وإن كانت الدعوى كاذبة والمدعي يعلم كذبها.

٤٩٥٧. فيها: تعظيم النصارى للصليب دليل على سفاهتهم وقلة تمييزهم وعقلانيتهم وإلا كيف يعظمونه وهو صليب يصلب عليه نبيهم فالواجب تكسيره لا تعظيمه.

٤٩٥٨. فيها: تمام قدرة الله عز وجل حيث قلب الرجل إلى مشابه عيسى.

٤٩٥٩. فيها: اختلافهم ناتج من عدم العلم به﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾. فاليهود والنصارى نفى الله عنهم العلم في هذه الآية.

٤٩٦٠. فيها: نفي العلم يقتضي الجهل وثبوته وهذا ذم لكل من اتبع الظن.

٤٩٦١. تفيد حرمة اتباع الظن لما فيه من تأثير على عقائد الناس وأن الدين لا يؤخذ بالظن بل ينبغي من التيقن من كل عبادة أو عقيدة وإلا فإن العمل سيكون عرضة للبطلان.

٤٩٦٢. فيها: أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولَم يصلب خلافا لقول اليهود وتكذيبا له.

٤٩٦٣. تفيد ضلال النصارى لأن عقائدهم مبنية على أوهام وظنون وشكوك، وهم الضالون.

قال تعالى:﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ١٥٨ -١٥٩].

٤٩٦٤. فضيلة عيسى عليه السلام بأن رفعه الله قبل موته وجعله آية لأمة محمد وللنصارى آخر الزمان وقت نزوله.

٤٩٦٥. تفيد إثبات صفة العلو، وإثبات عدم قتله، وإثبات علو مكانة عيسى عليه السلام، وإثبات بطلان كيد الكافرين، وإثبات رجوعه الدنيا ليدركه الموت.

٤٩٦٦. فيها رد على الحلولية. وعلى اليهود الذين زعموا صلبه وقتله.

٤٩٦٧. ولما كان رفع عيسى عليه السلام إلى السماء رفع تشريف وصيانة وتطهير، ولحكم أرادها الله من رفعه؛ نبه تعالى أنه لا حاجة له – جل ذكره – في ذات رفعه إلى السماء؛ فنبه قائلا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ولأنه الغني، ومن فوائد ختامها بقوله:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ تهديد لأعداء الله الذين يحاربون أولياء الله؛ فهو عزيز مقتدر ينتقم منهم ويعجل لهم إن شاء، وحكيما: في تركه وإنظاره لهم.

٤٩٦٨. هذه الآية دليل على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان لقوله:﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ – ١٦١].

٤٩٦٩. فيها أن الذنوب سبب في زوال النعم. ومن أعظم الذنوب: الصد عن سبيل الله، وأكل الحرام. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية: ولقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل، فوجدته أحد شيئين: إما ذنوب جوزوا عليها بتضييق في أمورهم، فلم يستطيعوا دفع هذا الضيق إلا بالحيل، فلم تزدهم الحيل إلا بلاء، كما جرى لأصحاب السبت من اليهود كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهذا الذنب ذنب عملي... " مجموع الفتاوى [٢٩/٤٥].

٤٩٧٠. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ فلما منعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، عاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

٤٩٧١. فيها: حرمت عليهم الطيبات لارتكابهم المنكرات.

٤٩٧٢. فيها أن الظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل هي من أعظم أسباب الحرمان من الطيبات في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

٤٩٧٣. فيها: سواء كان الظلم في حق أنفسهم بتركهم ما أمروا به وإتيان ما نهوا عنه أو كان ظلما متعدياً كقتلهم الأنبياء وإيذائهم.. فقد أحل الله عليهم بسبب هذا الظلم العقوبة وهكذا حال من يسير على هذا الدرب المشئوم من الظلم سواء كان للنفس كأنظمة العلمانية وغيرها أو كان للغير كالقمع وغيره فإنه يصعب بسببه كثير من الحلال ويفسد على الناس كثير من أمور دنياهم.

٤٩٧٤. في قوله: ﴿ حَرَّمۡنَا ﴾... نون العظمة التي تفيد عز الخالق وجبروته وذل المخلوق ومدى احتياجه لهذا الرب العلي الكبير وأنه قادر على المنع أو العطاء إذا أبق العبيد أو حادوا عن طريق الهدى الذي أنزله الله ﷻ.

٤٩٧٥. تفيد أن اليهود من أكثر الناس صدا عن سبيل الله ﷻ ومحاربة لدينه؛ ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

٤٩٧٦. تفيد أن الصد عن سبيل الله ﷻ من أعظم الذنوب، ومن أسباب العقوبات العاجلة والآجلة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٤٩٧٧. تفيد أن الربا محرم في الشرائع السابقة، وهذا يدل على غلظ أمره لما فيه من ظلم وضرر وامتصاص لدماء الفقراء ولذا رأى النبي ﷺ آكل الربا يسبح في نهر الدم.

٤٩٧٨. تفيد تحريم أكل أموال الناس بالباطل، وهي قاعدة نافعة في معرفة المحرم من الأموال تدخل فيها كثير من الفروع.

٤٩٧٩. فيها أن النار قد خلقت وأعدت وهذا مأخوذ من قوله: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا ﴾ بالماضي.

٤٩٨٠. تفيد أن عذاب الله شـــديد، مؤلم للأبدان والقلوب والأرواح. وفي هذا تخويف وتحذير للعباد منه ومن أسبابه من الكفر والبدع والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٢].

٤٩٨١. تفيد مناسـبة ظاهرة لما قبلها: فمن تمام عدل الله وحكمته ذكر الخير والشـر سـواء لطائفة أو فرد، فبعد حكمه عليهم بأخذ الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل قال: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾.

٤٩٨٢. فيها مع ما قبلها: المتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها من أجمع الآيات التي تحدثت عن أحوال اليهود، وعن أخلاقهم السـيئة، وعن فنون من رذائلهم وقبائحهم... فأنت تراها - أولا - تسـجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله، وعبادتهم للعجل من بعد أن قامت لديهم الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده، وعصـيانهم لأوامر الله ونواهيه، ونقضـهم للعهود والمواثيق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، وبهتهم لمريم القانتة العابدة الطاهرة، وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله... إلى غير ذلك من الرذائل التي سـجلها الله عليهم. ثم تراها - ثانيا - تذكرهم وتذكر الناس جميعا ببعض مظاهر رحمة الله بهم، وعفوه عنهم، ونعمه عليهم، كما تذكرهم - أيضـا - وتذكر الناس جميعا، ببعض العقوبات التي عاقبهم بها بسـبب ظلمهم وبغيهم. وكأن الآيات الكريمة تقول لهم وللناس إن نعم الله على عباده لا تحصى ورحمته بهم واسعة، فاشكروه على نعمه، وتوبوا إليه من ذنوبكم، فإن الإصـرار على المعاصـي يؤدي إلى سـوء العاقبة في الدنيا والآخرة. ثم تراها - ثالثاً - تدافع عن عيسـى وأمه عليهما السـلام دفاعا عادلا مقنعاً وتبرئهما مما نسـبه أهل الكتاب إليهما من زور

وبهتان، وتصرح بأن أهل الكتاب لا حجة عندهم فيما تقوّلوه على عيسى وعلى أمه مريم، وأنهم في أقوالهم ما يتبعون إلا الظن، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] ثم تسوق الحقيقة التي لا باطل معها في شأن عيسى، بأن تبين بأن الذين زعموا أنهم قتلوه كاذبون مفترون فإنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وسيؤمنون به عند نزوله في آخر الزمان، أو عندما يكونون في اللحظات الأخيرة من حياتهم، حين لا ينفع الإيمان. ثم تراها - رابعاً - لا تعمم في أحكامها، وإنما تحق الحق وتبطل الباطل فهي بعد أن تبين ما عليه اليهود من كفر وظلم وفسوق عن أمر الله، وتتوعدهم بالعذاب الشديد في الآخرة. بعد كل ذلك تمدح الراسخين في العلم منهم مدحا عظيما، وتكرم المؤمنين الصادقين منهم تكريما عظيما، وتبشرهم بالأجر الجزيل الذي يشرح صدورهم، ويطمئن قلوبهم. ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

٤٩٨٣. تفيد فضل الرسوخ في العلم، وأثره في الاستقامة، وفي ضمن ذلك الحث على الوصول إلى رتبة الراسخين في العلم.

٤٩٨٤. فيها تقديم العلماء على عموم المؤمنين، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١] ففيها فضل العلم والعلماء.

٤٩٨٥. تفيد أن العلم سبب للإيمان. قاله ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

٤٩٨٦. تفيد بان العلم الحق هو الذي يؤدي للإيمان بالله.

٤٩٨٧. تفيد العلاقة بين العلم والرسوخ فيه والايمان بالكتب السماوية والتي هي مصدر الايمان.

٤٩٨٨. تفيد أن الرسوخ في العلم يقوي الإيمان ويزيده كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

٤٩٨٩. فيها: إشارة إلى خطر أنصاف العلماء، الذين أفسدوا وضيعوا وأضاعوا الدين؛ كما يفسد الأبدان أنصاف الاطباء.

٤٩٩٠. فيها: قد يكون في أهل الكتاب من هو راسخ في العلم.

٤٩٩١. فيها دليل على علو الله تعالى؛ لأن النزول لا يكون إلا من علو.

٤٩٩٢. تفيد وجوب الإيمان بالكتب التي أنزلها الله جميعا لقوله:﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ ﴾.

٤٩٩٣. تفيد إثبات رسالة رسول الله ﷺ.

٤٩٩٤. فيها إشارة إلى أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، لقوله:﴿ مِن قَبْلِكَۚ ﴾ ولم يقل من بعدك.

٤٩٩٥. تفيد أن الايمان قول وعمل.

٤٩٩٦. تفيد: عظم شأن الصلاة وقدرها عند الله؛ بأن خص أهلها على غيرهم.

٤٩٩٧. تفيد فضل إقامة الصلاة إقامة مستوفية لكل أركانها وسننها وآدابها وخشوعها.

٤٩٩٨. تفيد وجوب إيتاء الزكاة، وفضل من يخرجها طيبة بها نفسه، وهي قرينة الصلاة في القرآن كما في هذه الآية؛ فإن الزكاة عبادة المال والصلاة عبادة البدن.

٤٩٩٩. تفيد إثبات اليوم الآخر.

٥٠٠٠. تفيد وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، وهي من أركان الإيمان التي لا يصح الإيمان إلا بها.

٥٠٠١. فيها: فضيلة الإيمان بالله واليوم الآخر.

٥٠٠٢. تفيد أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في الاستقامة ولذلك كثيرا ما يقرن الله تعالى بينهما، ولا يصلح حال البشر إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٥٠٠٣. فيها: أن الإيمان باليوم الاخر والتأمل فيه والتعمق في فقهه هو من صفات الراسخين في العلم..

٥٠٠٤. تفيد علو مرتبة هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ يؤخذ ذلك من الإشارة إليهم بإشارة البعيد﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

٥٠٠٥. فيها الإشـارة إلى عظمة الله تعالى وذلك لاستخدام نون العظمة﴿ سَنُؤْتِيهِمْ ﴾ وهو سبحانه الواحد الأحد.

٥٠٠٦. تفيد عظمة الخالق ﷻ، وعظمة أجره، والله ذو الفضل العظيم.

٥٠٠٧. فيها: تنكير الأجر، ووصفه بالعظم يدل على أنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣ – ١٦٥].

٥٠٠٨. تفيد وجوب الإيمان بالرسل إجمالا، والإيمان بمن عرفنا اسمه تفصيلا. قال السعدي رحمه الله: يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفي هذا عدة فوائد: منها: أن محمدا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد. ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضا ويوافق بعضهم بعضا. ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلا يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين. ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانا بهم ومحبة لهم واقتداء بهديهم واستنانا بسنتهم ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقا لقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الصافات:٧٩]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:١٠٩]، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠] وقال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

ﵟٱلۡمُحۡسِنِينَﵞ [الصافات: ١٣٠ – ١٣١]، فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسل –خصوصا هؤلاء المسمون– في المرتبة العليا من الإحسان. ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه آتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف الزبور الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليما، أي: مشافهة منه إليه لا بواسطة حتى اشتهر بهذا عند العالمين فيقال: "موسى كليم الرحمن". وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﵟمَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗﵞ [المائدة: ١٩] فلم يبق للخَلْق على الله حجة لإرساله الرسل تترى يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

٥٠٠٩. تفيد أن الوحي منة من الله تعالى على رسله.

٥٠١٠. تفيد وحده المصدر والرسالات ووحده المعبود باختلاف الرسل والمرسل إليهم.

٥٠١١. تفيد أن ظاهرة الوحي متسلسلة في سير جميع الأنبياء ولم يأت النبي عليه السلام بما يخالف سنة الله تعالى في الرسل بما يبرهن على صدق دعوته.

٥٠١٢. تفيد أن نوحا عليه السلام هو أول الرسل لقوله: ﵟوَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚﵞ؛ وقد جاء في حديث الشفاعة المشهور أن الناس يقولون: يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض... الحديث.

٥٠١٣. فيها: كرر – سبحانه – كلمةﵟوَأَوۡحَيۡنَآﵞ للإشعار بوجود فترة زمنية طويلة بين نوح وبين إبراهيم – عليهما السلام –.

٥٠١٤. فيها: تشريف الله لأنبيائه عامه ولبعضهم خاصة حيث يقدم خليله على الأنبياء. وتقديم نبي الله إسماعيل على نبي الله إسحق ويعقوب في كل مواضع الكتاب العزيز. ألمح فيها

بشارة لقومه على بني اسرائيل والله أعلم وأساله التوفيق فيما ذهبت إليه عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم.

٥٠١٥. تفيد فضل داود عليه السلام وما خصه الله تعالى به من الزبور. وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داود يحدث عنه، قال: "كان أعبد البشر". رواه الترمذي وحسنه الألباني.

٥٠١٦. تفيد تسلية النبي ﷺ بتحرير هذه الأسماء الشريفة وأنه مثلهم وسوف يسير على نهجهم بل هو أفضلهم جميعا لكونه خاتمهم ورسالته المهيمنة على غيرها.

٥٠١٧. تفيد كثرة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

٥٠١٨. تفيد فضل وشرف من ذكر من الانبياء في هذه الآية، حيث خصهم الله عز وجل بالذكر.

٥٠١٩. تفيد تكريم الله وتخصيصه لبعض عباده حيث ذكر أنبياء تشريفا في أكثر من موضع في كتابه العزيز ولم يذكر آخرين مع أنهم أنبياء؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٥٠٢٠. تفيد تأخر نزول سورة النساء عن نزول غالب قصص الأنبياء في القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

٥٠٢١. فيها: إشارة إلى: أهمية القصص الحق؛ التي تقرب معرفتها من الله.

٥٠٢٢. فيها: إشارة إلى: مدارسة قصص الصالحين.

٥٠٢٣. فيها إشارة إلى: أهمية الإخلاص، والمضي قدما لتبليغ دين الله عز وجل، سواء اشتهر هذا العالم أم لا، فلتكن وجهته وجه الله فحسب. لقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ مع كامل ما قاموا به وبذلوه.

٥٠٢٤. تفيد أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام كلاما حقيقيا لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وفي هذا إبطال ورد لقول من قال: إن الكلم ههنا هو الجرح؛ وأن الله جرح موسى بمخالب الحكمة؛ وكذلك إبطال ورد قول من قال: إن موسى هو الذي قام بالكلام.

٥٠٢٥. تفيد إثبات صفه الكلام لله عز وجل.

٥٠٢٦. فيها: إثبات صفة الكلام لله – جل ذكره –، وليس هذا فحسب؛ بل فيها أهمية الإيمان بذلك، وخطر إنكاره. دل عليه إتيانه بالمصدر المؤكد﴿ تَكۡلِيمٗا ﴾ ولم يكتف بقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ وكأنه يقول: وإياكم أن تعتقدوا غير ذلك، ولعلمه أن من الناس من سيجحد ذلك.

٥٠٢٧. تفيد فضل موسى عليه السلام فقد خصه الله تعالى بالتكليم قال تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

٥٠٢٨. تفيد بيان حال الرسل؛ وأن رسالاتهم السماوية كانت جامعة بين البشارة والنذارة.

٥٠٢٩. تفيد إرشاد الدعاة والعلماء إلى الجمع في دعوتهم بين البشارة والنذارة والترغيب والترهيب.

٥٠٣٠. تفيد أن مهمة الرسل تتمثل في البشارة والإنذار مما يتوجب على الداعية الاتسام بذلك خلافا لبعض الفرق المبتدعة التي تقوم على الترغيب دون الترهيب كجماعة البلاغ أو ممن يقول بالترهيب دون الترغيب لتهاون الناس.

٥٠٣١. يفيد تقديم البشارة على النذارة في أكثر الآيات تنبيه الدعاة إلى الإكثار من البشارة والترغيب والبداءة بهما؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: "بشرا ولا تنفرا... الحديث". متفق عليه.

٥٠٣٢. تفيد وجوب البلاغ على الرسل.

٥٠٣٣. تفيد أن انتفاء الحجة يكون بعد ورود البلاغ.

٥٠٣٤. الآية ظاهرة في أنه لا بد من الشرع وإرسال الرسل. وأن العقل لا يغني عن ذلك. وزعم المعتزلة أن العقل كاف وأن مسألة الرسل إنما هو للتنبيه عن سنة الغفلة التي تعتري الإنسان من دون اختيار. فمعنى الآية عندهم: لئلا يبقى للناس على الله حجة.

٥٠٣٥. فيها إشارة إلى: أن الله يحب العذر، ومن أجله أرسل كثرة كاثرة من الرسل؛ منهم من سمى، ومنهم من لم يسم ولكثرتهم وفي الحديث -عند مسلم-: ولا شخص أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين، مبشرين ومنذرين...".

٥٠٣٦. تفيد العذر بالجهل في الأصول والعقائد ولكن بشرط ألا يكون العبد مفرطا في التعلم.

٥٠٣٧. تفيد كمال عدل الله سبحانه وتعالى بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٥٠٣٨. تفيد بيان رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أرسل إليهم الرسل ليعلموهم ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم.

٥٠٣٩. فيها إشارة إلى: تعظيم الله، وأنه لم يخلق الخلق سدى بلا أمر ولا نهي؛ بل أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، وتصديقه:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١] فبنفيهم هذا لم يعظموا الله، ونسبوا إليه ما لا يليق. قال الله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٥٠٤٠. تفيد الأمر بإقامة الحجة على الكفار؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقال تعالى:﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ولهذا لا يجوز قتال الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة حتى يدعوا إلى الإسلام. منهاج السنة [٨٨/٦].

٥٠٤١. تفيد إثبات صفة العزة والحكمة لله سبحانه وتعالى.

٥٠٤٢. تفيد إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى وهما العزيز والحكيم.

٥٠٤٣. تفيد إرشاد العباد إلى التوسل بهذه الاسماء الحسنى والصفات العلى لله جل وعلا.

٥٠٤٤. تفيد أن من كمال عزته تعالى وحكمته أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضا من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

٥٠٤٥. فيها: قوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ تذييل قصد به بيان قدرته التي لا تغالب، وحكمته التي لا يحيط أحد بكنهها. أي: وكان الله – تعالى – وما زال هو القادر الغالب على كل شيء، الحكيم فى جميع أفعاله وتصرفاته، وسيجازي الذين أساؤوا بما عملوا، وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى.

قال تعالى:﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

٥٠٤٦. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتملا على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده. ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادرا عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه ويوالي نصره ويجيب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أولياءه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟" ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم وجلالة هذا المشهود عليه. [السعدي].

٥٠٤٧. ومن المناسبات: لما قال:﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ نفى حجة الخلق على الخالق– فقال: لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة، فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة، بل له الحجة البالغة. وهو الذي هدى عباده بما أنزله. أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

٥٠٤٨. فيها إثبات الشَّهادة لله، من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وهو ﷻ شاهدٌ على كلِّ أعمال الخلق، وعلى كلِّ ما يَحدُث في السَّماء والأرض، بل على ما لا يَحدُث لو حدَث كيف كان.

٥٠٤٩. فيها: عنايةُ الله ﷻ برسولِه، وبما أوحاه إليه؛ حيث ذكَر أنَّ الله يشهد به، وكذلك الملائكة، وكثرةُ سِياق الأدلَّة على الشيء تدلُّ على العناية به، وهو كذلك.

٥٠٥٠. فيها الاكتفاء بشهادة واحد وهو الله خير الشاهدين إذا تعسر إحضار شهود.

٥٠٥١. فيها: التهمة في الشهادة تردها فلا تقبل شهادة من تجلب له شهادته نفعا أو تدفع عنه ضرا لذا لا تجوز شهادة الرجل لنفسه ولا لقرابته ولا تجوز شهادته على عدوه لوجود التهمة لكن شهادة الله لنفسه ولنبيه ﷺ لا ترد أبداً بل هي مقبولة ومقدمة لانتفاء التهمة إذ هو لا احتياج عنده ولا نقص ولا عوز ولذلك صحت شهادة الله تعالى لنفسه في سورة آل عمران وصحت شهادته لكتابه ولنبيه ﷺ هنا.

٥٠٥٢. فيها: تسلية للنبي ﷺ، وكأنه يقول: حسبك يا أيها النبي بشهادة الله على صحة ما جئتهم به؛ فلا تجد في نفسك إن كذبوا وأعرضوا.

٥٠٥٣. تفيد إثبات نبوة النبي ﷺ، وأن الله أنزل عليه وحيا يوحى.

٥٠٥٤. فيها: الأمورُ العظيمة لا يُستشهد عليها إلَّا الخواصُّ، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

٥٠٥٥. تفيد إثبات علو الله ﷻ على خلقه لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ﴾ والنزول لا يكون إلا من علو.

٥٠٥٦. تفيد أن القرآن فيه علم الله ﷻ، ولذلك كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وهذا الوجه هو الأشـــهر في الآية وعليه الأكثر واختاره شـــيخ الإسلام ابن تيمية وذكر أنه يتضمن الوجه الثاني.

٥٠٥٧. تفيد: "أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ هُوَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ. فَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ اللَّهِ فَاَللَّهُ أَخْبَرَ بِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ بِعِلْمِهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يُخْبِرَ بِنَقِيضِ عِلْمِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَاَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

[شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مجموع الفتاوى ١٦/٤٦٤].

٥٠٥٨. تفيد إثبات العلم لله ﷻ، وعلم الله ﷻ محيط لا يخفى عليه شـــيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

٥٠٥٩. تفيد إثبات الملائكة، وعظم مكانتهم عند ربهم، وطاعتهم لله ﷻ حيث يشـــهدون بما شهد به ربهم ﷻ.

٥٠٦٠. تفيد فضل الشهادة بالحق.

٥٠٦١. تفيد الحث على مراقبة الله تعالى، وطاعته، والحياء منه؛ فهو على كل شيء شهيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٧ – ١٦٩].

٥٠٦٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأخبر برســالة خاتمهم محمد، وشـهد بها وشـهدت ملائكته – لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم. ثم توعد من كفر بهم فقال:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسـهم وصـدِّهم الناس عن سـبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان.

٥٠٦٣. فيها: حذف المفعول لقصد التكثير. فقد كان اليهود يتعرّضون للمسلمين بالفتنة، ويقوون أوهام المشركين بتكذيبهم النبي ﷺ.

٥٠٦٤. فيها أن الكافر الذي يجمع مع الكفر الصد عن سبيل الله أضل من غيره وأشد عقابا؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾[النحل:٨٨].

٥٠٦٥. تفيد: أن الكفر درجات، لذا كانت النار دركات.

٥٠٦٦. تفيد أن الضلال ينقسم إلى ضلال قريب وضلال بعيد.

٥٠٦٧. فيها: أشد الناس ضلالا؛ الذين جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله..

٥٠٦٨. تفيد خطورة الجمع بين الضلال والإضلال، لأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقطاع منه.

٥٠٦٩. فيها: إنما تعذرت المغفرة لهم والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

٥٠٧٠. فيها: الذين يصدون عن سبيل الله، جرمهم يمتد، يتوارثه الأجيال، ويحمل أثره جيل يعقبه جيل..

٥٠٧١. تفيد التخويف والتحذير من الكفر فإن الإنسان إذا كفر زين له الشيطان الكفر فازداد إيغالا في الضلال، والصد عن سبيل الله ﷿.

٥٠٧٢. فيها ذم اليهود فهم من أوائل من كفر وصد سبيل الله ﷿.

٥٠٧٣. فيها- بمفهوم المخالفة -: أن من أعظم أسباب الرشاد والاستقامة والثبات، الدعوة إلى دين الله ﷿؛ فكما أن الصد عنه من أعظم أسباب الضلال البعيد، فكذا الدعوة إليه والانشغال به، من أعظم أسباب الهداية والقرب من الله.

٥٠٧٤. تفيد تلازم الكفر والصد عن سبيل الله؛ وذلك لأن الكفار إما أنهم صادون بأنفسهم أو صادون لغيرهم.

٥٠٧٥. فيها: هذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه. والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم. أفاده السعدي.

٥٠٧٦. تفيد أن الكافر الظالم لا يهديه الله؛ ويخص من ذلك من أراد الله هدايته وفلاحه.

٥٠٧٧. تفيد أن الظلم من أسباب الضلال وعدم الهداية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

٥٠٧٨. تفيد التحذير من الظلم.

٥٠٧٩. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ وان الظلم ظلمات؛ وأن الظالم في ظلمات لا يهتدي إلى طريق النجاة؛ بل يقع في طريق العذاب والهلاك.

٥٠٨٠. فيها أن الله لا يهدي القوم الظالمين الذين وصفهم الظلم ولم يتوبوا إلى الله.

٥٠٨١. فيها إثبات المغفرة لله ﷻ، وأن ترك الكفر والشرك والظلم من أسباب المغفرة والهداية، كما في الحديث القدسي: " يا ابن آدم لو اتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة ". رواه الترمذي وغيره.

٥٠٨٢. تفيد أن الهداية بيد الله ﷻ، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى طلب الهداية من الله ﷻ وحده. قال تعالى في الحديث القدسي: " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ". رواه مسلم.

٥٠٨٣. فيها أن هداية التوفيق بيد الله وحده؛ فهو يهدي من يشاء بفضله كما أنه يضل من يشاء بعدله.

٥٠٨٤. تفيد إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى.

٥٠٨٥. تفيد أن الجزاء من جنس العمل فقد أضلهم بسبب إيثارهم الغي على الرشد، والضلالة على الهداية، وبسبب فساد استعدادهم، وسوء اختيارهم. والتعبير بالهداية في جانب طريق النار من باب التهكم بهم.

٥٠٨٦. تفيد أن للجنة طريق كما أن للنار طريق فالسعيد من هداه الله لطريق الجنة والشقي من هدي لطريق النار.

٥٠٨٧. تفيد أن جهنم لها طريق يؤدي إليها –حسي ومعنوي، في الدنيا والآخرة–؛ ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ – ٢٣] والجنة لها طريق أيضا كما قال النبي ﷺ: "من نسي الصلاة عليَّ خطئ طريق الجنة"[صحيح الجامع]، وقال: " من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ". رواه مسلم.

٥٠٨٨. فيها بيان قدرة الله على بعث الناس بعد موتهم وإدخال الكافرين جهنم جزاء على أعمالهم.

٥٠٨٩. فيها: قوله: ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية، وهو مؤكد للخلود في النار؛ رافع لاحتمال أن يراد بالخلود المكث الطويل. أي: خالدين فيها خلودا أبديا بحيث لا يخرجون منها.

٥٠٩٠. تفيد إثبات الخلود الأبدي في النار؛ وفي هذا رد على من زعم فناء النار.

٥٠٩١. تفيد التخويف من النار، وأن من أسمائها جهنم وإثبات وجودها وبقائها أبد الآباد.

٥٠٩٢. تفيد إثبات قدرة الله الباهرة، وأن كل شيء عليه يسير، لا يعجزه شيء وهو العليم القدير.

٥٠٩٣. تفيد أن كل الأمور وان جلت وعظمت فهي يسيرة على الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

٥٠٩٤. فيها: قوله: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ تذييل قصد به تحقير شأنهم، وبيان أنه – سبحانه – لا يعبأ بهم. والمراد: وكان ذلك – أي: انتفاء غفران ذنوبهم، وانتفاء هدايتهم إلى

طريق الخير، وقذفهم في جهنم وبئس المهاد - كان كل ذلك على الله يسيرا. أي: هينا سهلا لأنه - سبحانه - لا يستعصى على قدرته شيء.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠].

٥٠٩٥. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فبعد استفراغ الحِوار مع أهل الكتاب، ثُمّ خطاب أهل الكفر بما هو صالح لأن يكون شاملاً لأهل الكتاب، وجّه الخطاب إلى النّاس جميعاً: ليكون تذييلاً وتأكيداً لما سبقه، إذ قد تهيّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجَّة، واتّسعت المحَجَّة، فكان المقام للأمر باتّباع الرسول والإيمان. وكذلك شأن الخطيب إذا تهيّأت الأسماع، ولانت الطباع. ويسمَّى هذا بالمقصد من الخطاب، وما يتقدّمه بالمقدّمة. [التحرير والتنوير].

٥٠٩٦. تفيد عموم رسالة النبي محمد ﷺ إلى الناس كافة؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

٥٠٩٧. تفيد جملة من مشاهد رحمة الله بالناس:

- فمن ذلك نداؤهم وتنبيههم، وتخصيصهم في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليقبلوا على ربهم المنادِي.
- ومن ذلك مجيء الرسول المعهود عندكم بصدقه، وأمانته، ونصحه بالحق.
- ومن ذلك إضافة اسمه الرب ﷻ إلى ضمير المخاطبين؛ لتتقلب ضمائر قلوبهم؛ وينظروا بعيون أبصارهم في إحسان الرب لهم بأنواع الإحسان، ومن أعظم الإحسان إحسان هداية الإرشاد والبيان والحق التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ. فهذه الجملة الكريمة قد حضت الناس على الإيمان بالرسول ﷺ لأنه لم يجئهم بشيء باطل وإنما جاءهم بالحق الثابت الموافق لفطرة البشر أجمعين، ولأنه لم يجئهم بما جاءهم به من عند نفسه وإنما جاءهم بما جاءهم به من عند الله - تعالى - ولأنه لم يجئهم بما يفضي بهم إلى الشرور والآثام، وإنما جاءهم بما يوصلهم إلى السعادة في الدنيا وإلى الفوز برضا الله في الآخرة.

٥٠٩٨. فيها تزكية للنبي ﷺ وبيان أنه جاء بالحق.

٥٠٩٩. تفيد أن كل ما جاء به الرسول الكريم محمد ﷺ حق من عند الله؛ لا يماري ولا يجادل فيها الا فاقد البصيرة؛ متبع لكل شيطان مريد.

٥١٠٠. فيها وجوب اتباع السنة والعمل بها وأنها من مصادر التشريع الحق.

٥١٠١. فيها: قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ يفيد أن من تربية الرب لعباده إرسال الرسل وإنزال الكتب بالحق لهدايتهم وسعادتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

٥١٠٢. تفيد أن الإيمان خير للإنسان من الكفر والعصيان، لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ فالإيمان فيه السعادة في الدنيا والآخرة، والكفر فيه الخسران في الدنيا والآخرة.

٥١٠٣. تفيد غنى الله ﷻ، وأن كفر الكافر لا يضر الله تعالى شيئا بل يضر فاعله؛ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

٥١٠٤. تفيد سعة ملك الله ﷻ، وعظيم سلطانه له ما في السماوات والأرض، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التعلق به وعبادته وذكره وشكره ومحبته وطلب الحاجات منه فإن خزائن السماوات والأرض بيده سبحانه وتعالى.

٥١٠٥. من فوائد ختامها بقوله: ﴿عَلِيمًا﴾ تهديد للكفار؛ وكأنه يقول: أنا عليم بما تقترفون من الكفر، ليس بغائب عنا وسنجازيكم عليه إن أقمتم عليه. وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ طمأنينة للمؤمنين؛ فكأنه يقول: إنما أؤخر عنهم العقوبة لحكمة.

٥١٠٦. تفيد إثبات صفة العلم والحكمة لله سبحانه وتعالى.

٥١٠٧. فيها إشارة إلى: الإيمان بعلم الله الأزلي، لقوله: ﴿ عَلِيمًا ﴾ وكأنه يقول: يعلم من سيؤمن، ويكفر. وعليه: ففيها رد على القدرية. فليس كل من يأمر يعلم من سيمتثل، إلا الله. فهو يأمر وينهى ويعلم ما الناس عاملون.

٥١٠٨. تفيد إثبات اسم العليم والحكيم لله ﷻ؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٥١٠٩. تفيد أن إرسال الرسول وإنزال الكتاب بالحق كان بعلم الله تعالى وحكمته، ولذا يجب التسليم بما فيه والعمل به؛ قال السعدي رحمه الله: "يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة في الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته. وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد وعدل وإحسان، وصدق وبر وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله. وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان. وأما الفائدة في الإيمان فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان. كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما".

قال تعالى:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

٥١١٠. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن أمرت الآية السابقة عموم الناس بالإيمان﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ أمرت هذه الآية أهل الكتاب بالإيمان ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٥١١١. تفيد مع ما قبلها أن أوامر الله ونواهيه كلها خير؛ لقوله تعالى في الآية السابقة:﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ وقوله في هذه الآية: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.

٥١١٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فلما سبق الدعوة للإيمان بالرسول الخاتم ﷺ وما جاء به من ربه، جاء نهي أهل الكتاب عن الغلو في عيسى عليه السلام.

٥١١٣. ومن المناسبات: لما ختمت الآية السابقة بقوله:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ جاء في هذه الآية ذكر علمه سبحانه بجرأة الذين غلوا في رسولهم، وبيان الحق الذي يجب أن يتبعوه.

٥١١٤. تفيد النهي عن الغلو، وأنه من أخطر الأمور على الدين، خصوصاً الغلو في الصالحين، كما حصل من اليهود والنصارى، وقد قال رسول الله ﷺ: "إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم: الغلو". رواه النسائي وغيره.

٥١١٥. تفيد: أن الغلو في الدين يؤدي إلى فساد المعتقد.

٥١١٦. يفيد تقديم النهي عن الغلو في الدين على النهي عن القول على الله بغير الحق؛ إشارة لطيفة إلى أن الغلو هو رأس البلية للمنتسبين إلى الدين؛ فعندما تظهر المغالاة في الدين يظهر القول على الله بغير الحق؛ ولا أدل على ذلك في ديننا من غلو الشيعة في أئمتهم حيث جرَّهم

ذلك إلى القول على الله بغير الحق؛ وهنا تظهر للمتأمل والمتدبر دقة التناسب وروعة التناسق بين الجمل القرآنية. ويظهر أيضا في غلو الصوفية في الأولياء حتى جعلوا لهم تصرُّفاً في الكون، وعبدوهم. وكل هذا من الغلو المؤدي إلى القول على الله بغير الحق والكذب على الله ﷻ.

٥١١٧. تفيد نهي أهل الكتاب عن الغلو في دينهم، وهو خطاب يشمل الأمة المحمدية؛ فهم أيضا أهل كتاب ودين سماوي.

٥١١٨. في الآية إشارة إلى النهي عن تجاوز الحد المألوف... والزيادة على المطلوب شرعًا..

٥١١٩. تفيد أن الغلو في الدين كالنقص منه؛ فكما أن العبد منهي عن النقص في دينه فهو أيضا منهي عن الغلو ومجاوزة الحد فيه.

٥١٢٠. تفيد أنَّ الغلو في الدين لا يشمل التشدد فيه والتنطع فحسب بل يدخل فيه التغيير والتبديل والانحراف العقدي والتشريعي، وأنَّ كلَّ صور مخالفة الشرع بالزيادة أو النقصان، أو التغيير والتبديل والتحريف والتأويل الباطل؛ مما نهى الله عنه وحذَّر عباده منه.

٥١٢١. تفيد حرمة الغلو في الدين سواء أكان متعلقًا بالقول أو الفعل أو الاعتقاد.

٥١٢٢. فيها توجيه لهذه الأمة بعدم الغلو في النبي ﷺ حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه النصارى، وقد أكد هذا المعنى النبي ﷺ في قوله: " لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله " رواه البخاري ومسلم. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلًا قال: محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ". رواه أحمد وغيره.

٥١٢٣. تفيد تحريم القول على الله إلا بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ ويشمل ذلك التبديل والتغيير والتحريف لكل ما يتعلق بالله تعالى؛ ومن ذلك تحريف آيات الصفات وتأويلها عن ظاهرها المراد.

٥١٢٤. هذه الآية تتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصَّ على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية. [السعدي رحمه الله].

٥١٢٥. تفيد أن الحق الذي يتعبد الناس لله به هو فقط فيما نزّل الله تعالى ولا يأتى من سواه.

٥١٢٦. فيها تنبيه على ألا يقال في حق الله تعالى إلا ما أخبر به عن نفسه، أو ما أخبر به رسله.

٥١٢٧. تفيد بإشارة لطيفة إرشادًا وتوجيهًا للدعاة والمصلحين التربويين إلى أهمية انتقاء الألفاظ في العملية التربوية؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ ولم يقل: [ولا تقولوا على الله الباطل] وإن كان المعنى المراد واحدًا؛ إلا أن العبارة القرآنية لها وقعها الكبير ودلالاتها العظيمة والدقيقة في علم النفس والإصلاح التربوي.

٥١٢٨. فيها إثبات الرسالة للمسيح، وإثبات بنوته ونسبته لأمه، وإثبات وجوب الإيمان به على هذا الوجه.

٥١٢٩. تفيد أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لا يستحق من أمر الربوبية والألوهية شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

٥١٣٠. فيها: إنكار القول بالثالوث والنهي عنه وأنَّ القائلين به كفار وفي ذلك رد على من أدخل المثلثين من النصارى في الدين ونفى الكفر عنهم، فطالما عصوا أمر الله بالانتهاء عن القول بالثالوث فقد كفروا كفرًا لا يرده قول.

٥١٣١. فيها: رد على اليهود والنصارى؛ فقوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ رد على النصارى الذين يقولون: هو ابن الله. وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ رد على اليهود الذين يرمونه بالكذب. وهذا من جوامع الكلم.

٥١٣٢. فيها: ذكره – سبحانه بلقبه وباسمه وبنوته لمريم، للإشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس، وبشر كسائر البشر، فهو مولود خرج من رحم أنثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم. وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فيكفي أنَّه قد خرج من رحم أم، وكفى بذلك دليلًا على بشريته.

٥١٣٣. تفيد جواز نسبة الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله تعالى:﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٥١٣٤. فيها: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوبًا للأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله، والله أعلم. قال القرطبي رحمه الله: لم يذكر الله عز وجل امرأة وسماها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعًا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملإ، ولا يبتذلون أسماءهن؛ بل يُكَنُّونَ عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإماء لم يُكَنُّوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت وفي ابنها صرَّح الله باسمها، ولم يُكَنِّ عنها بِالْأُمُوَّةِ والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها.

٥١٣٥. تفيد جواز إطلاق السبب على المسبب؛ لقوله:﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ وبيان ذلك: أن عيسى عليه السلام ليس هو الكلمة نفسها؛ ولكنه خلق بالكلمة؛ فأطلق السبب وأريد المسبب.

٥١٣٦. تفيد بيان شرف ومكانة عيسى عليه السلام عند ربه عز وجل؛ فهو من أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ حيث أضافه الله عز وجل إلى نفسه الشريفة العلية؛ تشريفا وتكريما له عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى:﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ... وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فاللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى خير خلقك وأشرف عبادك؛ نبينا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد بن عبد الله؛ وعلى آله وصحبه، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون.

٥١٣٧. تفيد وجوب هذا الاعتقاد الصحيح في شأن عيسى بن مريم ﷺ، فعن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ". رواه البخاري ومسلم.

٥١٣٨. تفيد وجوب الإيمان بالله ورسله كلهم جميعا جملة وتفصيلا؛ لقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾.

٥١٣٩. فيها: إشارة إلى أنه ينبغي عند الحديث عن التوحيد والأمر به، أن ينهى عن ضده؛ لقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ ولقوله: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ولذا كانت كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" نفي وإثبات. فينبغي على الدعاة إلى الله أن يهتموا بالتوحيد، ويحذروا من ضده.

٥١٤٠. في الآية ترغيب في الإيمان والطاعة وترهيب شديد لمن يستمر على الكفر والشرك.

٥١٤١. تفيد بإشارة لطيفة ودقيقة، إرشادات وهدايات لمن يتصدون للدعوة إلى الله وتصحيح عقائد الناس؛ وذلك من خلال الاهتمام بذكر المقولات والعقائد الصحيحة، قبل ذكر وبيان المقولات والعقائد الباطلة؛ وذلك حرصًا على قلوب العباد من أن تتمكن منهم المقولات الباطلة والأهواء المنحرفة حال خلوها من المقولة الحقة، والعقيدة الصحيحة، ثم بعد ذلك الإتيان بالمقولة الباطلة والرد عليها الرد المناسب، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ... وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ... إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ ﴾.

٥١٤٢. تفيد جواز حذف ما يُعلم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾.

٥١٤٣. تفيد بإشارة لطيفة إلى أهمية أن يكتفى بالكلمة التي تجتمع عليها مذاهب أهل الباطل؛ ليكون الرد شاملًا وعاما لجميع الفرق التي تندرج تحته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ فاكتفى ﷻ بكلمة [ثلاثة] وحذف المبتدأ، وذلك ليصلح لكل ما يصلح تقديره من مذاهبهم

من التثليث، حيث إنهم اضطربت أقوالهم في حقيقة التثليث؛ وكيفيته؛ وفي هذا دلالة على دقة العبارة القرآنية في إيراد مذاهب أهل الباطل وما تجتمع عليه أقوالهم الباطلة في المذهب؛ والرد عليهم جميعا؛ قال ابن كثير رحمه الله: وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال في أولها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالنصارى – عليهم لعنة الله – من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده شريكًا، ومنهم من يعتقده ولدًا. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولًا. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير؛ وهو سعيد بن بطريق – بترك الإسكندرية – في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفا، فكانوا أحزابا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرا، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها – وكان فيلسوفا ذا هيئة – ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبا وقوانين، وأحدثوا الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار – ليعتقدوها – ويعمدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانيا فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعا ثالثا فحدث فيهم النسطورية. وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا، أو ما اتحدا،

بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة.

٥١٤٤. تفيد أن من تاب من عقيدة التثليث وانتهى عنها، تاب الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

٥١٤٥. تفيد أهمية العناية بمسائل العقيدة والتوحيد؛ وضرورة تجنب الألفاظ الشركية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

٥١٤٦. تفيد انفراد الله تعالى بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾. وهذا الإثبات لوحدانية الله – تعالى – بأقوى طريق. أي: إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله – تعالى – ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدبر لأمره.

٥١٤٧. تفيد أن الله ﷻ منزه عن أن يكون له ولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وذلك لأن الإلهية تنافي الكون أبا واتخاذ ابن، لاستحالة الفناء، والاحتياج، والانفصال، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى. والبنوة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأن النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع، والناس يتطلبونها لذلك، وللإعانة على لوازم الحياة، وفيها انفصال المولود عن أبيه، وفيها أن الابن مماثل لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة.

٥١٤٨. تفيد انفراد الله تعالى بملك السموات والأرض وما فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر والانفراد.

٥١٤٩. تفيد بإشارة لطيفة إلى أهمية ذكر الدلائل النقلية والعقلية في أثناء الردود على مقولات أهل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٥١٥٠. فيها تنزيه الله تعالى ذاته المقدسة عما ينسبه إليه المفترون، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾.

٥١٥١. فيها: قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تذييل قصد به بيان سعة قدرته – سبحانه وهيمنته على هذا الكون. والوكيل: هو الحافظ والمدبر لأمر غيره.

٥١٥٢. تفيد أن الله ﷻ وكيل على مخلوقاته الموجودة في السموات والأرض؛ فهو الرب والحافظ لهم ﷻ؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٥١٥٣. يفيد حذف مفعول [كفى] للدلالة على العموم؛ أي: كفى كل أحد من مخلوقاته؛ وفي هذه العبارة ما يوجب على العباد صدق الاعتماد على الله والتوكل عليه والاستعانة به جل جلاله، فمن توكل على الله وحده - لا على من يزعمونه ابنًا له، ولا نبيًا ولا وليًّا - فإنَّ الله حسبه وكافيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

٥١٥٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها: فلما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزههم عن الاستنكاف وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده. أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالًا، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

٥١٥٥. فيها: صدَّر - سبحانه - الجملة بحرف [لن] المفيد للنفي المؤكد، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عن عبادة الله والخضوع له أمر مستمر وثابت ثبوتًا لا شك

فيه، لأنه - سبحانه - هو الذي خلق الخلق ورزقهم. ومن حقه عليهم أن يعبدوه، ويذعنوا لأمره، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال الشاعر الحكيم:

وممـا زادني شـرفاً وتيهـا   وكـدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي   وأن صـيرت أحمـد لي نبياً

٥١٥٦. فيها إشارة إلى: عظم قدر ووجاهة عيسى عليه السلام، والملائكة عند الله - جل ذكره -.

٥١٥٧. فيها أن كمال العبودية يورث العبد التواضع والذل والانكسار لله تعالى؛ فأعظم مقام هو مقام العبودية لله عز وجل.. قال ابن عاشور رحمه الله: وعُدل عن طريق الإضافة في قوله: ﴿ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ فأظهر الحرف الّذي تقدّر الإضافة عليه: لأنّ التنكير هنا أظهر في العبودية، أي عبداً من جملة العبيد، ولو قال: عبدَ اللهِ لأوهمت الإضافة أنّه العبد الخِصّيص، أو أنّ ذلك علَم له. وأمّا ما حكى الله عن عيسى عليه السلام في قوله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [مريم: ٣٠] فلأنّه لم يكن في مقام خطاب من ادّعوا له الإلهية.

٥١٥٨. فيها: أن العبد مهما كانت مكانته لا يصلح أن يكون إلهًا أو معبودًا لأنه هو المحتاج.

٥١٥٩. فيها: ذكر الملائكة إلى جانب المسيح لبيان أن هناك من يعبد الملائكة.

٥١٦٠. تفيد إثبات الإيمان بالملائكة، وهو من أركان الإيمان.

٥١٦١. في الآية بيان أن المشركين على خطى النصارى وما قيل في الآيات السابقة في حق النصارى من نسبة الولد لله تعالى يُقال في حق المشركين في نسبة الملائكة لله تعالى فهذا تناسب بديع في ذكر عقائد النصارى وإبطالها ثم عطف الملائكة على المسيح في عدم استنكافه أن يكون عبداً لله تعالى لبيان أنَّ الأصل الذي انطلقت منه النصارى هو ذات الأصل الذي عليه المشركون وهذا سر إدماج الملائكة في سياق الحديث عن عقائد النصارى في المسيح عليه السلام، ومن هذا الإدماج قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠]؛ ولذلك كانت اعتقادات النصارى ومن على شاكلتهم في البشر

المشاهدين، وكانت اعتقادات المشركين في الملائكة الغيبيين؛ تشابهت قلوبهم وعقولهم؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرد على البكري: أن أصول الشرك ترجع إلى عبادة البشر الصالحين كالأنبياء، وعبادة الملائكة. وهو أكثر شرك بني آدم يعني عبادة الصالحين. وفيه أيضاً رد على قولهم بألوهية جبريل عليه السلام بجانب ألوهية المسيح، ولدرء القول بالثالوث جملة فقد أثبت عبودية المسيح والملائكة المقربون ولم يخص جبريل حتى لا يقال أن من يؤلهونه من الملائكة غير جبريل، فأجمل الملائكة المقربون بفئاتهم، وفي ذلك دلالة أيضا على وجود تفاوت في الدرجات والفضل بين الملائكة، فإن كان أقربهم لله عبدا خاضعا كان من دونهم أولى.

٥١٦٢. تفيد أن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف. والله – تعالى – ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

٥١٦٣. فيها: التهديد والوعيد لكل من استنكف عن عبادة ربه.

٥١٦٤. فيها: الاستنكاف في القلب ناتج عن كبرياء في القلب، بينما الاستكبار فعلي بأن يترك العبادة تكبرًا.

٥١٦٥. فيها أن العبد كلما كان لله أعبد كان إليه أقرب وكلما استنكف عن عبادة ربه واستكبر كان منه أبعد.

٥١٦٦. يفيد التعبير بقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ دون أن يقال: [لن يستنكف المسيح عن عبادة الله] وذلك للدلالة على كمال نزاهة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية؛ وانه مستمر على ذلك في حال حياته وبعد مماته؛ ويستتبع وصف العبادة؛ بخلاف وصف العبادة فهي حالة متجددة غير مستلزمة للدوام؛ فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عنها عدم الاستنكاف عن دوامها.

٥١٦٧. فيها ذم الكبر والاستنكاف عن عبادة الله تعالى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الكبر أسوء من الشرك لأن المشرك يعبد الله ويعبد غيره، والمتكبر يتكبر عن عبادة الله عز وجل.

٥١٦٨. تفيد أن الملائكة على مراتب؛ فمنهم المقربون ومنهم دون ذلك، كما فضل الله تعالى بين الرسل، وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥].

٥١٦٩. تفيد وجوب عبادة الله وحده؛ لأن الله عز وجل ذم الذين يستنكفون عن عبادته. وأول أمر في القرآن الكريم كان الأمر بعبادة الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] وأول فعل في القرآن الكريم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة:٥].

٥١٧٠. فيها: إثبات قضية البعث.

٥١٧١. فيها: كلٌ سيبعث ابن آدم وغيره من المخلوقات.

٥١٧٢. تفيد إثبات الحشر، وهو داخل في الإيمان باليوم الآخر.

٥١٧٣. فيها: حمل الناس وزجرهم عن المنهيات وحضهم على فعل الأوامر، بتخويفهم وتذكيرهم بيوم القيامة فحسب؛ فحسب الحديث عن المحشر أن يكف النفس. لقوله-مهددًا-: ﴿فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ ولم يقل: سنفعل به كذا وكذا.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧٣].

٥١٧٤. فيها مع ما قبلها: إثبات الجزاء والحساب يوم القيامة على أعمال العباد.

٥١٧٥. تفيد فضل الإيمان والعمل الصالح في نيل الأجور العظيمة والفضل الجزيل من الله عز وجل.

٥١٧٦. تفيد أهمية العمل الصالح في الإيمان ولذلك نص عليه في الآية، وأهل السنة والجماعة يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

٥١٧٧. فيها الرد على الجبرية لقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأضاف العمل إليهم.

٥١٧٨. فيها إثبات فضل الله تعالى على الذين آمنوا به، وإثبات عدله على الذين استكبروا وصدوا عن دينه.

٥١٧٩. فيها إشارة إلى حاجة العبد إلى فضل الله، وإن أتى بالصالحات وكان من أهل الجنة؛ لقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ... وَيَزِيدُهُم﴾.

٥١٨٠. فيها: قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب، والمناكح، والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح. [السعدي رحمه الله].

٥١٨١. تفيد كرم الله عز وجل حيث سمى ثواب العمل أجرا مع أنه المتفضل بالهداية للإيمان والعمل الصالح، فما أكرمك ربنا!.

٥١٨٢. فيها إشارة إلى عدل الله؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

٥١٨٣. فيها ذم الاستكبار عن قبول الحق بعد معرفته؛ فهو من أشد الذنوب ويستحق أشد العقوبة.

٥١٨٤. تفيد أن الاستكبار عن عبادة الله تعالى من أعظم أسباب العذاب الأليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

٥١٨٥. تفيد أن عذاب الله عز وجل أليم شديد، وفي ضمن ذلك التخويف مما يوقع في هذا العذاب الأليم من المعاصي.

٥١٨٦. فيها: أهمية ولاية الله للعبد، ومن تولاه الله فقد وجب له النصرة والتأييد. فالحذر الحذر مما يمحقها؛ فعلى العبد أن يسعى لهذه الولاية سعيًا حثيثًا.

٥١٨٧. تفيد أنهم: لا يجدون أحدًا من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَن ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا رادّ لحكمه ولا مغيّر لقضائه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

٥١٨٨. فيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء وتنبيه لأهمية ما سيرد بعده.

٥١٨٩. تفيد أن القرآن الكريم نازل لجميع الناس؛ ويترتب على ذلك عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

٥١٩٠. فيها أن أعظم وأثبت البراهين ما كان من الله تعالى.

٥١٩١. فيها: البرهان: الحجّة، وقد يخصّص بالحجّة الواضحة الفاصلة، وهو غالب ما يقصد به في القرآن، ولهذا سمّى حكماء الإسلام أجَلّ أنواع الدليل، بُرهاناً. والمراد هنا دلائل النبوة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فكل ما دل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو برهان. قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] وقال لمن قال: لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١١١]. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق، قد أقام الله على صدقه براهين كثيرة وصار محمد صلى الله عليه وسلم نفسه برهانا، فأقام من البراهين على صدقه؛ فدليل الدليل دليل، وبرهان البرهان برهان، وكل آية له برهان، والبرهان اسم جنس لا يراد به واحد، كما في قوله: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] ولو جاءوا بعدة براهين كانوا ممتثلين. والمقصود أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دال على صدقه، وهو بينة من الله كما قال قتادة، وحجة من الله كما قال مجاهد

والسـدي: المؤمن على تلك البينة، ويتلوه شـاهد من الله وهو النور الذي أنزله مع البرهان والله أعلم. مجموع الفتاوى [١٥/٨٠ - ٨١].

٥١٩٢. تفيد أهمية تعلم اللغة العربية لمن لا يعلمها؛ من أجل الوصول إلى الاستفادة القصوى من براهين القرآن الكريم وأنواره وأساليبه وحججه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ولا شـك أن الأعجمي الذي لا يعلم العربية، قد لا يسـتفيد من أنوار القرآن الكريم وبراهينه بالصـورة المطلوبة، لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ [الشعراء: ١٩٨ – ١٩٩].

٥١٩٣. تفيد إثبات الربوبية لله تعالى، وأن من مقتضى ربوبيته إرسال الرسل وإنزال الكتب، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

٥١٩٤. في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ما يدل على شـرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

٥١٩٥. تفيد إثبات علو الله سبحانه وتعالى على خلقه لقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾؛ لأن النزول لا يكون إلا من علو.

٥١٩٦. فيها: قال: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ مع أن المنزل عليه هو النبي ﷺ للإشعار بكمال اللطف بهم، وللمبالغة في إزالة أعذارهم.

٥١٩٧. فيها: وصف الشرائع والمواعظ والآداب والحكم التي اشتمل عليها القرآن الكريم بالنور المبين أي الواضح الظاهر، لأن هذه الشرائع والآداب. لا يخفى صدقها واشتمالها على الحق إلا على من انطمست بصيرته، وفسدت مداركه.

٥١٩٨. تفيد أن القرآن نور، يستنير به القلب والوجه والبصيرة.

٥١٩٩. تفيد أن العالم كان في ظلام دامس قبل مجيء الوحي ونزول القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

٥٢٠٠. تفيد الآية أن كل تشريع بشري وقانون وضعي ناقص وغير مجدي، ولن يصحح واقعا ويُقوّي نظاما ويهدي مجتمعا ما لم يكن مستمدا من كتاب الله تعالى الذي أنزله الله لعباده: ﴿ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥].

٥٢٠١. في مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها: لَمّا أشارَ في هَذِهِ الآيَةِ إلى الرَّسُولِ الأصْفى؛ والنَّبِيِّ الأهْدى؛ المَجْبُولِ عَلى هَذا العَقْلِ الأقْوَمِ الأجْلى؛ والكِتابِ الأتَمِّ الأوْفى؛ الجارِي عَلى هَذا القانُونِ الأعْلى؛ الوافِي تَعْبِيرُهُ؛ الوَجِيزِ بِأحْكامِ الأُولى والأُخْرى؛ الكَفِيلِ سِياقُهُ وتَرْتِيبُ آياتِهِ بِوُضُوحِ الأدِلَّةِ؛ وظُهُورِ الحُجَجِ؛ أخَذَ يُقَسِّمُ المُنْذَرِينَ؛ فَقالَ [تعالى]: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أيْ: الَّذِي اتَّضَحَ أنَّهُ لا أمْرَ لِأحَدٍ مَعَهُ في ذاتِهِ؛ وصِفاتِهِ؛ وأفْعالِهِ؛ وأحْكامِهِ؛ وأسْمائِهِ؛ بِما دَلَّ عَلَيْهِ قاطِعُ البُرْهانِ؛ ﴿ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ ﴾ أيْ: جَعَلُوهُ عِصامًا لَهم في الفَرائِضِ الَّتِي هي مِن أعْظَمِ مَقاصِدِ هَذِهِ السُّورَةِ؛ يَرْبِطُهُمْ؛ ويَضْبِطُهم عَنْ أنْ يَضِلُّوا بَعْدَ الهُدى؛ ويَرْجِعُوا مِنَ الِاسْتِبْصارِ إلى العَمى؛ لِأنَّ العِصامَ هو الرّابِطُ لِلْوِعاءِ أنْ يَخْرُجَ شَيْءٌ مِمّا فِيهِ؛ وصِيغَةُ الِافْتِعال تَدُلُّ عَلى الِاجْتِهادِ في ذَلِكَ؛ لِأنَّ النَّفْسَ داعِيَةٌ إلى الإهْمالِ؛ المُنْتِجِ لِلضَّلالِ؛ ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ ﴾ أيْ: بِوَعْدٍ لا خُلْفَ فِيهِ؛ ولَعَلَّ السِّينَ ذُكِرَتْ لِتُفِيدَ - مَعَ تَحْقِيقِ الوَعْدِ - الحَثَّ عَلى المُثابَرَةِ؛ والمُداوَمَةِ؛ عَلى العَمَلِ؛ إشارَةً إلى عِزَّةِ ما عِنْدَهُ - سُبْحانَهُ -؛ ﴿ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أيْ: ثَوابٍ عَظِيمٍ؛ هو بِرَحْمَتِهِ لَهُمْ؛ لا بِشَيْءٍ اسْتَوْجَبُوهُ؛ وأشارَ إلى البِرِّ؛ عَلى ما تَقْتَضِيهِ أعْمالُهُمْ؛ لَوْ كانَتْ لَهُمْ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ أيْ: عَظِيمٍ؛ يَعْلَمُونَ أنَّهُ زِيادَةٌ؛ لا سَبَبَ لَهم فِيها؛ ﴿ وَيَهْدِيهِمْ ﴾ أيْ: في الدُّنْيا؛ والآخِرَةِ؛ ﴿ إِلَيْهِ صِرَٰطًا ﴾ أيْ: عَظِيمًا؛ واضِحًا جِدًّا؛ ﴿ مُّسْتَقِيمًا ﴾ أيْ: هو مُرْشِدُ قَوْمِهِ؛ كَأنَّهُ

طالِبٌ لِتَقْوِيمِ نَفْسِهِ؛ فَهو يُوصِلُهُمْ؛ لا مَحالَةَ؛ إلى وعْدِهِ بِما يَحْفَظُهم في سِرِّهِمْ وعَلَنِهِمْ؛ يَسْتَجْلِي أنْوارَ عالَمِ القُدْسِ في أرْواحِهِمْ؛ وتَوْفِيقِهِمْ لِاتِّباعِ ما هَدَتْ إلَيْهِ مِن أمْرِ الفَرائِضِ؛ وغَيْرِها؛ فَقَدْ أتى - كَما تَرى - بِـ "أمّا"؛ المُقْتَضِيَةِ لِلتَّقْسِيمِ؛ لا مَحالَةَ؛ وأتى بِأحَدِ القِسْمَيْنِ المَذْكُورَيْنِ في الآيَةِ الَّتِي قَبْلَها؛ ووَصَفَهم بِالِاعْتِصامِ بِاللَّهِ؛ في النُّصْرَةِ؛ وقَبُولِ جَمِيعِ أحْكامِهِ؛ في الفَرائِضِ وغَيْرِها؛ وافَقَتْ أهْوِيَتَهم أوْ خالَفَتْها؛ تَعْرِيضًا بِالمُنافِقِينَ الَّذِينَ والَوْا غَيْرَهُمْ؛ وبِالكافِرِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِبَعْضٍ؛ وكَفَرُوا بِبَعْضٍ؛ وتَرَكَ القِسْمَ الآخَرَ؛ وهو قِسْمُ المُسْتَنْكِفِينَ؛ والمُسْتَكْبِرِينَ؛ ووَضَعَ مَوْضِعَهُ حُكْمًا مِن أحْكامِ الفَرائِضِ المُفْتَتَحِ بِها السُّورَةُ؛ الَّتِي هي مِن أعْظَمِ مَقاصِدِها مِن غَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ؛ بَلْ بِكَمالِ الِاتِّصالِ؛ فَقالَ - مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ تَكْرِيرَ السُّؤالِ عَنِ النِّساءِ؛ والأطْفالِ؛ بَعْدَ شافِي المَقالِ؛ مُبَيِّنًا أنَّهُ قَدْ هَدى في ذَلِكَ كُلِّهِ أقْوَمَ طَرِيقٍ -. [نظم الدرر].

٥٢٠٢. هذه الآيات الكريمة نهت أهل الكتاب عن المغالاة في شأن عيسى - عليه السلام -، وعرفتهم حقيقته، ودعتهم إلى الإيمان بوحدانية الله، وبينت لهم ولغيرهم أن عيسى وغيره من الملائكة المقربين لن يستنكفوا عن عبادة الله، وان من امتنع عن عبادة الله فسيحاسبه - سبحانه - حسابا عسيرا، ويجازيه بما يستحقه من عقاب. أما من آمن بالله - تعالى - واتبع الحق الذي أنزله على رسله، فسينال منه - سبحانه - الرحمة الواسعة، والفضل العظيم، والسعادة التي ليست بعدها سعادة.

٥٢٠٣. تفيد فضل الإيمان بالله وتقديمه على غيره من الواجبات والمستحبات لأنه المصحح لها.

٥٢٠٤. فيها دليل على فضيلة الإيمان والتوكل عليه سبحانه.

٥٢٠٥. تفيد فضل الاعتصام بالله عز وجل، أي: اللجوء إليه والاعتماد عليه والتبرؤ من الحول والقوة والاستعانة به جل وعلا.

٥٢٠٦. فيها أن الهداية إلى الصراط المستقيم مع أنها منّة من الله وفضل ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] إلا أن الله تعالى جعل لها أسبابا ومنها هنا: الإيمان والاعتصام به

تعالى كما أن منها الدعاء﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] والمجاهدة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٥٢٠٧. فيها: السين في قوله:﴿ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ ﴾ تدل على القرب ولذلك نجد أن أنعم الناس بالاً وأكثرهم انشراحا في الصدور هم المؤمنون المعتصمون به سبحانه.

٥٢٠٨. تفيد أن الجنة من رحمة الله ويدخلها المؤمن برحمة الله؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء".

٥٢٠٩. فيها: الرحمة صفة من صفات الله، وهنا تطلق على آثارها لأنه قال:﴿ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ ﴾.

٥٢١٠. يفيد تَقْديم ذِكْرِ الوَعْدِ بِإدْخالِ الجَنَّةِ عَلى الوَعْدِ بِالهِدايَةِ إلَيْها - عَلى خِلافِ التَّرْتِيبِ في الوُجُودِ بَيْنَ المَوْعُودَيْنِ - لِلْمُسارَعَةِ إلى التَّبْشِيرِ بِما هو المَقْصِدُ الأصْلِيُّ.

٥٢١١. فيها حسن عاقبة المستجيبين للحق، السالكين الطريق المستقيم.

٥٢١٢. فيها هذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

٥٢١٣. تفيد أن تحقيق الإيمان والاستقامة على هدي القرآن الكريم عليهما مدار الهداية والسعادة.

٥٢١٤. تفيد الترغيب في تحقيق الإيمان بالله والاعتصام بكتبه بما ذكره بما يترتب عليه من عظيم ثوابه.

٥٢١٥. في قوله:﴿ وَفَضۡلٖ ﴾ دليل على أنه تعالى يتفضل على عباده بثوابه؛ إذ لو كان في مقابلة العمل لما كان فضلا. والله أعلم. القرطبي.

٥٢١٦. فيها: فضل الله لا يُحد بحد لكل من آمن به واعتصم.

٥٢١٧. تفيد أن المؤمن يكرم في الجنة بمزيد فضل [وفضل] يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة كالنظر إلى وجهه الكريم وغيره من مواهب الجنة.

٥٢١٨. مجيء الرحمة والفضل نكرة فيه دليل على أن رحمة الله وفضله درجات متفاوتة بحسب قوة الإيمان بالله وشدة الاعتصام به يؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ" رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥٢١٩. فيها الجمع بين الرحمة وهي أعم والفضل وهو أخص، ليدل الأول على أن جميع أهل الإيمان والاعتصام ينالهم نصيبهم من الرحمة، ويدل الثاني على تفاضلهم في الفضل بينهم. فيفيد مجموع ذلك الحث على المسارعة لنيل موجبات الرحمة والفضل.

٥٢٢٠. تفيد أن من تمسك بالقرآن عصم من شرور كثيرة.

٥٢٢١. فيها: من آثار الإيمان به والاعتصام الهداية﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ ﴾.

٥٢٢٢. تفيد أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى وحده.

٥٢٢٣. تفيد أن من آمن بالله واعتصم به فإن إيمانه واعتصامه سبب للهداية، لقوله:﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾. أفاده ابن عثيمين.

٥٢٢٤. تفيد أن الصراط الهادي إلى الله عز وجل مستقيم لا اعوجاج فيه لقوله:﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾.

٥٢٢٥. فيها: أن الصراط الهادي إليه سبحانه مستقيم لا اعوجاج فيه.

٥٢٢٦. تفيد بمفهوم المخالفة أن من لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالا مبينا، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة. وقد

ذكرت الآية ثواب الذين آمنوا بالله واعتصموا به، ولم تذكر عقاب الذين كفروا إهمالا لهم، لأنهم في حيز الطرد والطرح، أو لأن عاقبتهم السيئة معروفة لكل عاقل بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر الله. قال ابن عاشور: ويكون مُعادل هذا الشقّ محذوفاً للتهويل، أي: وأمّا الذين كفروا فلا تسل عنهم.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

٥٢٢٧. تفيد مع ما قبلها أن من استنكف واستكبر عن التوريث بالصورة التي شرعها الله تعالى في كتابه؛ وتولى بيان أحكامها بنفسه سبحانه وتعالى في كتاب يتلى إلى قيام الساعة؛ فقد استنكف عن عبادته؛ واستكبر؛ وإن آمن بجميع ما عداه من الأحكام؛ ومن استنكف عن حكم من الأحكام فذاك هو الكافر حقا؛ كما أن من آمن ببعض الأنبياء؛ وكفر ببعض؛ فهو الكافر حقا. وفي هذا يظهر للمتأمل والمتدبر سر التناسق الموضوعي في خواتيم هذه السورة الكريمة؛ وعلاقة أولها بآخرها؛ وفاتحتها بخاتمتها؛ وعلاقة موضوعاتها بمحورها الكلي. وفي هذا رد على الدعوات الباطلة التي تأتي من هنا وهناك؛ وبين الفينة والأخرى؛ لإعادة النظر فيما جاء في كتاب الله تعالى في مسائل المواريث.

٥٢٢٨. تفيد مع التي قبلها أن علم المواريث مما يعتصم به خاصة في زمان دعوى المساواة بين الرجل والمرأة.

٥٢٢٩. تفيد مع التي قبلها أن علم المواريث من الهدى إلى الصراط المستقيم فبينه الله تعالى لئلا نضل عنه.

٥٢٣٠. صدر السورة الكريمة يمثل الاحتفاء بالبشرية في أصلها وانتشارها.. وآخرها يحتفي بها في حال انفرادها وكونها كلالة.. هذا من وجه، ومن وجه آخر تلك العناية بالضعفاء المتمثلة في اليتامى في أول السورة والكلالة في آخرها.. وما بين ذلك تفصيل يدور في هذا الفلك.. فتبارك الله أرحم الراحمين.

٥٢٣١. ناسب ختم السورة مبتدأها، فقد ابتدأت بالكلام حول أحكام المواريث وجاء الختم كذلك..

٥٢٣٢. تفيد مع فاتحة سورة النساء أن علم المواريث بإعطاء كل ذي حق حقه مما يعزز صلة الرحم ويقويها.

٥٢٣٣. تَأْخِيرَ هَذِهِ الآيَةِ إلى هُنا لِما تَقَدَّمَ مِن أنَّ تَفْرِيقَ القَوْلِ فِيما تَأْباهُ النُّفُوسُ؛ وإلْقاءَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ بِاللُّطْفِ والتَّدْرِيجِ؛ أدْعى لِقَبُولِهِ؛ ولِلْإشارَةِ إلى شِدَّةِ الاهْتِمامِ بِأمْرِ الفَرائِضِ؛ بِجَعْلِ الكَلامِ فِيها في جَمِيعِ السُّورَةِ؛ أوَّلِها؛ وأثْنائِها؛ وآخِرِها؛ والتَّخْوِيفِ مِن أنْ يَكُونَ حالُهم كَحالِ المنافِقِينَ في إضْلالِ أهْلِ الكِتابِ لَهُمْ؛ بِإلْقاءِ الشُّبْهَةِ؛ وأخْذِهِمْ مِنَ المَوْضِعِ الَّذِي تَهْواهُ نُفُوسُهُمْ؛ ومَضَتْ عَلَيْهِ أوائِلُهُمْ؛ وأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ؛ والتَّرْهِيبِ مِن أنْ يَكُونُوا مِثْلَهم في الإيمانِ بِبَعْضٍ؛ والكُفْرِ بِبَعْضٍ؛ فَيُؤَدِّيهِمْ ذَلِكَ إلى إكْمالِ الكُفْرِ؛ لِأنَّ الدِّينَ لا يَتَجَزَّأُ؛ بَلْ مَن كَفَرَ بِشَيْءٍ مِنهُ كَفَرَ بِهِ جَمِيعِهِ؛ ومِن هُنا ظَهَرَتْ مُناسَبَةُ آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ لِأوَّلِها؛ لِأنَّ أوَّلَها مُشِيرٌ إلى أنَّ النّاسَ كُلَّهم كَشَيْءٍ واحِدٍ؛ وذَلِكَ يَقْتَضِي عَدَمَ الفَرْقِ بَيْنَهُمْ؛ إلّا فِيما شَرَعَهُ اللَّهُ؛ وآخِرُها مُشِيرٌ إلى ذَلِكَ بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ النِّساءِ؛ والرِّجالِ؛ في مُطْلَقِ التَّوْرِيثِ؛ بِقُرْبِ الأرْحامِ؛ وإنِ اخْتَلَفَتِ الأنْصِباءُ؛ فَكَأنَّهُ قِيلَ: "يا أيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ؛ وخَلَقَ مِنها زَوْجَها؛ وبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثِيرًا ونِساءً؛ وسَوّى بَيْنَهم فِيما أرادَ مِنَ الأحْكامِ؛ فَإنَّهُ مَنِ اسْتَكْبَرَ - ولَوْ عَنْ حُكْمٍ مِن أحْكامِهِ - فَسَيُجازِيهِ يَوْمَ الحَشْرِ؛ ولا يَجِدُ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ناصِرًا؛ ولا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِن حالِهِ"؛ وما أشَدَّ مُناسَبَةَ خِتامِها بِإحاطَةِ العِلْمِ؛ لِما دَلَّ عَلَيْهِ أوَّلُها؛ مِن تَمامِ القُدْرَةِ!

فَكانَ آخِرُها دَلِيلًا عَلى أوَّلِها؛ لِأنَّ تَمامَ العِلْمِ مُسْتَلْزِمٌ لِشُمُولِ القُدْرَةِ؛ قالَ الإمامُ: وهَذانِ الوَصْفانِ هُما اللَّذانِ بِهِما ثَبَتَتِ الرُّبُوبِيَّةُ؛ والإلَهِيَّةُ؛ والجَلالُ؛ والعِزَّةُ؛ وبِهِما يَجِبُ عَلى العَبْدِ أنْ يَكُونَ مُطِيعًا لِلْأوامِرِ؛ والنَّواهِي؛ مُنْقادًا لِكُلِّ التَّكالِيفِ؛ انْتَهى؛ ولِخِتامِ أوَّلِ آيَةٍ فِيها بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] أيْ: وهو بِكُلِّ شَيْءٍ مِن أحْوالِكُمْ؛ وغَيْرِها؛ عَلِيمٌ؛ فَلا تَظُنُّوا أنَّهُ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ وإنْ دَقَّ؛ فَلْيَشْتَدَّ حَذَرُكم مِنهُ؛ ومُراقَبَتُكم لَهُ؛ وذَلِكَ أشَدُّ شَيْءٍ مُناسَبَةً لِأوَّلِ "المائِدَةِ"؛ واللَّهُ المُوَفِّقُ بِالصَّوابِ؛ وإلَيْهِ المَرْجِعُ؛ والمَآبُ. نظم الدرر للبقاعي.

٥٢٣٤. فيها: قد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بآية الصيف، وعُرِفت بذلك، كما عُرفت آية الكلالة التي في أوّل السورة بآية الشتاء، وهذا يدلّنا على أنّ سورة النّساء نزلت في مدّة متفرّقة من الشتاء إلى الصيف.

٥٢٣٥. فيها توجيه للمحافظة على تماسك أواصر المجتمع الفاضل.

٥٢٣٦. فيها تعظيم لشأن الرحم ورابطة القرابة، حيث يدوم أثرها، ويستمر نفعها حتى بعد الموت..

٥٢٣٧. تكلمت السورة في أولها ووسطها عن أحكام النساء وختمت بها.

٥٢٣٨. في الآية حرمة أموال الناس وعدم التصرف فيها الا بإذن من الشارع.

٥٢٣٩. فيها: التعبير بصيغة المضارع في مادة السؤال طريقة مشهورة، نحو: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ... وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. لأنّ شأن السؤال يتكرّر، فشاع إيراده بصيغة المضارع، وقد يغلب استعمال بعض صيغ الفعل في بعض المواقع، ومنه غلبة استعمال المضارع في الدعاء في مقام الإنكار: كقول عائشة «يرحم الله أبا عبد الرحمن» (تعني ابن عمر). وقولهم: «يغفر الله له». ومنه غلبة الماضي مع لا النافية في الدعاء إذا لم تكرّر لا؛ نحو «فَلا رَجَع». على أنّ الكلالة قد تكرّر فيها السؤال قبل نزول الآية وبعدها. أفاده ابن عاشور.

٥٢٤٠. في الآية توجيه لطلب الفتيا في الأحكام الشرعية ممن هو أهل لذلك..

٥٢٤١. فيها تكريم للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم... دل على ذلك كاف الخطاب، وأنه مصدر للفتوى.

٥٢٤٢. فيها تنويه بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم الذين لم يتركوا شيئا إلا سألوا نبيهم عنه؛ ليحيوا على منهاج الله؛ وفق ما أراد الله.

٥٢٤٣. فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يفتي من تلقاء نفسه، بل مستنده الوحي، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾. قال ابن عاشور: وأمَره بأن يجيب بقوله: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ للتنويه بشأن الفريضة، فتقديم المسند إليه للاهتمام لا للقصر، إذ قد علم المستفتون أنّ الرسول لا ينطق إلاّ عن وحي، فهي لما استفتوه فإنّما طلبوا حكم الله، فإسناد الإفتاء إلى الله تنويه بهذه الفريضة.

٥٢٤٤. فيها جواز الإخبار عن الله تعالى بالمفتي ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾.

٥٢٤٥. فيها: تولى - سبحانه - الإجابة مع أن المسئول هو النبي ﷺ، للتنويه بشأن الحكم المسئول عنه، ولتأكيد أن المواريث من الأمور التي تكفل الله ببيانها وتوزيعها وحده، فلا يصح لأحد أن يخالف ما شرعه الحكيم الخبير في شأنها فهو - سبحانه - أعلم بمصالح عباده، وأرحم بهم من آبائهم ومن أبنائهم، ومن كل مخلوق.

٥٢٤٦. فيها عظم شأن الفتوى.

٥٢٤٧. فيها أهمية علم الفرائض.

٥٢٤٨. فيها العناية بالأقرب فالأقرب في الحقوق.

٥٢٤٩. فيها تأكيد على بالغ حكمة الشارع سبحانه وواسع رحمته.

٥٢٥٠. فيها أن الكلالة هو من مات وليس له أصول ولا فروع.

٥٢٥١. فيها: المختار الذي عليه المحققون من العلماء أن الولد هنا عام يتناول الذكر والأنثى، لأن الكلام في الكلالة وهو من ليس له ولد أصلا لا ذكر ولا أنثى وليس له والد - أيضا إلا

أنه اقتصـــر على ذكر الولد ثقة بظهور الأمر. ولأن الولد مشـــترك معنوي وقع نكرة في ســـياق النفي فيعم الابن والبنت. وقال الجرجاني: لفظ الولد ينطلق على الوالد والمولود، فالوالد يســـمى والدا لأنه ولد، والمولود يســـمى ولدا لأنه ولد؛ كالذرية فإنها من ذرا ثم تطلق على المولود وعلى الوالد؛ قال الله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [يس: ٤١].

٥٢٥٢. الآية الكريمة ذكرت صورا أربعا لميراث الإخوة والأخوات للميت الذي لم يترك ولدا ولا والدا. أي الميت الكلالة:

- أن يموت الميت وترثه أخت واحدة. ففي هذه الحالة يكون لها نصـــف تركته بالفرض والباقي للعصبة إن وجدوا، فإن لم يوجدوا فلها الباقي بالرد.

- أن يكون الأمر بالعكس بأن تموت امرأة ويرثها أخ واحد. فيكون له جميع تركتها.

- أن يكون الميت أخا وأختا والوارث أختان فصـــاعدا، ففي هذه الحالة يكون لهما أو لهن الثلثان.

- أن يكون الميت أخا أو أختا، والورثة عدد من الإخوة والأخوات، ففي هذه الحالة تقســـم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

٥٢٥٣. تفيد أن ميراث الأخت لغير أم النصـــف في حال الانفراد وليس معها فرع وارث أو معصب ولا أصل ذكر وارث إن كانت أخت شقيقة وإن كانت أخت لأب يضاف شرط عدم وجود الأشقاء والشقيقات.

٥٢٥٤. فيها أن نفع العمل في الآخرة لا يكون إلا بإضمار النية الصالحة ولما كان الغالب على الناس الذهول عن هذه النية سمى ما ماتوا عنه من المال تركة﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾.

٥٢٥٥. تفيد أنهن أذا اجتمعن اثنتين فصاعدا فلهن الثلثان بالشروط السابقة.

٥٢٥٦. دلت آية [الولد] على أن حكم ما فوق الاثنتين حكم الاثنتين، فكذلك قال في الأخوات:﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ ولم يذكر ما فوقهما؛ فإنه إذا كانت الثنتان

يستحقان الثلثين، فما فوقهما بطريق الأولى والأحرى. أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية، تفسير آيات أشكلت [١٠٥١/٢].

٥٢٥٧. فيها: لفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغارا كما في هذه الآية:﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾.

٥٢٥٨. تفيد إذا كان الإخوة خليط من الجنسين يرثون بالتعصيب للذكر مثل حظ الانثيين ويندرج ذلك تحت قاعدة [يعصب الذكر الأنثى إذا اتحدا جهة ودرجة وقوة] فالأخوات الشقيقات يعصبهن الإخوة الأشقاء والأخوات لأب يعصبهن الإخوة لأب، فيرثون للذكر مثل حظ الانثيين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأما ميراث الأخوات مع البنات: وأنهن عصبة، كما قال:﴿ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ ﴾ -الذي هو قول جمهور الصحابة والعلماء- فقد دل عليه القرآن والسنة ايضا، فإن قوله تعالى:﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ ﴾ فدل على أن الأخت ترث النصف مع عدم الولد. وأنه هو يرث المال كله مع عدم ولدها. وذلك يقتضي أن الأخت مع الولد لا يكون لها النصف مما ترك، إذ لو كان كذلك لكان لها النصف، سواء كان له ولد أو لم يكن له، فكان ذكر الولد تدليسا وعبثا مضرا، وكلام الله منزه عن ذلك. ومن هذا قوله تعالى:﴿ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ ﴾ وقوله:﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ ﴾ [النساء: ١١] وإذ علم أنها مع الولد لا ترث النصف، فالولد إما ذكر وإما أنثى. أما الذكر فإنه يسقطها كما يسقط الأخ بطريق الأولى؛ بدليل قوله:﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ ﴾ فلم يثبت له الإرث المطلق إلا إذا لم يكن لها ولد، والإرث المطلق هو حوز جميع المال، فدل ذلك على أنه إذا كان لها ولد لم يحز المال؛ بل: إما أن يسقط وإما أن يأخذ بعضه. فيبقى إذا كان لها ولد: فإما ابن وإما بنت. والقرآن قد بين أن البنت إنما تأخذ النصف. فدل على أن البنت لا تمنعه النصف الآخر؛ إذا لم يكن إلا بنت، وأخ. ولما كان فتيا الله تعالى إنما هو في الكلالة؛ والكلالة من لا والد له ولا ولد: علم أن من ليس له ولد ووالد، ليس هذا حكمه. مجموع الفتاوى [٣١/٣٤٦-٣٤٧].

٥٢٥٩. الآية كما أنها لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد، فإنها لم تدل على عدم سقوطهم به. وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب. إذ صح عنه – صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى عصبة ذكر " ولا ريب في أن الأب أولى من الأخ. وليس ما ذكر بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة.

٥٢٦٠. ظاهر الآية يفيد أن لا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأب في أنهم يشتركون في التركة إذا اجتمعوا؛ ولكن هذا الظاهر غير مراد، فقد خصصت السنة هذا العموم، فقدمت الأشقاء على الإخوة لأب. فإذا ما اجتمع الصنفان حجب الإخوة الأشقاء الإخوة لأب.

٥٢٦١. فيها أن الضلال قرين الجهل والهداية ثمرة البيان والعلم.

٥٢٦٢. فيها أن الله يريد أن يبين لعباده ما يحتاجون إلى بيانه، وأنه يكره أن يضلوا عن الحق.

٥٢٦٣. تفيد أن ترك بيان الله عز وجل والعمل بغيره ضلال وغي، لقوله: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ ﴾.

٥٢٦٤. فيها أن القرآن يبين لنا الحق فعلينا أن نتدبره ونتبعه.

٥٢٦٥. في قوله تعالى في آخرها: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ إشارة أن الله الذي خلق العباد هو وحده الذي يعلم ما يصلح شؤونهم.

٥٢٦٦. فيها مناسبة ظاهرة؛ ختامها بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ ناسب قوله: ﴿ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ ﴾ وعليه: فينبغي على من يتصدر للفتوى أن يكون عالما، والمستفتي لا يسأل إلا عالما.

٥٢٦٧. تفيد سعة علم الله سبحانه وتعالى، فلا تخفي عليه خافية والله بكل شيء عليم، وفي ضمن ذلك الحث على استشعار مراقبة الله تعالى والعمل بما شرع من هذه الأحكام الجليلة والفرائض العادلة الصادرة عن علمه المحيط.

٥٢٦٨. فيها إثبات صفة العلم لله سبحانه وتعالى، والإرشاد إلى التوسل بها خصوصا في طلب العلم.

تم بحمد الله

وبهذا تمت سورة النساء في ٥٢٦٨ هداية

بتاريخ ١/١١/١٤٣٩هـ

ولله الحمد والمنة ومنه التوفيق والعصمة.

تلخيص دكتور أحمد خليفة